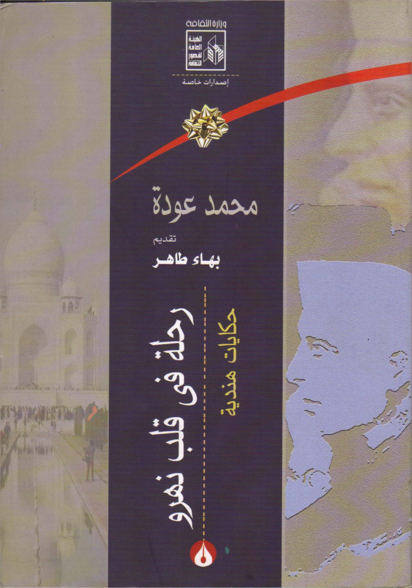

وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة
إصدارات خاصة
محمد عودة
تقديم
بهاء طاهر
رحلة فى قلب نهرو
حكايات هندية

رحلة فى قلب نهرو

وصورٌ أخرى من الهند



رحلة فى قلب نهرو
وصورٌ أخرى من الهند

محمد عودة

وزارة الثقافة



سلسلة
الإصدارات الخاصة
تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
د. أحمد نوار
أمين عام النشر
سعد عبد الرحمن
الإشراف العام
محمد أبو المجد
الإشراف الفنى
د. خالد سرور

49

تعنى بنشر الأعمال الفكرية والثقافية والأعمال الخاصة لأبرز الكتاب فى مصر والعالم

• رحلة فى قلب نهرو
وصورٌ أخرى من الهند
محمد عودة
• الطبعة الثانية:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
2007 م
224 ص. 17 × 22 سم
• تصميم الغلاف:
أحمد الجناينى
• المراجعة اللغوية:
محمد أحمد عبد المطلب
• رقم الإيداع: ٢٣٦٨٨ / ٢٠٠٧
• الترقيم الدولى: 3-520-437-977
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16أ شارع أمين سامى - القصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)
• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

رحلة فى قلب نهرو

وصورٌ أخرى من الهند



المحتوى



حلم محمد عودة الباقى



الهند والصين عشق قديم عند أستاذنا محمد عودة، وما أكثر ما كتبه عنهما، لكنه فى كل ما كتبه لم يغفل لحظة عن عشقه الأول : مصر ووطنها العربى كان حلمًا واحدًا يجمع عنده هذه الأقطاب وفى تعليق سابق لى على كتابه «رحلة فى قلب نهرو» حاولت أن أرصد ملامح هذا الحلم الذى عاش له الكاتب الكبير آملا فى مولد عالم جديد شجاع، بدا مخاضه مبشرا فى الخمسينات والستينات من القرن العشرين حتى اعتقدنا أنه ملك اليمين، وأن مولده أقرب مما نتصور.

«فقد كانت أحلامنا والهند أحلاما واحدة، بل كانت أحلام شعوب العالم كلها فى الواقع تصنع تيارًا جارفًا من الآمال العظيمة - تكبر فيه الشعوب ويصنعه الأفراد كما يصنعهم (...) وكم كانت الأمنيات جميلة! أن يعيش الإنسان عزيزا وحرا فى وطن مستقل تماما (من أى تبعية أو هيمنة) وأن تتحطم بضربة واحدة كل القيود التى كبلنا بها الاستعمار والقرون الطويلة من الإقطاع والاستغلال والظلم، فيملك الفلاح الأرض التى يزرعها ويحصل العامل على حقوقه العادلة فى مصنعه، ثم تتجمع بعد ذلك سواعد الرجال والنساء الأحرار لتعمر كل ركن فى أرض الوطن،

تصلح الأرض البور وتبنى مكان الأكواخ العمائر والمصانع، وتحصل المرأة على كل الحرية التى طال حرمانها منها، ويتوج الأطفال ملوكا فى مدارس تحسن تربية عقولهم وجسومهم، وتكون الفنون والصحافة والإذاعة رايات للجمال والحق والعدل ترفرف فى ذلك المجمع الحر الذى يمد يده لكل الأوطان الأخرى لكى يتجسد أخيرا على الأرض ذلك العصر الذهبى للإنسان الذى طال التبشير به»!

وهذا الحلم الجميل هو موضوع الكتاب الذى بين يديك «رحلة فى قلب نهرو» بالإضافة إلى مجموعة مقالات إختارها الأستاذ عودة بنفسه وطلب تجميعها للنشر قبيل رحيله.

لماذا ؟

للوهلة الأولى يبدو والكتاب كما لو كان يتحدث عن زمن غابر مندثر (على قرب العهد به !) من يحب التاريخ فسيجد فيه عبق ذلك الزمن الجميل مدونًا بلغة العصر وناضحا باهتماماته التى أوشكنا أن ننساها، يقرأ لنا الأستاذ الوقائع كما شهدها، ومن هنا يعطى الكتاب متعته لكل قارئ محب للمعرفة.

ولكنى أعتقد أن عودة كان له هدف آخر من التوصية بنشر هذه المقالات بعد مرور عشرات السنين على كتابتها، أظن أنه لم يقصد فقط الحديث عن التاريخ، وأبعد من ذلك عن التصور ولمن يعرفه أن يكون قد أراد البكاء على الأطلال، وإنما هو قد أراد على وجه التحديد أن يوجه رسالة إلى المستقبل وهو يبتعث ذلك الماضى بأمجاده وإخفاقاته.

هناك أسئلة يريدنا الأستاذ أن نتدبرها ونشحذ أذهاننا لنواجهها ونحن نقرأ هذه الفصول التى حرص على أن يقدمها لنا قبل الرحيل :

لماذا بدا للشعوب وللقادة الوطنيين (ناصر ونهرو وماوتسى تونج وغيرهم) فى فترة الخمسينات والستينات من الاستقلال الوطنى، والتنمية المعتمدة على الذات والعدالة الاجتماعية هى مسائل مترابطة؟ ببعضها البعض وأنها قضية حياة أو موت ؟ ولماذا راحوا يجربون السبل المختلفة لتحقيق هذه الغايات فى أسرع وقت وكيف نجحت

جهود وأخفقت أخرى ؟

وأهم من ذلك : هل عفا الزمن الآن على هذه الأحلام ؟ هل دهسها قطار «العولمة» وهيمنة قطب واحد على عالم اليوم ؟ هل يجب أن نسلم بأننا قد وصلنا بالفعل إلى «نهاية التاريخ» وأن هذه النهاية تتلخص فى اقتصاد السوق الذى نراه الآن يسحق الفقراء شعوبا وأفراداً كيما يتخم الأغنياء ؟

هل وصلنا إلى هذه النقطة دون رجعة أم أن الأحلام القديمة مازالت صالحة لأن تمدنا بطريق إلى الفرج والخلاص ؟ وكيف؟ ما الذى ينبغى أن نحافظ عليه منها، وما الذى ينبغى أن نطوره، وما الذى يتحتم أن ننبذه؟

فى فصول الكتاب خطى للإرشاد، ومفاتيح للإجابات علينا أن نلتمسها.

ولنبدأ كما أراد الأستاذ بالصين والهند. كلتاهما اليوم قصة نجاح يتحدث العالم عنه.

ماردان اقتصاديان وسياسيان يحسب العالم لهما ألف حساب. فكيف وصلتا إلى إنجاز حلمهما القديم ؟ يقول الأستاذ عودة مع ذلك إن هناك فرقا جوهريا بين التجربتين منذ البدء ويحدده بقوله :

«الهند أسلوب ومدرسة فى التنمية الاقتصادية، والصين أسلوب ومدرسة أخرى، وكل من الصين والهند يستفيدان ويقتبسان من بعضهما (..) وإذا كانت الصين قد قدمت أعظم تجربة فى تاريخ آسيا وأفريقيا لتحقيق الديمقراطية الاقتصادية فإن الهند قدمت أعظم تجربة فى تاريخ آسيا وأفريقيا – وربما فى تاريخ العالم لتحقيق الديمقراطية السياسية. وكلا التجربتين أساس لاغنى عنه لتحقيق الحرية والرخاء للشعوب».

ذلك ما كتبه الأستاذ مى عام ١٩٥٧، وقد تحققت نبوءته عن إفادة كل من التجربتين من الأخرى. فلا شك أن الصين اليوم فى أوائل القرن الحادى والعشرين أقرب إلى الديمقراطية السياسية مما كانت عليه فى ذلك الزمان الذى اعتمدت فيه العنف الثورى والتضحية بحريات الأفراد «حقوقهم التماسا لسرعة الإنجاز والتقدم. كذلك فإن الهند قد قطعت خطوات جبارة لتحقيق الديمقراطية الاقتصادية (أى التقدم

الاقتصادى الذى يعود بالنفع على شتى قطاعات المجتمع) وهى قد حققت ذلك بالتدريج عبر برامج السنوات الخمس المتعاقبة مهتدية وحزب المؤتمر بنهج نهرو الاشتراكى وفى إطار نظام ديمقراطى نيابى نموذجى. وكانت خطوات الصين أسرع بالتأكيد نحو التقدم الاقتصادى الذى كرست له كل الجهود مضحية بالديمقراطية السياسية وحقوق الأفراد، لكن من الواضح أن الأستاذ عودة أميل إلى أسلوب الهند فى التطور منه إلى نهج الصين العنيف. فهو ينقل بإعجاب واضح عن نهرو (بطله الاثير حتى النهاية بعد ناصر) هذه المقولة الحاسمة للزعيم الهندى «لن نضحى بالحرية المدنية من أجل أى تقدم اقتصادى» وهو يوحى مرة ويؤكد مرات أن الديمقراطية وإن أبطأت آلياتها ورقابتها من خطى التطور الاقتصادى إلى حين فهى الوسيلة الوحيدة لضمان استدامة هذا التطور وبقائه، وهل نحتاج هنا إلى الإشارة إلى سقوط الاتحاد السوفييتى المندثر للدلالة على صدق هذا الحكم ؟ فقد سبقت الإمبراطورية السوفيتية الصين إلى انتهاج العنف الثورى وسيلة للتنمية والتطور، ولم يدرك قادتها ما أدركه قادة الصين بحكمتهم الشرقية العريقة عن ضرورة تغيير النهج فى الوقت المناسب نحو الانفتاح السياسى والاقتصادى المخطط والمدروس (وليس انفتاح السداح المداح!) وهكذا نجت الصين ونجحت بينما تفسخ الاتحاد السوفييتى وتفتت عاقبة الجمود على مناهج وسياسات تجاوزها الدهر ورغبة الشعوب. وكأنى بالأستاذ عودة يريدنا أن نتدبر جيدا هذا الدرس – فأوطاننا العربية لم تكمل أبداً أى شوط حتى نهايته المنطقية، فلا هى تحولت إلى انفتاح ديمقراطى كامل ينشط الاستثمار لصالح الجماهير الغفيرة ولهذا فقد ظلت تراوح فى مكانها بينما يتقدم العالم من حولها شرقا وغربا، بل ليتها ظلت فى أماكنها، فالهوة تتسع – وكأنها تزحف إلى الخلف بينما يقفز العالم إلى الأمام.

هل تجد شيئا من التناقض بين موقف نهرو الذى تحمس له الأستاذ عودة كثيرا وبين عبارة وردت فى آخر الكتاب على لسان نهرو ويقول فيها «إذا لم تؤد الديمقراطية إلى الاشتراكية فلا معنى للديمقراطية وأنا على استعداد لأن أضحى بها» !

ثم تعليق الأستاذ الصادم على هذه العبارة بقوله «وليته فعل !»

لا تناقض على الإطلاق ! فنهرو قد عاش ومات مؤمنا بالديمقراطية ومطبقًا لها كحاكم على أكمل وجه. لم يتخل أبدا عن الديموقراطية رغم كل الإحباطات والصدمات والحروب التى خاضتها الهند طوال فترة حكمه التى كانت تتجدد بانتخابات ديمقراطية نزيهة ظل يفوز بها حزب المؤتمر. ولم يفقد الأستاذ عودة أيضا إيمانه بالديمقراطية، واقرأ العبارة التالية مباشرة لتعليقه السابق إذ يقول «إن تحقيق الاشتراكية بالطريق الديمقراطى كان يستدعى حزبا جماهيريا حقيقيا، ذا قيادة وطليعة اشتراكية حقيقية بين العمال والفلاحين والمثقفين وذا برنامج يستطيع أن يكسب الانتخابات وأن يحصل على أغلبية ساحقة وأن يقود المعارك السياسية فى البرلمان وخارجه لإقرار وتطبيق القوانين الاشتراكية وحمايتها بالوسائل الدستورية»!

لم يرفض الأستاذ إذن الديمقراطية بل رفض التظاهر بها – فقد كان يريدها ديمقراطية كاملة قوامها الانتخابات الحرة وتشريع القوانين وحمايتها بالوسائل الدستورية.

وعبارته التى يؤيد فيها نية نهرو التى لم تتحقق أبدا لحسن الحظ، هى فى واقع الأمر رسالة موجهة إلى الداخل المصرى فى حينها، فقد كان مأخذه الرئيسى على حزب المؤتمر كما كتب هو أن «أعداء الاشتراكية فى حزب المؤتمر كانوا أكثر من أعدائها فى خارجه (...) يرددون شعاراته ويعملون ما ينافيها»!

ولم يكن ذلك حزب المؤتمر وحده. لكنه كان فى رأيى تعليقًا أو تحذيرًا مبكرا وجهه مفكرنا الكبير يتعلق بحال تنظيمنا السياسى فى حينها الذى كان يرفع شعارات الاشتراكية دون أن يكون «حزبا جماهيريا حقيقيا ذا قيادة وطليعة اشتراكية.. يستطيع أن يكسب الانتخابات وأن يحصل على أغلبية ساحقة».

ونحن نعرف أن هذا التحذير المبطن قد ضاع سدى شأن تحذيرات مخلصة أخرى فتقوض التنظيم بأيدى من فيه من أعداء الاشتراكية بأكثر من الأيادى الخارجية.

لكن «وصفة» الأستاذ عودة للحزب الجماهيرى الحقيقى، الذى يعتمد على إيمان قادته وإخلاص كوادره وأعضائه والعمل الديمقراطى فى داخل الحزب وخارجه تظل هى الوصفة الحقيقية لنجاح أى حزب اشتراكى يريد أن يحكم، بل لنجاح أى حزب مهما تكن عقيدته.

***

قضية أخرى رئيسية تشغل بال كاتبنا فى هذه الفصول المختارة وهى «عدم الانحياز» وأنت تعرف بالطبع أن المصطلح والحركة نفسها ينتميان إلى عصر الحرب الباردة بين كتلتين شرقية وغربية. لهذا فقد يبدو أن تجديد الاهتمام بها يأتى فى غير زمانه، لكنك متى قرأت ما كتبه عنها الأستاذ تكتشف أن الفكرة نفسها لا تموت أبداً أيًا كان الاسم الذى تحب أن تخلعه عليها، والفكرة هى أن الشعوب فى قارات ثلاث هى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية قد تعرضت لاستغلال ونهب تاريخى عنيف ومنظم من الغرب أفقدها وأضعفها فأصبحت عاجزة عن مواجهة هذا الغرب أو المحافظة على الحد الأدنى من حقوقها إذا ما واجهته ككيانات متفرقة وممزقة كان الأمل الوحيد لشعوب العالم الفقير (ومازال) هو أن تواجه قاهريها ومستغليها ككتلة واحدة قادرة على المساومة، إذ يكتسب الضعفاء القوة من تجمعهم معا.

وهكذا كما يقول الأستاذ فقد ظهرت بفضل حركة عدم الانحياز «أسس جديدة إنسانية ومثالية فى العلاقات بين الدول وظهرت مجموعة من الدول لا تتربص إحداها بالأخرى ولا تحتقر إحداها نظم أو قيم الأخرى ولكن تتفاهم جميعا وتتفاعل جميعها. وتتبادل مالدى كل منها من ثقافات وعلوم وتجارب وموارد».

ولم تخيب حركة عدم الانحياز لدى نشأتها حلم كاتبنا الكبير بقيام عالم إنسانى فى الحدود الممكنة فلا شك أن وجودها قد أوقف امتداد الأحلاف العسكرية الشرقية منها والغربية، وأنها استطاعت بفضل قادتها الكبار – عبد الناصر ونهرو وتيتو – أن تكسب أنصارا أكثر لحركة السلام العالمية التى أوقفت أخطار انتشار الحرب الباردة وتحولها إلى حرب فناء كونى ساخنة، واستطاعت أيضا أن تحقق جانبا من حلمه فى

اتحاد الضعفاء ليصيروا باتحادهم أقوى فى مواجهة أسياد الكون وأذكر هنا على وجه التحديد منظمة مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية (الأونكتاد) التى رعى عبد الناصر إنشاءها من القاهرة فأصبح لدول عدم الانحياز - أو (مجموعة الـ ٧٧) كما أسميت داخل المنظمة - دور فعال فى وقف المظالم والاختلالات التاريخية فى حركة التجارة العالمية المؤثرة على عصب اقتصاد الدول الفقيرة.

دعك مما حدث بعد ذلك - أو بالأحرى فلنذكره جيدًا - من أن سادة الأمس واليوم قد التفوا حول الحركة الوليدة بهدف تدميرها وأنهم قد استعانوا على ذلك بإشعال فتيل الحروب الإقليمية وتأليب الدول الفقيرة بعضها على البعض وبالتدخل العسكرى المباشر فى كثير من الأحيان لتعود الفرقة والتفكك والضعف وليخلو لهم وجه الأرض فيستغلوا الكون ويمتصوا دم الفقراء والضعفاء كدأبهم من قديم الزمان. وتذكر أن الأمر قد تفاقم بعد هيمنة القطب الأمريكى الواحد الذى أعلن نهاية التاريخ وانتصار فلسفة السوق الذى يأكل فيه القوى الضعيف والغنى الفقير. تذكر أن ذلك قد ترادف مع تفكك - أو بالأحرى مع التفكيك المتعمد لمنظمات التعاون الإقليمى بين دول العالم الثالث، بل ومع تحول التعاون فيما بينها إلى صراع وحروب مدبرة بين أعضائها، وأذكر فى ذلك كنموذج أو كعبرة تستحق ذرف العبرات حال جامعتنا العربية وحال منظمات التعاون الإفريقى فى قارتنا الحزينة.

لم يحدث ذلك كله مصادفة، ولا كانت مصادفة إضعاف منظمة (الأونكتاد) لتصبح والعدم سواء ولتحل محلها «منظمة التجارة العالمية» التى يحدد مسارها وسياستها من يسمون بالسبعة الكبار، دون أن يكون للصغار صوت أو رأى.

ولم تكن مصادفة أيضا أن ترعى هذه المنظمة المشئومة مفهوم «العولمة» الذى تدل صيغته اللغوية وحدها على الفرض والقهر والقولبة. عولمة هى مرادف للهيمنة بأبشع صورها تتمرد عليها منذ الآن الشعوب الواعية حتى فى الغرب ذاته.

ويختلف ذلك تماما عن حلم الأستاذ بقيام نظام عالمى أو «نزعة عالمية إنسانية مثالية» كما حددها من قبل، تضمن لشعوب العالم الاستقلال والكرامة والرخاء.

وهكذا فإذا كانت حركة عدم الانحياز قد انحسرت فى جانب منها يرتبط بتغير التاريخ فإن إصرار الأستاذ على تذكيرنا فى هذا الكتاب بتاريخ الحركة وأهدافها يوحى بأن لها هدفا باقيا على مر الزمان، أيًا كان الاسم الذى سنعطيه لها وهو اتحاد الضعفاء ليصبحوا أقدر على التصدى لهيمنة الأقوياء والحاجة اليوم أمس حتى مما كانت فى ستينات القرن الذى مضى لوجود مثل هذا الاتحاد وهذه الحركة إذا ما أردنا مجرد النجاة والبقاء فى وجه عاصفة العولمة العاتية.

هكذا أفهم رسائل الأستاذ التى يوجهها للحاضر وهو يحدثنا عن الماضى، ولعلك واجد فى كل فصول الكتاب مثل هذه الرسائل الباقية. تكتشفها بنفسك حين تتجاوز التفاصيل الظرفية إلى المعنى المضمر.. قد تتوقف مثلى عند لحظات معينة تجد فيها التشابه، بل والتطابق بين تجربتنا والتجربة الهندية فى الفصل المعنون «مالا نتعلمه من الهند» قد يلفت نظرك بالذات التآمر المنظم من القطاع الخاص على القطاع العام ودور الفساد الإدارى فى تخريب جهود التنمية المستقلة فى الهند وفى غيرها وقد تحب مثلى ذلك الحوار القديم مع «فاطمة جنة» شقيقة القائد العظيم محمد على جنة (أو جناح كما نسميه بالعربية) صاحب فكرة دولة باكستان ومؤسسها. قد تستشف حلم «القائد الأعظم» بقيام دولة إسلامية عصرية وديمقراطية، لا تتوقف عند الشكليات، بل تتجه إلى جوهر الدين وتعطى المرأة كل الحقوق وتكلفها بكل الواجبات دون أى نوع من التفرقة، كما أنك واجد فى هذا الحوار الذى أجراه الأستاذ بنفسه كل بذور المشاكل التى واجهتها باكستان ومازالت تواجهها لانحرافها عن تعاليم مؤسسها.

وقد تتوقف مثلى أيضا فى الفصل المعنون «الثورة الهندية» عند حديث الأستاذ عن نجاح الهند فى القضاء على التطرف الدينى (الهندوسى) بفضل الديمقراطية والعلمانية الرشيدة (وإنما ذلك فى عهد نهرو وقيادته الواعية وليس بعده !)

وقد تقرأ بإمعان الفصل المخصص لوداع الزعيم الهندى «نهرو .. انتهت الرحلة» فتلفتك الأسس التى اختار غاندى بناءً عليها نهرو خليفة له على ما بينهما من التباين.

أشياء كثيرة تستحق التأمل كما قلت فى هذا الكتاب الغنى، ولكن أهم شئ هو ألا نقرأه بنوع من الحنين إلى الماضى، بل لاستشراف المستقبل كما أراد كاتبنا الكبير. حلمه الجميل لعالم جديد شجاع ظل باقيا معه حتى النهاية، لم يتغير سعدنا نحن - أصدقاءه ومريديه - بمعرفة صورته البهية التى يراها واقعا لا خيالاً، يتجسد فى الغد إن غاب اليوم. وها هو ينقل لك هذه الصورة فى كتابه الأخير لتظل، لك ولنا حافزًا يحدونا إلى الأمل - والأفضل إلى العمل - .

فشكرا للأستاذ الكبير محمد عودة وهو يسمعنا صوت بشراه حيًا وراحلاً.

بهاء طاهر

القاهرة فى أكتوبر ٢٠٠٧



بدلاً من مقدمة



ذهبت إلى الهند.

وكانت أول مرة أرى فيها بلدًا آخر غير مصر.

وإذا ذهبت للهند لابد أن تعود، وإذا عدت مرة لابد أن تعود وتظل تعود..

يبقى فى قلبك شوق دفين ويثور بين الحين والآخر حنين يلح ولا يهدأ حتى تنتهى. هناك عالم شاسع واسع لا تمل اكتشافه وتجد فيه كل مرة شيئًا جديدًا.. فريدًا.

كانت مدرستى الأولى ووطنى الثانى وثرت عليها وضقت بها، ورثبت لها.. ويئست منها.. ولكن فى آخر الأمر كنت أعود..!

لا يكون العالم أو العصر.. أو تحقيق الذات.. بعيدًا عنها. وربماتعبر هذه الأوراق.. عن بعض هذا.

محمد عودة



رحلة فى قلب نهرو



«هذه الصور آثارت أكبر ضجة عرفتها محافل الهند.. ولم يسكت هذه الضجة إلا نهرو بشخصه عندما قال:

«هذا هو أنا» وكريشنا مينون عندما أعلن: هذه هى نفسى التى أريد الهرب منها.. إنها قصة فنان يكتب التاريخ بخطوطه وألوانه».

لم يجلس نهروإلى فنان ليرسمه إلا «لسوتيسن جوجرال» الفنان الأصم الذى يسمونه لهذا «الرسام الوحيد الذى عرف نهرو من الداخل» وقد بدأت اللوحة وانتهت بمحض الصدفة من خلال عدوان السويس وكانت لحظات العزاء الوحيدة لنهرو هى الجلوس إلى سوتيسن والحديث إليه.. «ولم يكن هناك رجل مهموم همًا ثقيلاً مبرحًا مثل الرجل الذى كنت أرسمه» كما قال سوتيسن.

وقد نشأ سوتيسن وولد طفلاً أصم لم يستطع أن يتم دراسته لعاهته ،فانقطع عن المدرسة وهو فى الثالثة عشرة وأخذ يمضى أوقاته وينسى مأساته فى الرسم وفى التجول بين حقول البنجاب وعلى ضفاف أنهارها وعثر عليه أحد أساتذة الرسم وأدخله أحد معاهد الفن فى لاهور وكانت عاصمة الثقافة فى الهند القديمة والحديثة ،وحينما صقلت موهبته ونضجت روحه واستعد لتقبل الحياة فاجأته وصدمته المأساة الكبرى التى صدمت ملايين الهنود وعاش كل الهول الأكبر والفزع الذى صحب التقسيم ورأى بعينه المذابح التى شملت

الهند والآلاف تذبح بعضـهـا، والملايين تفـتك كـالوحـوش الضـارية بالملايين. ورأى «الذين كسـبـوا حريتـهم بالحب وعـدم العنف يكشـفـون عن أفـا ع وثعـابين قـاتلة كـانت تكمن في صـدورهم».. ورأى «جثث النسـاء والأطفال والصـبية بالمئات والآلاف ملقاة على أرصفـة لاهور وفي كل قرى وحقول البنجاب» ورأى الهند كلها.. «غاندى ونهرو وجنة ولياقت والكل عاجزون عن أن يصدوا هذا الطوفان.. الذى انفجر ككل براكين الشر في الإنسان».

وكما يقول «عشت كل أهوال التقسيم ولم يمنعني الصمم من أن أحس الهاوية المريعة ومن أن أسـمع الزلزال الذى عـصف بروح الإنسـان ولم أكن لأسـتطيع أن أجيب كـيف أو لماذا وقعت المأساة ،ولم أكن أفسرها إلا بأنها شـرط من شروط الحياة وبأن مذابح البنجاب قد أظهرت كل خطايا الإنسـان ،وكنت أرى الضـيـا ع والحياة المبددة حولى فيضـطرم الألم العنيف وكل الشياطين وألسنة الجحيم والأشباح المخيفة التي تراها في لوحاتى هي لأننى عشت كل هذا».

ورسم سـوتيسـن جوجـرال كل المأسـاة وظل الكابوس لا يفـارق حـياته إلى الآن، وكـان احتجاجه الوحيد عليه هو لوحاته.. ولهذا صب فيها كل الخوف والفزع وكل السخط والثورة وصب فيها أيضاً كل العطف والحج والشفقة التي يشعر بها نحو الإنسان.

وحينمـا أقام مـعرضـه الأول كان حدثًا من أحداث الفن في الهند ورأوا جـمـعًا الحدث الوحيـد الذى كـانوا يريدون أن ينسـوه وألا يروه أبداً وسـجله س|تيسن بحيث لا يشـعرون بالخزى والعار،ولكن بالعطف والرثاء وطلب الغفران لأنفسهم.

ورأى مـعـرضـه سـفـيـر المكسـيك في الهند وقـال له: إنك ترسم كـمـا يرسم ديـجـودى ريفـيـرا.. رسـامنا العظيم ولابد أن تذهب إلى بلادنا وسـتـجـدها وطنًا ثانيًا لك.. وكـان سوتيسن يريد أن يخرج من الهند ومن نفسه وأن يكتشف عالمًا جديداً فذهب إلى المكسيك وعاد بعد عامين وكما يقول «أقمت أول معرض لأعمالى بعد عودتى من بعثة العامين في مكسيكو وتحدثت الصحف كثيراً وكتب النقاد بإسهاب واشتد الجدل في دوائر الفن وفي آخر يوم زارت أنديرا غـاندى المعرض وبعد أن طافت به قـالت لى: لابد أن يرى أبى هذا المعرض ،ولنهاية المعرض ولارتباط صـالة العرض بفنانين آخرين طلبت أنديرا أن أحمل اللوحـات كلها إلى منزلهاليراها جواهر لال هناك. وتم هذا بالفـعل وفي ذلك الوقت كـانت مـدام «صن يات صن» تنزل ضـيـفـة عندهـم. وكانت مس نـايدو حاكـمـة ولاية البنغـال وابنة سـاروجيني نايدو الشـاعرة والمجاهدة المشـهورة ،ورأى الجميع اللوحـات وطلبت إلى مدام صن يات صن أن أقبل دعوتها للصين وأعرض هناك وقلت لها أننى أقمت عامين كاملين

خارج الهند وأريد أن أبدد الغربة وأبقى هنا بعض الوقت وطلبت إلى مس نايدو أن أذهب إلى البنغال حيث لا تزال المأساة حية وبألوان فاقعة ولكننى أردت أن أظل فى بلدى تراب البنجاب وأنهار البنجاب وهواء البنجاب»!

«وبعد يومين اتصلت بى أنديرا وقالت أن والدها يريد أن أرسم صورته وكانت مفاجأة كبيرة لأن جواهر لال رفض أن يقف أمام رسام أو مثال ولأن كل رسام فى الهند يريد لاشك أن يرسم جواهر لال لا لأنه رئيس الوزراء ولكن لأنه الهند الحديثة».

وفى اليوم الذى تحدد ذهبت لأرسم جواهر لال نهرو وانتظرت بعض الوقت ثم ما لبث أن دخل مهمومًا همًا ثقيلاً حتى لم أر فى حياتى رجلاً مثقلاً بالهم مثله فى ذلك الصباح وقال لى: أننى أشعر بخوف على السلام وعلى مصير الإنسانية كلها لم أشعر بمثله أبداً.. إننا جميعًا فى خطر.

وعرفت لأول مرة بنبأ العدوان على السويس والهجوم على على بلادكم ،وجلس وأخذنا نتحدث حديثًا طويلاً حول مصر وحضارة مصر ودور مصر وواجب الهند وحينما انتهت الجلسة كان يشعر ببعض الارتياح وبدأ من ذلك الصباح معركته ضد حرب السويس وخرجت مصر منتصرة فأحسست أنه انتصار شخصى له.. وكان فرحًا كطفل برئ.

«ولقد أتيح لى من خلال هذه المدة أن أرى جواهر لال فى كل حالاته وهو ثائر غاضب وهو متكبر متعال وهو مشمئز وهو حزين متألم وهو حالم متصوف ورأيته يعامل الأسماء الكبيرة والرهيبة باحتقار وبعجرفة وبضيق شديد وسمعته يبدىُ لى رأيه فى كثير من الناس بصراحة ويتحدث عن الهند ومشاكل الهند كما لم يعرف أحد غير أقرب المقربين إليه».وتأكدت وأنا أرسم نهرو أن هذا رجل فنان ضل الطريق إلى السياسة وأنه لا يكره شيئًا مثل الطريق الذى سار إليه وأنه لو خيّر مرة ثانية لاختار الفن ،وأننى لأذكر ما قاله لى آخر يوم حينما انتهينا.. أن الهند والإنسانية كلما صارعت للبقاء فإنها تبقى وتستمر بالفنانين لا برجال السياسة.

ورسمت لوحتين لنهرو..

كانت الأولى للرجل «الوحيد» الذى يقاسى ويعانى فى وحدته والمثالى الذى ارتفع إلى عالم لا يجد فيه أحداً يفهمه أو يشاطره أحلامه وأفكاره ،والثانية للرجل الثائر الذى يرى الواقع ويقارنه بأحلامه وما يريد فيحس بالتشتت ويمضه هذا الأحساس وقد رسمته فى هذه الصورة يحمل الوردة التقليدية والمغرم دائمًا بوضعها فى عروته ولكنها وردة تحولّت إلى حديد جامد وفوقه سماء مظلمة وأمامه حقول جرداء.. وبوجه ملأته تجاعيد الرجل

الحساس الذى أرهقته أحاسيسه لأنه يرى الأشياء ويحس بعجزه عن تغييرها كما يريد .
كان نهرو فى هذه اللوحة يذكرنى دائمًا ببوذا يهبط عليه الوحى وتضىء نفسه بالمعرفة ويمنحه الوحى والمعرفة القدرة على رؤية الأشياء كما هى وكما يجب أن تكون ولكن بغير أن يملك القدرة على تغييرها ومن خلال هذه اللوحة كنت أذكر دائمًا كلمة بوذا.. أن المعرفة قلق عظيم.

وأما اللوحة الثانية فكانت صورة رجل فى حرب حامية مستمرة مع نفسه بخيوط أحلامه هى التى تقيّد يديه ،وأفكاره المضطربة هى التى تذكى الجحيم حوله وصراعه «الهرقلى» الذى ينتهى دائمًا كما لا يتمنى ويبعث نظر الحزن العميق فى عينيه.. كان نهرو يبدو لى فى هذه الصورة.. «بروميثيوس المقيّد».. والذى لا يرى فكاكًا لقيوده.. وحينما انتهيت من هذه الصورة.. قال لى نهرو «هذا أنا تمامًا.. إن الإنسان دائمًا مثل جبل الثلج.. يطفو القليل منه على السطح وأما معظمه فيظل تحتالماء.. وانت يا سويتسن رأيت الصورة كاملة».

وحينما رأى النقاد صورة نهرو ثار أكثرهم وقالوا أنت متشائم وهذا ليس نهرو وهذه صورة ذاتية لنهرو.

ولكن جواهر لال أسكت النقّاد جميعًا وقال «سويتسن على صواب» وعلّق الصورتين فى بيته إحداهما فى غرفة المكتب والثانية فى غرفة الاستقبال.. وقال لى: هكذا حتى أرى نفسى ولا أنساها..

ومن خلال رسمى لنهرو كانت أنديرا تشترك معنا وكنت أتأمل وجهها كثيرًا وطويلاً وكان وجهها يوقظ فى نفسى دائمًا الشعور بالحنان والرحمة.. كنت أحس مدى الصراع القائم فى نفس هذه السيدة التى يعتقد الناس جميعًا أنها مرحة سعيدة، وكنت أحس تشبثها المستميت بالخيوط الأخيرة للأمل والنور ومدى الشجاعة والإيمان الذى يبعثه فيها الشعور بالخوف والعجز.. كنت أحس بالرحمة لهذه السيدة لأن المعركة فى نفس أنديرا كانت أشد حدّة منها داخل حزب المؤتمر ،وكانت تنعكس كاملة فى هذه النفس الرقيقة ،ورسمت أنديرا كما رأيتها بكل التيه والضياع وكل الحنان والشجاعة والجلد.. وكماثار النقّاد على صورة جواهر لال ثاروا لصورة أنديرا.. واتهموننى بأننى أرى الأب والابنة من خلال نفسى أنا .. ولكن أنديرا وقفت إلى جانب الصورة وقالت هذه هى الحقيقة وعلّقت الصورة فى غرفتها..

وكان هناك شخصيتان أخريان أردت أن أرسمهما لأنهما يعكسان الهند وملحمتنا

الحاضرة ويكملان صورة جواهر لال واندیرا.. وهما كريشنا منون ومولانا أزاد.

ورحب كريشنا منون وطرب لفكرة رسمه وليس هناك أرق إحساساً وأدق فهماً للفن بعد جواهر لال مثل هذا الرجل الصارم الجبّار المشتعل على الدوام.

كان كريشنا منون يشبه لى دائمًا صخرة صلدة مضطرمة بالنار فى داخلها وكنت أحس بالتناقض الكبير الذى يمزق نفسه بين الاشمئزاز العارم المخيف مما حوله وبين العطف العميق الشامل على ما حوله أيضًا وكان يبدو لى أحيانًا وكأنه يريد أن يقف كشمشون ويهدم المعبد عليه وعلى أعدائه لأنه لا يستطيع أن يطرد المرابين والصيارفة بالسيف وبالسوط.

وقد تصادفنا أنا وكريشنا منون وكان يأتى دائمًا ليزور مرسمى ويقضى وقتًا طويلاً معى وكان يبدو لى حينما يدخل الاستديو وكأنه حيوان برى انقلب إلى قط أليف مستأنس ونسى السياسة والجنرالات والجيش ولم تعد الحياة سوى ألوان وخطوط وأفكار وحينما انتهت الصورة جاء الكثيرون ليروا كيف رسمت كريشنا منون وكيف استطعت أن أقتحم نفسه وهل يمكن لأحد أن يقتحم هذه القلعة المغلقة وككل شىء يتعلق بكريشنا منون كانت الصورة موضع جدل عنيف ربما لم تثره صورة من قبل وتهافت كثيرون على شرائها وعرضوا مبالغ طائلة ورفضت وقال كريشنا منون إننى لا أستطيع أن أدفع لها ثمنًا ولا يمكن أن تحرم نفسك من ثمنها وأنا عشت التجربة والصورة وعشت نفسى الحقيقية معك ومعها ولابد أن تبيعها وحينما عرضت عليه أن يحتفظ بها بلا مقابل وألححت عليه رفض وقال «بينى وبينك ليس لدى شجاعة جواهر لال لأواجه نفسى كل يوم وفى غرفتين.. إننى أحب كثيرًا أن أنسى وأهرب من نفسى»...

وكانت الحلقة الرابعة فى الملحمة هى صورة مولانا أزاد.. وكان يمثل لى قمة كبرياء الهند وعزتها العقلية والروحية ،وكان يبدو لى وكأنه يعيش متكاملاً متصوفًا على حافة قمة شاهقة ويرى الناس حوله صغارًا أغبياء ولا يستحقون العناد ولا جدوى من تغييرهم أو إقناعهم وكنت أتصور فيه السوبرمان كما رسمه نيتشه وكان يجتذبنى فيه نظرته هذه وإرادته وأحس أنه يعيش «فوق البشر» وكنت أحس أن لهذه النظرة ما يبررها من تطوره العقلى والروحى ومن وعيه وعبقرية روحه ومن فرط حساسية نفسه..

وحينما فرغت من صورة مولانا أزاد واجهت مرة أخرى ثورة النقاد وقالوا هذا ليس مولانا أزاد وهذه ليست نظرته للناس ولكن مولانا أزاد مات وبعد وفاته بأشهر صدر الكتاب الذى لم يشأ أن يكتبه فى حياته وكتب قصة استقلال الهند كما رآها وكما عاشها

وكتب رأيه بصراحة فى كل الناس وكان تأييداً تامًا لكل ما أردت أن أقو له فى لوحتى.. عن مولانا أبو الكلام أزاد».

وسألت سويتسن جرجرال ليجيب بالهامه.. «إلى أين تذهب الهند وكيف تخرج من مفترق الطرق الذى تقف فى وسطه؟» ولا شك أن الفنان أحس القلق وراء سؤالى لأنه قال: «إننى أشحن رسومى بالسخط والمأساة لأجعل الناس يشعرون بالذنب لأننى أريد أن أثير الرحمة وأن ما يحركنى هو نوع من العطف ونوع من الثقة التامة فى الإنسان ،ومن الخطأ أن نظن أن مهمة الفن هى أن يجعل الناس سعداء.. إن الفن لا يجعل الناس سعداء أو تعساء ،بل الفن عليه أن يثير الناس وأن يرتفع بالإنسان حتى ولو كان فن المأساة . إن الفن لا يقدم إنجيلاً ولكنه يحرر روح الإنسان لكى تستطيع أن تجد الحقيقة بنفسها..»

«إن الفن يخاطب الروح وإذا ما استطعت أن أثير أرواح الناس فقد أديت مهمتى ،وأنا أعتقد أن العمل الفنى لابد وأن يحوى عنصرين هما الفكرة والتعبير والفكرة التى تدور حولها كل لوحاتى هى الإنسان وأنا أعبر عن عظمته وتعاسته وصراعه الدائم فى سبيل التقدم ،وأعبر عن الأمل والأمل هو أكبر ينبوع للفرح بالحياة ،وكل هذه اللوحات تحفل بالأمل والأمل هو الذى جعلهم يكافحون وهو الذى يجعلهم يستمرون فى المعركة .. وهل استشهاد الإنسان دلالة الأمل أم اليأس..؟ والذى وقف وقال أبتاه اغفر لهم فإنهم لا يعرفون ما يعملون... هل زرع اليأس أم الأمل؟.

وتذكرت كلمات سويتسن جرجرال فقد كنت حاضراً حينما سأل أحد الصحفيين الهنود نهرو يوم عيد ميلاده.. بمناسبة بلوغك السبعين واحتفالك بعيد ميلادك ،هل تشعر باليأس أم بالأمل ،وهل تشعر أنك بددت حياتك أم حققتها؟

وقال نهرو: ربما كان فى إمكانكم أن تحكموا أنتم ولكن ما أستطيع أن أقوله هو إننى ليس لدى إحساس بالضياع أو اليأس والتشتت ،بل بالعكس أحس أننى حققت حياتى ولم أبددها.. وأرجو أن لا يكون وجهى يعكس معنى آخر.. ولكن هل حققت ما أريد بالطبع لا وبكل تأكيد لا ،وربما من وقت لآخر أحس أننى حققت شيئًا ولكن على العموم لم أحقق ما أريد ولا زلت بعيداً عنه.. والذى يعوضنى هو أننى أجد لذة فى مواجهة الصخور والمستحيلات والعقبات وأجد لذة فى مصارعتها والسقوط تحتها أحيانًا والوقوف على قدمى دائمًا.. إن هذا يجعل الحياة مغامرة رائعة».

هناك أمل فى الهند..

صور قديمة



أول مـرة أقف على «مـزار» غـاندى كـان مـعى صـديق هندى يسـارى كـان من أول من تعرفت بهم هناك.. وقد رفض أن يدخل معى، وفضل أن ينتظرنى فى خارج السور الذى يطل على المكان وحينما عدت نظر إلى مبتسماً وقال:

– هل هذا الخشوع حقيقى؟

– حقًا حقيقى، ماذا تعنى.؟!

– كدت تذكرنى بعجائز الأوربيين والأمريكيين من السياح، أحيانًا يزورون هذا المكان بين عجائب دلهى ويفتعلون الصمت والرهبة ويغدو منظرهم مضحكًا.

– هل تريد أن أقـول لك سـرًا.. إننى مـتـدين ووطنى.. ولابد أن أقف خـاشـعًا على قـبـر غاندى .. لأنه قاد أربعمائة مليون إلى الحرية وعبر الطريق الروحانى أليس كذلك؟

وابتسم صديقى ابتسامة أخرى وقال:

–لقد كدت أفهم من مناقشتنا الطويلة هذا الصباح إنك مادى ماركسى مثلى..

– أستطيع أن أقول على طريقة يونو.. أننى مادى ماركسى على الأرض ومسلم متدين فى السماء.. إن كلاً منا يصل إلى الاشتراكية عن طريقه الخاص.. الفرد والشعب أيضًا.. ولكن هل من الضرورى أن تكون مـتدينًا وطنيًا لتزور وتخشع أمام قبر غاندى وهل من الضرورى لكى تكون ماديًا ماركسيًا أن تقف على السور وتهزأ ممن يفعلون؟

ولم يزد عن أن ابتسم.. مما استثارنى فقلت:

– هل تدرى ما أكثر ما صدمنى فى الهند أننى هيئ لى وكأن الهند كلها قد نسيت غاندى سريعًا وبعض الهنود أو كثيرون منهم يتحدثون عنه وكأنه رجل غريب شاذ الأطوار عاش هنا منذ آلاف السنين ومات وانتهت ذكراه ،أليس غريبًا أن أدافع أنا عن غاندى ضد هندى.

– لا تغضب يا صديقى– ليس هناك هندى لم يقلب غاندى حياته رأسًا على عقب سواء كان معه أو ضده. وليس هناك فى تاريخ الهند من غير فى حياتها الداخلية.. إن شئت.. وحياتها الخارجية مثل غاندى وليس هناك فى الهند من لم يبك يوم قتل غاندى .. حتى أنا بكيت.

– هل هذا تنازل منك؟

ـ بكيت بحرقة .. ولم يكن يخفف من بكائى ولا الألم العميق الذى أحسسته إلا اعتقادى أنه مات فى الوقت المناسب ،ربما لو كان عاش لأصبح كالجد العجوز المقلق.. مات بالطريق المناسب.. عاش قديسًا بطلاً ومات شهيداً.. وها أنا أعترف.. ولكن هذا لا ينفى كل أخطائه .. هل تعرف ماذا كان يسميها.. خطايا فى ثقل الهملايا.. لو كنت هنا منذ بضعة أشهر لرأيتنى أنا وأبى نغزل فى هذا المكان ومعنا نهرو وكان زعماء الهند.. يوم ذكرى استشهاده.

– تغزل هنا؟

– أنا لست العجيب.. الأعجب هو أبى أنه الآن عضو فى البرلمان عن حزب المؤتمر.. وهو من زملاء غاندى ونهرو القدامى ،ولكن أبى ماركسى لينينى من رأسه إلى أخمص قدميه. وحينما كنت صبيًا كان يثور ويصيح.. الاستقلال .. هذا ليس استقلالاً ،هذا صفقة.. عندنا فى بومباى طائفة أشد من اليهود اسمهم «البانيا» منهم معظم رأسماليو الهند.. واستقلالنا كما يقول لك أى شخص فى الطريق صفقة بين «بانيا» بومباى وكلكتا و «البانيا» الكبار فى لندن توزيع مصالح الاثنين والواجهة هى– لفجيعتنا جميعًا– نهرو– نهرو واجهة..؟

يختفى وراءها الرأسماليون البريطانيون والهنود.

هل تريدنى أن أصدق هذا؟

– أسمع يوم قتل غاندى قال أحد الرفاق عندنا لو كانت هذه الرصاصة قد أصابت نهرو لكان أعظم من عاشوا وماتوا فى تاريخ الهند.. لكان قد أصبح أعظم من «بوذا» ولكنه

سيعيش لتقضى عليه متناقضاته..

- متناقضاته؟! ربما متناقضاتكم؟

- اسمع .. إن ما تحتاجه الهند ليس نهرو.. وإنما ستالين.. الهند معبد قديم ملىء بالوحوش والأفاعى والطلاسم القاتلة.. وما يحتاجه هو شمشون.. شمشون جديد يهدم المعبد وينجو من تحت أنقاضه.

نهر فنان .. مثل الإله كريشنا..

- ولكن هناك ستالين واحد لا يستطيعون اقتراضه واستيراده.

وحتى لو استطعتم فإن ستالين لن يصلح فى الهند كما لن يصلح نهرو فى روسيا وكما لا يصلح ماوتسى تونج فى مصر.. لكل شعب طريقه وقيادته أليس كذلك؟

- نهرو حارة مسدودة وليس طريقًا، تأكد تمامًا.

* * *

وكنا قد وصلنا إلى المدينة بعد الرحلة الطويلة من مزار غاندى إلى دلهى الجديدة ولكنه التفت إلى وقال:

- هل تريد أن تتأكد أننى لا أتحامل على نهرو..

- كيف؟

- سأدعوك لتناول الغداء عندنا، لدينا مأدبة اليوم بعض النواب والوزراء ووكلاء الوزارات.

- ولكننى لست مدعواً

- لماذا.. لن تشعر بالحرج ليس لدينا بروتوكول فى الهند.

سترى قطاعًا من حكام الهند الجدد الوطنيين وستأكل أكلاً فاخراً.

- أكلاً فاخراً.

- نعم. عندنا طاه ماهر.. هذا من علامات الاستقلال.. ولدينا فيلا أنيقة فى شارع « بريثقى راج» قبل الاستقلال لم يكن أى هندى ولا جواهر لال نهرو نفسه يجرؤ على السير فيه.. وعندنا سيارة توصلك بعد الغداء إلى الفندق إن أردت.

- بورجوازية.. كاملة..

- طبعًا .. وحتى أبى.. يعمل جاهداًبالولائم والصلات ليكون وزيراً.. وهو لا يناقشنى قط.. وأحيانًا أشعر أنه يخجل من مواجهتى ولكننى أعرف.. وأضحك..

وذهبت معه .. كل شىء فى الدعوة كان مغريًا.. من سبب توجيهها حتى الطعام

الفاخر الموعود.. وبالفعل وكما يحدث فى الهند.. بعد دقائق .. زال أى شعور بالحرج أو الغربة ،واحد منهم كان «مسلماً» وكان وكيل وزارة سابقًا.. وكان أكثرهم حفاوة بى.

وسألته: إلى أين تسير الهند؟

وصاح: ولماذا تسألنى بصوت منخفض إن السؤال سهل والإجابة عنه أسهل.. فى السياسة الخارجية الحياد.. وفى الداخل الاشتراكية.. الحكومة التى يرأسها جواهر لال نهرو ليس لها سوى طريق واحد.. الاشتراكية..

– أى اشتراكية؟

– قال الامبراطور «اكبر» أعظم الأباطرة المغول حينما دخل الإسلام الهند أنه انصب فى قوالب هندية.. وحينما طبقت الصين الماركسية اللينينية لم تطبقها كما هى وصبتها فى قوالب صينية وهذه ما يسمونها « الماوتسى تونجية» واشتراكية نهرو هى اشتراكية حقيقية ثورية فى قوالب هندية..

– هل قرأت كتبه أو خطبه؟

– لا . إن لى أسبوعين فقط.

– منذ ربع قرن فى سنة ١٩٢٦ فى خطابه فى مؤتمر حزب المؤتمر قال نهرو:

«إن الاشتراكية بالنسبة لى ليست مجرد نظرية اقتصادية أفضلها ،ولكنها عقيدة حية أعتنقها بكل عقلى وقلبى».

– البعض يقولون إن نهرو يقف وحده.. فى الحكومة؟

– يقف وحده .. إن نهرو قد صنع جيلاً بأكمله، كل الذين تراهم حولك هنا تلاميذه قرأوا كتبه وحفظوها سطراً سطراً وساروا معه من أول الطريق حتى آخره.. وليس فى حياتهم سوى تحقيق أحلامه.. ربما تنقصنا بعض الخبرة.. معظم حياتنا كانت فى السجون أو فى القرى.. ولكننا نتعلم ونتعلم سريعاً..

– ولكن الجماهيرتبدو خاملة وغير مكترثة..

لا تصدق ما تسمعه من رواد الفنادق الكبيرة.

– ولكنى أسمع من الشبان الجدد.

– هؤلاء يستعجلون كل شىء.

نحن أرض الاستعمار التقليدية ومن أجل الهند استعمرت بريطانيا كل البلاد الواقعة على طريقها وفى الهند نفسها وطوال أكثر من مائتى عام استنزفت بريطانيا كل دم وحيوية الهند.. ومع هذا فى ظرف ثلاث سنوات.. أقمنا الدولة العلمانية.. ومعك فى هذه الغرفة

مسلم ومسيحي وهندوكي وملحد.. ويحتلون أعلى مناصب الدولة ويأكلون ويعملون معًا ومنذ زمن طويل.. وأقمنا الدولة الديمقراطية.. ويستطيع أى هندى أن يعتلى أعلى منصةً ويقول ما يشاء أو يكتب ما يشاء وأماكن قليلة فى العالم تستطيع أن تفخر بهذا الآن.. ونحن نقيم الدولة الاشتراكية ولجنة التخطيط تجتمع كل يوم وبعد أشهر سوف تصدر الخطة الأولى.. وسوف تكون شيئًا جديدًا وأصيلا فى الاشتراكية ،اذهب إلى كلكتا يا صديقى .. وحينما تعود.. تعال وسوف نتناقش؟

وبعد الغداء.. سألنى صديقى بسخرية.. هل أقنعتك.. إنه محام مشهور وكان رئيس جمعية المناظرات فى كمبريدج ويمكن أن يترافع معك فى المساء وضدك فى الصباح.

– على أى حال أنا أشكرك جدًا لهذه الدعوة لأنها اقنعتنى تمامًا أننى على صواب وأحب أن أقول لك أن لى أصدقاء كثيرين فى مصر مثلك وقد جئت إلى الهند وأحد الأسباب، أننى ضقت ذرعًا لأنهم لن يحققوا شيئًا مثلك وسيهزأون بكل شيء ويسفهون كل شيء مثلك .. أليس كذلك..

وابتسم وقال:

– نلتقى غدًا..

وبعد سبع سنوات طويلة كنت عائدًا من اليابان وقررت أن أُبْقَ بضعة أيام فى كلكتا.. وقرأت فى إحدى الصحف اسم وكيل «الوزارة» وقد أصبح وزيرًا كبيرًا فى حكومة البنغال الإقليمية.. وعلى الفور قررت أن أقابله وتصورت أنه سوف يذكرنى على الفور وسوف يرحب بى واتصلت به تلفونيًا.. وبعد عناء طويل.. قال لى السكرتير باقتضاب إنه سوف يرانى غدًا فى الساعة العاشرة والنصف إلى الساعة الحادية عشر «هكذا»..

وفى الموعد المحدد ذهبت .. فاجأتنى صورته.. شيء متغير تمامًا السمنة والملل والتبلد..كاريكاتير الوزير الهندى كما تنشره مجلة «شانكر» الهزلية وذكرته بمقابلتنا الأولى ولكنه بدا وكأنه لا يذكر شيئًا ،وكان عنده اثنان من «القوموسيونجية» يهدون إليه نتيجة لإحدى شركات الشاى الهندية الكبرى رسمت عليها صورة طاغور وإعلان عن الشاى الذى كان يفضله «طاغور»!!

ونادى الوزير سعاة المكتب وأمرهم بتعليقها على الحائط ووقف يشرف عليهم..

وسألنى بعدم اكتراث:

– كيف تجد الهند منذ زيارتك الأولى؟

–لم يتغير شيء كثير فيها..

– كيف..

– سائقو الركشا لا زالوا كما هم وثلاثة ملايين ينامون ويعيشون على الأرصفة فى كلكتا كما هم. وعشرة آلاف امرأة وطفل ينامون فى محطة كلكتا كل ليلة تماماً كما رأيتهم أول مرة وتماثيل «كلايف» و«هاستنجز» لا تزال فى كل ميدان فيها.. مزهوة متعالية.

وبدأ عليه الضيق وقال لى:

– هذه بلد ديموقراطية يا عزيزى والديموقراطية بطيئة ولكن مؤكدة والعنف أو الاغتصاب ضد طبيعتنا..

– ولكن حتى غاندى قال إذا خيرت بين الجبن والعنف فإننى اختار العنف..

– ياعزيزى.. هذا ليس شعبًا.. هذا قارة كاملة.. ومنذ كم سنة حصلنا على استقلالنا ،عشر سنوات فقط.. وبعد كم سنة من الاستبعاد أكثر من مائتى سنة.. ماذا تكون عشر سنين فى عمر الشعوب.. وفى عمر الهند.. أقدم تاريخ فى العالم.

– ولكن بلاداً أخرى فعلت.. الصين مثلا..

– ما يصلح للصين، لا يصلح لنا.. وما يصلح فى مصر لا يصلح عندنا.. لقد كان تأميمكم للقناة مغامرة وقد أفلتم منها بأعجوبة..

وشعرت بالاشمئزاز وأنهيت المقابلة وخرجت.. ربما كان صديقى «نيرمال» محقًا بعض الشىء..

وتدافعت كل هذه الذكريات وأنا أتنقل بين إدارة الجوازات وإدارة النقد وشركة الطيران استعداداً للسفر مرة أخرى إلى الهند.. ترى أين هؤلاء كلهم الآن..؟

نهرو.. الطريق الطويل



لكل هندى صورته الخاصة عن نهرو..

بالنسبة للجماهير الحاشدة ولملايين الهند هو بطل من أساطير المهابهاراتا، أو «الرامايانا» والفارس النبيل الذى ترك كل شىء ونبذ كل شىء، المجد والمتعة والثراء العريض من أجل البهارات ماتا أى « أمنا الهند» وهذه الصورة هى التى تهز خيال وضمير الهند، منذ بوذا وتلميذه الإمبراطور أشوكا.

وبالنسبة للمثقفين وصفوة الوطنيين نهرو هو الصورة المشرقة للهند، ولروح الهند فى عصر العلم والنور والذرة.. إن رسالة الهند، وعبقرية الهند هى الامتصاص والتوفيق، هى امتصاص كل الديانات والفلسفات والثقافات، والتوفيق بينها، وهضمها فى روح وعقل الهند، وخلقها من جديد كتراث هندى.

والهند الجديدة كما يتصورونها هى الأرض التى تشربت كل الأيديلوجيات والمعارف، من تعاليم الجيتا إلى الماركسية ومن حساب إقليدس إلى نواة الذرة، والتى «هندتها» ودعمت بها صرحها.. ونهرو بغانديته وفابيانيته وماركسيته ونزوته الفكرية الخلاقة.. هو صورة هذه الهند.

وبالنسبة لرجال حزب المؤتمر التقدميين هو العمود الفقرى للهند، هو كل شىء وأى شىء، وهو الطلسم الذى يضعون أيديهم على قلوبهم رعبًا لمجرد التفكير إنه ليس هناك..

بل وإنه قد لا يكون هناك.. والذى لا يجرأون على تصور الهند بغيره لأنها قد لا تكون بعده فالهند هى نهرو ونهرو هو الهند ولا شىء غيره!

وبالنسبة لأفاقى وانتهازيى حزب المؤتمر وهم كثيرون أكثر مما يظن أحد- هو مدير الدعاية الانتخابية ووسيلة كسب الأصوات وقضاء المصالح والحاجات وتعيين الأقارب والمحاسيب والاحتماء من الفضائح والمخازى.

وبالنسبة لمتحذلقى اليسار، هو مد منحسر ورجل يعيش أكثر من عمره لأنه نهاية مرحلة، ومجموعة متناقضات ومهادنات.. وهو بهذا يقف عقبة أمام التقدم، أى احتلالهم بغير حق لمراكز الزعامة، وبالنسبة للبيروقراطية الهندية هو (الولد الطيب من كمبريدج) الذى يضمن استمرار المراكز والمرتبات البيروقراطية الاى س اس . والذى يغفر لهم خدمتهم القديمة للبريطانيين وتفانيهم فيها.

وبالنسبة للرأسماليين والاحتكاريين هو الحالم الذى يريد أن يبنى قصوراً على الرمال، ولا يدرك الواقع والحقائق، ويسوق البلاد إلى طريق غريب عن روح الهند وروح غاندى «كذا» أى طريق لا يحق لهم الأرباح الخرافية، ويتركهم يتحكمون ويعصفون بمصير الهند.

وبالنسبة لنساء الهند هو (كريشنا) الإله الوسيم الجميل الذى تضع كل امرأة صورته فى قلبها وتدعو وتصلى من أجله قبل أن تنام.

حافل بالصخور والمجاهل والكلمات وأن كثيراً من القادة والأدلاء يسقطون عبر هذا الطريق أو ينكصون ،وأن القائد نفسه كثيراً ما يئن ويتعثر ، ويترنح الأمل فى نفسه تحت وطأة أحماله، وأن الكثيرين حوله أو قريباً منه، يتمنون من صميم قلوبهم أن يسقط ولا يقف مرة ثانية، ويملؤهم غيظاً ومرارة وحقداً، أنه يقف دائماً، ويضطرم بالثقة والأيمان.. ويحقق كل ما يريد.

وقد كتب نهرو تاريخ حياته فى كتاب من أجمل كتب المستقبل، وكتب تاريخ الهند، كجزء من تاريخ حياته وكمحاولة لفهم الهند التى وهبها حياته، وكتب محاولة لتاريخ العصر فى رسائل كان يبعث بها من السجن إلى ابنته وهذه الكتب الثلاثة هى المفاتيح الأولى لفهم الهند، ولفهم نهرو.. ومشاكل نهرو.. ومعركته ضد الاستعماريين البريطانيين ثم ضد الإقطاع والاحتكار وسيطرة رأس المال.. ومن أجل ٣٦٠ مليون مشكلة كما يسمى شعب الهند ومن أول لحظة فى الهند يستطيع الإنسان أن يدرك أن نهرو فى كل شبر وفى كل ركن وأنه فى كل يوم يمر يريد أن يعمق طابعه ويرسخ صياغته لنفس وعقل وروح الهند وهو لهذا لا يستقر فى مكان، خاصة حينما تتابع المواقف العصيبة فى هذه الأوقات يهرع

نهرو إلى الهند الحقيقية إلى مصادر قوته وسر شبابه وحيويته، إلى الريف والقرى وذلك كما علمه غاندى، وكما علمه تاريخ الهند.

ومشكلة نهرو الرئيسية هى أنه يريد أن يقود الأربعمائة مليون عبر طريق فريد يشقه هو ويرسمه هو ويحدد معالمه وملامحه هو، ومشكلته أنه يريد أن يبنى الهند على أسس نابعة من روحها وكما قامت الثورة الوطنية على أسس من تراث الهند ومن ثنايا قلبها، فلابد وأن تكون الاشتراكية والديموقراطية والتعاونية كما كانت الحرية هندية أولاً وأخيراً.

ومشكلة نهرو أن هذه مهمة تنوء بها الجبال وأن الطريق الذى يجتازه طريق وعر شاق ،ولابد لفهم نهرو أن يستعرض الإنسان تاريخ الهند من خلال المائتى عام الأخيرة، وكيف حكمت بريطانيا الهند وكيف استغلت واستعبدت واعتصرت آخر نقطة دم فى عروق الهند ، لابد وأن يعرف كيف بنى اللوردات الإنجليز امبراطوريتهم وثراءهم الفاحش العريض من عظام وحطام أربعمائة مليون، لم يتركوا لهم حتى الفضلات ،وتاريخ البريطانيين فى الهند أقسى وأفظع من أن يصدق ، ولن يصدقه أحد حتى يراه ولا زال الإنسان يستطيع حتى الآن أن يحس ، من التماثيل والقصور والبوابات ومن الشركات والبنوك الباقية، أن الإنجليز كانوا هنا، وأنهم عاثوا فى البلاد فساداً وعسفاً وظلماً وطغياناً.

لقد حكم الإنجليز الهند حكماً مباشراً من خلال مائتى عام، كانت حلقات متتالية من الإرهاب الأسود يجعل من جنكيز خان وتيمورلنك مجرد هواة، ويجعل الإنسان يرى بوضوح بربرية ووحشية المستعمر الأبيض ونفاق وزيف ما يسمى زورا وبهتاناً بالحضارة الغربية مثلاً: فى سنة ١٨٥٧ ثارت الهند ثورة كانت آخر محاولات الهند القديمة لاستخلاص حريتها وأخمد البريطانيون الثورة بوحشية لا زالت متفوقة على كل وحشية عداها، ولكن بعد الثورة أراد القائد البريطانى أن يلقن الهنود درساً لا ينسونه– فأمر أن يعلق هندى، أى هندى، على كل شجرة فى الطريق الممتد من بشاور فى كلكتا ، وهو طريق أنشأه الإمبراطور (شيرشاه) بعرض الهند كلها أى حوالى ثلاثة آلاف كيلومتر، وأمر بأن تزرع الأشجار على جانبيه . ودخل نفس القائد على آخر أباطرة المغول ووراءه ضباطه يحملون صينية كبيرة من الفضة وقال ساخراً للإمبراطور (منذ زمن لم نتبادل الهدايا يا صاحب الجلالة، وقد أردنا بمناسبة انتهاء الثورة أن تحمل لك هذه الهدية) ورفع الغطاء عن الصينية ووجد الإمبراطور رؤوس أولاده الثلاثة الشبان!!

وفى سنة ١٩١٩.. وبعدما اشتركت الهند فى الحرب العالمية الأولى ومات أكثر من مائة ألف جندى هندى، واستمع الهنود إلى صيحات ويلسون، عقد اجتماع سَامٍ فى مدينة

امريستار لبحث مطالب الهند بعد الحرب، ورأى القائد البريطاني أن هذا تحد لسلطة الملك والإمبراطور ، فذهب بجنوده إلى مكان الاجتماع، وحاصر المجتمعين وأطلق مدافعه الرشاشة التى حصدتهم جميعًا بلا استثناء، وهى المذبحة المشهورة بمذبحة امريستار، ولم يكتف الجنرال الصنديد بهذا ، بل أمر بأن لا يسير الهنود فى بعض شوارع أريستار إلا سيرًا على أربع كالدواب، ورفع العلم البريطاني فى عدة أماكن وأمر أن لا يمر هندى إلا ويركع ويحيى العلم البريطاني.

وفي سنة ١٩٤٢ بدأ السخط يعم الهند للمطالبة بالاستقلال وكان السخطعلي أشده في مقاطعة البنغال، وهي دائمًا قلب الثورة في الهند، فافتعل البريطانيون مجاعة أعلنوا صراحة أنها لا ذلال البنغاليين ولا رغامهم علي التطوع في جيوش الامبراطورية، ومات في هذه المجاعة علي أقل تقدير رسمي ثلاثة ملايين، وكانت الأمهات يتصارعن مع الثعالب والنسور علي قطعة من لحم أدمي يطعمن بها أطفالهن كما كتبت الأديبة الهندية (ايلاش).

وفى سنة ١٩٤٧ حينما تقرر تفسيم الهند إلى هندوستان وباكستان أذكى الموظفون البريطانيون نارالفتنة ووقف ضباط الجيش والبوليس البريطانيون يتفرجون على أبشع مذابح فى تاريخ البشرية كلها وهى المذابح التى مات فيها على أقل تقدير سبعة ملايين والتى زرعت محيطًا من العداء والحقد بين الدولتين لازال قائمًا حتى الآن.

ولقد حكم البريطانيون الهند ما يقرب من مائتى عام عرفت الهند من خلالها ٢٨ مجاعة كبرى أى فى كل الهند، أى بمعدل مجاعة كل ستة أعوام، وعرفت الهند ١١٢ مجاعة صغرى أى فى ناحية فقط من الهند وبمعدل مجاعة كل عامين تقريبًا.

وحينما بدأت منتجات لانكشير تغزو الهند ولم تجد الرواج الكافى، أمر حاكم الهند ونائب الملك فقطعت أصابع كل عمال النسيج اليدوى من الصناع المهرة والفنانين وذلك حتى لا تقف أصابعهم الخلاقة أمام إنتاج آلات لنكشير.

وهذه مجرد عينات وليست القصة كلها طبعًا ، ولهذا فإن إزاحة كل هذه الآثار ومحوها وإعادة ترميم وبناء المجتمع الهندى والفرد الهندى، مهمة شاقة هائلة تتطلب وقتًا وصبرًا.

ويقول الكثيرون أن الهند تستطيع أن تسير بأسرع مما تسير، بل وأن الهند يجب أن تسير بأسرع مما تسير وأنه لابد أن تتناسب السرعة مع شدة المشكلة ، وأن الهند لن تستطيع أن تقف جنبًا لجنب مع الصين واليابان وآسيا السوفيتية ومع الجمهورية العربية المتحدة وغينيا وغانا إلا إذا قدمت طريقًا جديدًا فعالاً ونموذجًا خلاقًا يحتذى لتحقيق الثورة الاجتماعية.

وربما كان هذا صحيحًا فى بعض أوجهه، ولكن العدل بالنسبة للهند، أن لا ينسى أحد أن معركة الهند التحررية كانت مختلفة ومغايرة تمامًا لأى معركة أخرى وأن المجتمع الهندى مجتمع معقد، يختلف عن أى مجتمع آخر.

ومعركة تحرر الهند بدأت فى أواسط القرن الماضى وبدأت كما لا يعرف الكثيرون هنا- كمعركة إرهابية عنيفة بدأها شباب البنغال بسلسلة من الأعمال الفدائية الخارقة، روعت البريطانيين القضاء على الارهاب بالارهاب، وحاولوا تقسيم مقاطعة البنغال كلها، وإذكاء الصراع الدينى ولكن فشلت كل محاولاتهم.

واهتدى بريطانى محنك إلى أن خير وسيلة لامتصاص وتوجيه وتبرير هذا السخط هو إنشاء حزب سياسى يجمع المثقفين والوطنيين والطباقت الوسطى والمستنيرة ويخلق وطنية إصلاحية معتدلة، متعاونة وموالية للتاج البريطانى، ونشأ حزب المؤتمر الهندى فى رعاية البريطانيين ولحسابهم، وظل المعتدلون يسيطرون عليه حتى ظهر غاندى، وتولى قيادته وانتزعها من المعتدلين، وحول حزب المؤتمر من ناد سياسى أرستقراطى للمطالبة المهذبة الدستورية إلى حزب جماهيرى ثورى يطالب باستقلال الهند وإن كانت الثورة قائمة على اللاعنف وعدم التعاون.

ومهما تكن تطورات حزب المؤتمر إلا أن جناح المعتدلين ظل قائمًا وقويًا فى الحزب وقد تدعم بعد ذلك بمعتدلين من طراز آخر ونوع آخر.. كانوا دائمًا يتحينون فرصهم ويترقبونها، ويفيدون منها، وكانوا لا يقفون بأطماعهم وأحلامهم دون السيطرة على الحزب وتوجيه الحركة الوطنية ثم الثورة الاجتماعية كلها.

إن الطريقة التى تتحرر بها بلد ما أى ثورتها الوطنية تنعكس دائمًا فى ثورتها الاجتماعية، وأن طبيعة المجتمع إذا كان هذا المجتمع ذا خصائص وكيان فريد مختلف تطبع وتوجه الثورة الاجتماعية،ولم يثبت هذا مثلما ثبت وتأكد فى الثورة الاجتماعية الهندية.

وقد تحررت الهند وتحققت الثورة الوطنية لأن غاندى عبأ الهند التقليدية، هند الفلاحين والقرى ولأن نهرو عبأ الهند المتطورة وهند المستقبل، وقاد المعركة. وتحررت الهند بلا عنف لأن غاندى تلفح بشاله وحمل عصاه وطاف الهند كلها قرية قرية ومدينة مدينة واستطاع أن يوقظ شعبًا من أربعمائة مليون، كان قد سحقهم الاستعمار، وامتص كل وآخر قطرة من دمائهم ولم يبق فيهم القدرة على أن يقفواعلى أقدامهم، أو على أن يفتحوا أعينهم ليروا النور والحياة. وتحررت الهند لأن غاندى استطاع عن طريق فلسفته ودعوته وشخصيته أن يلم شمل هذا الشعب الذى مزقه وفتته الاستعمار وأن يدفعه إلى المعركة كجيش عرمرم لا

يتقهقر لأنه يعي بقداسة زحفه ، وتحررت الهند لأن غاندى استطاع أن يحيل الشعب الخائف المذعور الذليل الأعزل من أى سلاح شعبًا مجاهدًا متحررًا من الخوف ومن الذى يندفع بلا سلاح أبدًا سوى قوة روحه ليواجه المدافع والرصاص المنهمر ويسقط الصف الأول فلا يتراجع رجل واحد بل يتقدم الصف الثانى وهو ينشد أناشيد الجيتا ويقرأ سور القرآن أو يغنى آيات الإنجيل، أو الزندافستا وهى كتب ديانات الهند الكبرى.

وكانت هذه هى المعجزة التى وضعت الهند على طريق الحرية وهو طريق كان غاندى نفسه يؤمن أنه طريق طويل شاق وأنه لن يتحقق بطرد الإنجليز فقط، ولكن (بعد أن تمسح كل دمعة فى عين كل هندى) ولعل غاندى بعبقريته وإلهامه قد أدرك أن صورة المستقبل تختلف عن القرية القديمة السعيدة التى كان يؤمن بها، ولعل هذا الإلهام والعبقرية هو الذى جعله يختار نهرو (ابنى وخليفتى) ولم يكن نهرو يؤمن باللاعنف، بالغاندية كعقيدة وإنما كسياسة ولم يكن نهرو يسير وراء غاندى كأحد حوارييه، ولكن كما قال نهرو لأن الجماهير كانت تسير مع غاندى ولابد أن يسير مع الجماهير، وكانت صورة الهند فى خيال نهرو غيرها تمامًا فى خيال غاندى كان غاندى بالنسبة لنهرو قديسًا تهرع إليه الهند كلها، وسواء فهمناه أم لم نفهمه، وسواء آمنا بفلسفته أم لم نستطع أن نؤمن ، فلا بد أن نكون إلى جواره نؤثر فيه ونتأثر به ويتفاعل معنا ونتفاعل معه لأنه يملك الشعب ويقود الشعب، ويجب أن نكون حيث يكون الشعب.

وكان نهرو يؤمن بالعصر الحديث، بالآلة والصناعة الثقيلة والخفيفة، بمصانع الصلب والسدود، والكهرباء ويؤمن بالاشتراكية، وعدالة التوزيع وكان يرى أن حضارة الغرب وثقافة الغرب التى استعملها البريطانيون لتنظيم وتعميق استعباد الهند واعتصار دم الهند لابد أن تقلب رأسًا على عقب لتحقق رخاء الهند وتؤكد سيادة وقوة الهند.

وكان نهرو وغاندى يعرفان تمامًا أين يلتقيان وأين يفترقان.

وكان حبهما لبعض وتفانيهما فى بعض لا حد له، وكانت هذه العلاقة التاريخية محورًا التفت حوله كل قوى الهند والقوى الدافعة لتحرر الهند.

ولكن الصورة لا تكون كاملة ومعركة الحرية لاتكون واضحة إلا إذا استكملنا الفصول الأخرى وهى كثيرة وحاسمة.

وقد تحررت الهند لأنه حدث أيضًا فى عام ١٩٤٢ ، أن أطلق غاندى صيحة « غادروا الهند» وطلب إلى البريطانيين الجلاء فورًا لكى يستطيع الهنود أن يدافعوا عن وطنهم لا عن الإمبراطورية البريطانية، ودعا غاندى الهنود إلى الكفاح بلا عنف فى سبيل تحقيق هذا

الجلاء، ورد البريطانيون على هذا باعتقال غاندى وكل زعماء الصف الأول والثانى والثالث بلا استثناء، وانفجرالشعب الهندى بقيادة شباب الجناح الاشتراكى فى حزب المؤتمر، وكانوا قد طرحوا سياسة اللا عنف والعصيان المدنى، وأعلنوا أن الهند لن تتحرر إلا بالكفاح المسلح ، وأن غاندى قد قاد الهند طويلاً ويجب أن تقوده الهند، ودارت معركة سنة ١٩٤٢ التى سقط فيها مالا يقل عن ٢٠ ألف شهيد ودمر فيها الثوار الهنود شبكة المواصلات، والإمدادات البريطانية فى الهند وأثاروا الرعب فى أرجاء الإدارة الامبراطورية.

وتحررت الهند لأنه من خلال الحرب استطاع (سوبها تشاندر أبوز) الزعيم البنغالى الثائر، والرجل الذى تحدى غاندى واستطاع أن ينتزع رئاسة حزب المؤتمر ضد إرادة أبى الأمة، استطاع أن يهرب من الاعتقال وأن يذهب إلى ألمانيا واليابان، وأن يكون جيشا من الأسرى الهنود وأن يتقدم به لتحرير الهند، ولم يهز خيال الهند زعيم مثل تشاندرا بوز وملحمة مثل ملحمة جيش التحرير الوطنى الهندى. وكان بوز يعتقد أن غاندى مرحلة من كفاح الهند، وأن مهمته انتهت بإيقاظ الشعب، وأن حزب المؤتمر يجب أن يتحول إلى حزب ثورى يؤمن بالعنف والكفاح المسلح وأن الهند لن تتحرر وأن الثورة الوطنية والثورة الاجتماعية لن تتحقق إلا بثورة حقيقية مسلحة ضد الاستعمار.

وقد صهر الجيش الوطنى الهندى كل عناصر الأمة الهندية وكان قائده ضابطًا مسلمًا هو الكولونيل (محمد شاه نوازخان) وكان ضباطه من الهندوس والسيخ والمسلمين، حتى أصبح رمزًا أسطوريًا لوحدة الهند، ولم يرتعد البريطانيون لشىء مثل قيام هذا الجيش الذى لا زال حتى الآن حديث الهند، ولا زال أبوز أيضًا أسطورة .. يؤمن جماهير البنغال أنه سوف يعود.

وتحررت الهند لأنه فى سنة ١٩٤٦، انفجرت فى بومباى ثورة فى الأسطول الهندى من البحارة والضباط الشبان وما لبث أن تضامن معهاالجيش والطيران الهندى.

ولأول مرة فى تاريخ الهند حول هؤلاء مدافعهم لا نحو إخوانهم وأبناء وطنهم ولكن ضد الغاصب المحتل وكان الجيش الهندى الإمبراطورى وولاءه الأعمى للإمبراطور هو الأساس الذى ارتفعت عليه الإمبراطورية البريطانية فى الهند بل والأساس الذى قامت عليه الإمبراطورية فى أسيا كلها ولعله إذا كان هناك دليل على مدى الاستعباد والاستخذاء الذى يصل إليه شعب فهو هذا الجيش، وكانت ثورته دليلاً على أن جذور الثورة قد امتدت إلى كل شىء، وأن العمود الفقرى للإمبراطورية قد تهاوى..

وتحررت الهند لأن مائة مليون مسلم فى الهند، وهم الأقلية الكبرى، قد أعلنوا أنهم ليسوا

أقلية ، ولكن شعب له حق تقرير مصيره وأنهم لن يكونوا بعد الآن مخالب قطط فى يد الاستعمار البريطانى وأنه لابد لهم من الحرية والسيادة فى نطاق هند مستقلة وموحدة أو مقسمة، وقد قامت الإمبراطورية البريطانية فى أساسها الآخر على التفرقة بين الهندوس والمسلمين، وعلى تفضيل وتخسير طبقة معينة من المسلمين ومن الهندوس لتحقيق هذه الفرقة ،ولكن جماهير المسلمين فى الهند التى استغل ظمؤها للحرية، وصممت على تحقيقها ، ووجدت فى محمد على جنة، قائدها ، جرفت هذه الطبقة وهذه السياسة وقوضت أركانها.

ثم.. تحررت الهند لأنه خلال الحرب العالمية الثانية ، نمت قوة الحزب الشيوعى الهندى نموًا كبيرًا وكان هذا الحزب قد وقف ضد الحركة الوطنية وعارض فى حركة «غادروا الهند» وأعلن تأييده للمجهود الحربى البريطانى بعد دخول الاتحاد السوفيتى فى الحرب، واستغله البريطانيون استغلالاً بارعًا في أثناء الحرب لتخريب الحركة وأرادوا التخلص منه بعد الحرب، حتى لا يغدوا خطرًا يهدد المصالح البريطانية الراسخة العتيدة فى الهند.

وتحررت الهند لأن الاتحاد السوفيتى قد ظهر على المسرح العالمى كقوة دولية كبرى فى آسيا وأوربا، وأيقظ هذا كل ذكريات الصراع الروسى البريطانى طوال قرنين من الزمان على حدود الهند ومن أجل الهند..

وخشى البريطانيون أن يستغل الروس الحزب الشيوعى أو السخط الوطنى فى الهند، أو أن يستغلوا الأحزاب الشيوعية فى آسيا أو السخط الوطنى فى آسيا ضد قلعة الإمبراطورية ودرتها وجوهرتها الكبرى.

وتحررت الهند لأن الولايات المتحدة الأمريكية كانت قد قررت أن تجعل من الصين قاعدتها الكبرى للتوسع الأسيوى وللإمبراطورية الأمريكية فى آسيا، وقررت أن تجعل من الرأسماليين الصينيين رجالها، وعملاءها، وأعمدة نفوذها فى التسلل والسيطرة الاقتصادية على آسيا، وفتحت خزائنها لتشيانج كاى شيك وأذكت كل شهواته ومطامعه ليكون رجل آسيا الأول.. كما تصور.

وتحررت الهند ، لأنه من خلال الحرب العالمية الثانية كانت الهند هى قاعدة التموين الأولى فى آسيا، ونمت فيها صناعة واسعة النطاق، وطبقة صناعية وتجارية كبيرة. ووصلت الرأسمالية الهندية التى بدأ نموها متعثرًا منذ الحرب العالمية الأولى، إلى ذروة كبيرة من الثراء والنفوذ، ورأت مصالح واحتكارات بريطانية كثيرة أنه من الحكمة أن تدخل مع هولاء الهنود فى كارتلات وترستات بنسبة ٤٩٪– ٥١٪ واستطاع هؤلاء الرأسماليون الهنود الذين كانوا يتمتعون بقدر من النفوذ فى حزب المؤتمر أن يوطدوا سيطرتهم على مراكز

السلطة فى الحزب، وأن يدعموا سيطرة رجالهم على لجانه وتنظيماته الرئيسية ، وكان رجلهم الأول هو هندوكى رجعى متعصب رهيب يسمى (السردارباتل) كان السكرتير العام لحزب المؤتمر وكانوا يسمونه قبضة الهند الحديدية وبسمارك الهند والقوة الحقيقية.. إلى جوار الحاكم السابح فى أحلامه والذى هو جواهر لال نهرو.

وقد علق البريطانيون كل آمالهم على هؤلاء، وعلى الصراع الداخلى فى الحزب الذى كان يشتد كل يوم بين سردار باتل وما يمثله ،وبين جواهر لال نهرو وما يمثله، وبين القوى التى وراء كل منهما..ووثق البريطانيون بأنهم سيحققون فى الهند تجربتهم فى الذى وضع أسسه بيفين واستعماريو حزب العمال.

وكان الرأسماليون الهنود مثل الاستعماريين البريطانيين يخافون من الاشتراكيين، ومن الشيوعيين ومن جماهير المسلمين ومن الاتحاد السوفيتى وكانوا ينظرون بقلق لأطماع الرأسماليين الصينيين ووراءهم الولايات المتحدة الأمريكية.

وأدرك البريطانيون أنهم يستطيعون أن يمنحوا الهند عن طريق هؤلاء استقلالاً معتدلاً.. وأن يتركوا لهم السلطة السياسية كلها، مقابل الاحتفاظ بالسلطة الاقتصادية واقتسامها معهم بالنسبة ٤٩٪ - ٥١٪ واستيقظت أمانى هؤلاء الرأسماليين وزاغت أبصارهم نحو الشرق الأوسط وكنوزه والشرق الأقصى وجنوب شرق آسيا وذخائره.

وكانت الثورة الاجتماعية هى معركة نهرو وحده ضد هؤلاء.. وربما كانت أقسى من معركة الثورة الوطنية ضد الاستعماريين البريطانيين لأن هؤلاء أثبتوا فى وقت قصير جداً أنهم أقسى بكثير على شعبهم من المحتلين الغاصبين.

وقد كانت معركة نهرو وحده، لأن الاشتراكيين انسحبوا من حزب المؤتمر الذى سقط فى رأيهم فى أيدى (بيرلا درالميا) وشنوا معركة لاهوادة فيها ضد حزب المؤتمر. ولأن الشيوعيين أعلنوا حرباً أهلية طبقية ضد الحكومة الوطنية.. وخلطوا بين نهرو وبين هذه الطبقة وعدوهم شيئًا واحدًا، وسموهم كلاب حراسة الاستعمار الإنجلو أمريكى) ولأن جماهير المسلمين قررت وأصرت على تقسيم الهند وعلى أن تستقل بوطنها هرباً من طغيان هؤلاء الذين كانوا يجعلون التعصب الهندوكى وإنقاذ هندوكية والتراث الهندوكى، شعاراً وقناعاً لاطماعهم.

ثم لأن الأجهزة التى كانت تحكم الهند وتديرها وتستغلها لحساب الإمبراطورية بقيت كما هى، لأنه لم يكن لدى حزب المؤتمر الذى كان مكونًا من خطباء ومهيجين وصائمين ومقاومين روحيين كادر ممن يصلحون للإدارة ودقائق الحكم، ثم لان (المعتدلين) أرادوا

استبقاء هذه الأجهزة، لحمايتهم ولتشتيت القوى الجديدة المعادية.

بقى رجال «الآى سى أس» كما يسمونهم فى الهند، وهؤلاء طبقة من أبناء الأسر الكبيرة الموالية للبريطانيين فى الهند دربهم البريطانيون تدريبًا محكمًا فى أكسفورد وكمبريدج وفى ملاعب الجولف والبولو، وخلقوا منهم (الطوق الفولاذى) الذى حكموا به الهند حكمًا غير مباشر..

وبقى ضباط الجيش الإمبراطورى الهندى، الذين حاربوا كل معارك الإمبراطورية والذين حارب آباؤهم وأجدادهم أيضًا تحت راية الملك والإمبراطور، وكانوا يشعرون بالزهو والفخر لهذا.

وبقى الجهاز البوليسى الذى كان يطلق الرصاص والمدافع الرشاشة على مظاهرات الفلاحين البسطاء الذين كانوا ينشدون الجيتا وأغنيات غاندى..

وبقيت الصحف التى كانت حربًا على الحركة الوطنية وعلى الزعماء ا لوطنيين والتى أنشأها وأدارها البريطانيون لتضليل وتشتيت الرأى العام الهندى.

وبقى الأساتذة الذين زيفوا تاريخ الهند، وملأوا عقول الأجيال الجديدة بالسفاسف والسموم.

وشعر أحد الحكام البريطانيين بالثقة فأرسل خطابًا مشهورًا إلى (ليدل هارت) المعقب الحربى البريطانى المشهور يقول: «يا عزيزى ليدل لا تخف لقد تركنا وراءنا كل ما يضمن استمرار وازدهار مصالحنا فى الهند وباكستان» ووقع الخطاب فى أيدى صحفى باكستانى فنشره وأحدث ضجة.

وكتبت التايمس تقول (إن مصالحنا الاقتصادية بعد الاستقلال أفضل بكثير منها قبله.. ونحن نكسب كثيرًا بغير أن نتحمل تبعات الحكم».

ولم يمض زمن طويل حتى تحقق الجميع أنهم لم يفهموا حق الفهم (جواهر لال نهرو)ولم يقدروا حق التقدير مواهب جواهر لال نهرو، وأنهم قللوا كثيرًا من ذكائه وإرادته. ولم يكن جوأهر لال نهرو البارفان الذى يختفون وراءه ،ولا الحالم الهائم الذى يستعملونه واجهة أمام الشعب، ولا صمام الأمن الذى يمتص ويبدد سخط الشعب . كانت فلسفة نهرو دائمًا هى «لا نستطيع أن نكون مثاليين بغير أن نكون واقعيين، فالمثالية بغير واقعية توقعنا فى الأوهام، والواقعية بغير مثالية توقنا إلى الانتهازية» وبهذه الاستراتيجية استطاع نهرو أن يشذب مخالبهم ويقص أجنحتهم ويحولهم من المبادأة والهجوم إلى الانحسار ومجرد الدفا ع.

كمالا

«قصة غرام نهرو»



كانت كمالا- قبل أن أتزوجها- فتاة ساذجة بسيطة ولم تكن متعلمة لأنها لم تقض فى المدرسة غير بضع سنين.. وقد ظلت بعد أن تزوجتها محتفظة بتلك النظرة «الطفلة» البريئة وظلت بعيدة عن عقد المرأة العصرية ،وكانت كلما نمت ونضجت تجلت أنوثتها.

وكانت عيناها تزدادان عمقًا وحرارة.. وكان وجهها يبدو كبحيرة هادئة واسعة تخفى تحتها بركانًا متأججًا لم تكن من فتيات العصر ولهذا ظلت على وقارها.. ومع ذلك كانت متفتحة الوعى لكل ما هو جديد ،كان سحرها وفتنتها أنها كانت فى جوهرها هندية.. بل كشميرية.. حساسة وذات كبرياء وعزة بريئة وساذجة كانت ناضجة وعاقلة.. وكانت أيضاً على شيء من الحمق..

كانت أبرز صفاتها أنها تبدو متحفظة صامتة مع الذين لا تعرفهم أو لا تحبهم ولكنها كانت تملأ الجو مرحًا وضحكًا مع الذين تألفهم حتى تبدو كالأطفال ،وكانت سريعة الحكم على الناس وعلى الأشياء فكانت تجور فى هذاالحكم أحيانًا ولكنها كانت تحكم بإلهامها وغريزتها ولم يكن فيها التواء قط فإذا كرهت بدا كرهها واضحًا. ولم تحاول أن تخفيه فإذا حاولت إخفاءه غلبتها طبيعتها ففشلت والذين قابلتهم فى حياتى وأشعرونى بالصراحة والإخلاص مثلها.. لا يزيدون على أصابع اليد الواحدة.

ولقد كنا فى نظر الكثيرين زوجين مثاليين ولكن المثل الأعلى دائمًا بعيد المنال ،قلت لها يومًا ونحن فى جزيرة سيلان أننا سعداء رغم كل المصاعب وكل الخلافات وكل مفاجآت الحياة.

ووافقتنى على رأيى رغم أننا كنا نختلف أحيانًا ونشتد فى الخلاف إلى حد الثورة والغضب ولكن الشرارة المقدسة فى علاقتنا ظلت مضيئة ولم نحاول إطفاءها فكانت الحياة بالنسبة لكل منا رحلة شائقة وتتكشف كل يوم عن شيء جديد يزيد كلاً منا فهمًا للآخر.

كانت «كمالا» شبيهة «بشترا» بطلة مسرحية طاغور المشهورة ،كانت تبدو وكأنها تريد أن تقول:

«أنا شترا.. لست آلهة تريد أن يعبدها الناس ولست ضعيفة فتستحق العطف أو الرثاء ولكن إذا ما جعلتنى أقاسمك واجباتك العظمى نحو الحياة فستعرف حقيقة من أنا وستفهمنى على حقيقتى».

لم تقل «كمالا» هذا بلسانها أبداً ولكنى أنا الذى بدأت أقرأه فى عينيها رويداً رويداً.

وفى مستهل حياتنا الزوجية كنت أكاد أنساها وأنكر عليها حقها فى زمالتى.. الزمالة التى كانت تتمناها وذلك لأننى كنت أعيش فى عالم وحدى بنيته بأحلامى أنا.. وكان الناس يلوحون لناظرى كظلال ،وكان رأسى لا يحوى غير القضية التى اعتنقتها قضية «تحرير الهند» ولكن لم أنسها إطلاقًا بل كنت أعود إليها مرة أخرى كما يعود المسافر إلى واحة خضراء جميلة وكنت إذا ما بعدت عنها أيامًا ظلت فكرة وجودها تمنحنى الطمأنينة وتجعلنى أترقب العودة وكثيراً ما تساءلت: «ترى ما قيمة الحياة لو لم تكن هى فى حياتى لتهدئنى وتمنحنى الراحة والسعادة ولتساعدنى على أن أزود جسمى وعقلى المنهوكين بما يجددهما!!».

وفى سنة ١٩٣٠ وجدت أخيراً أن الحل الوحيد هو أن نكافح معًا ووجدت فى هذه التجربة متعة وسعادة ،وقطعنا معًا مرحلة شاقة وكانت الهند على شفا أحداث خطيرة.

كانت العاصفة على وشك التجمع وكانت البلاد تستعد لوثبتها الوطنية الكبرى ،وكانت أشهراً رائعة ولهذا مرت بسرعة وأعلنت حركة العصيان المدنى وقامت الحكومة باعتقال كل من استطاعت اعتقالهم ودخلت أنا السجن مع كثير من رجالنا وفى تلك الفترة حدث شيء رائع.. قفزت نساؤنا إلى الصف الأول وقدن حركة الكفاح . لقد كن دائمًا معنا فى المعركة ولكنهن فى هذه المرة كن وحدهن وكن كل شيء.. ودارت معركة أذهلت الإنجليز ،بل وأذهلتنا معهم فقد اجتمعن جميعًا نساء الطبقة العليا ونساء الطبقة الوسطى والفلاحات

الفقيرات كل أولئك اللواتى لم يعرفن من قبل غير حياة البيوت وفى كنف الأزواج وتدفقن فى عشرات من الألوف متحديات قوة الحكومة وقسوة البوليس ولم تكن شجاعتهن وحدها هى التى أذهلت الجميع بل كانت قدرتهن على التنظيم أيضًا.

لقد شعرنا فى سجننا بالزهو والفخر بنسائنا وكانت قلوبنا تضطرم بالمشاعر وعيوننا تغرورق بالدموع.

وجيء بأبى إلى السجن وكان قائد حركة العصيان المدنى فى المدن وكان هو الذى شجع النساء على الاشتراك فى الحركة وكنت أعرف الناس بأخلاق أبى بكبريائه وبأساليبه القديمة وكان لا يعجب كثيرًا بفتيات العصر ولا يحبذ اشتراكهن فى الكفاح القاسى الذى كنا نخوضه ولكن تيار الشعور الشعبى أقنعه بغير هذا فلم يثن واحدة من النساء عن الكفاح حتى زوجته وبناته وزوجة ابنه. وكان أبى يقص علينا فى السجن قصص كفاح السيدات ومالم نكن نعلمه وما كان باعترافه موضع دهشته.

وكان يتحدث عن نساء بيته بزهو وعطف.

ولعبت «كمالا» فى الحركة دورًا كبيرًا ملحوظًا ووقع على عاتقها عبء تنظيم المقاومة فى «الله آباد» كلها. ولم تكن ذات تجربة فى هذا الميدان ولكنها عوضت قلة خبرتها بكثير من الحرارة والحيوية اللتين كانتا تتدفقان من أعماقها ولم تلبث أن أصبحت زعيمة «الله آباد» وموضع فخرها.

وإنى لأذكر يوم قبض على فى «كلكتا» فى فبراير سنة ١٩٣٤ ودخلت «كمالا» إلى غرفتى لتعد لى بعض الملابس وتبعتها لكى أودعها وتعانقنا وتعلقت بى بحرارة ثم لم تلبث أن أغمى عليها وسقطت بين ذراعى وكان هذا عكس ما اتفقنا عليه وكنا اتفقنا على أن يأخذ كل منا الأمور ببساطة وعلى ألا نحفل بها مطلقًا فماذا حدث؟

هل كان هناك إلهام داخلى بأن هذا الوداع هو الأخير؟

لقد فرق السجن بيننا حين كانت أحوج ما تكون إلى ،وحين بدأ كل منا يعرف الآخر معرفة أوسع وكان هذا الخاطر موضع تفكيرى فى أيام السجن الطويلة المملة ولكنى كنت أعود فأحلم بأن السجن سينتهى وسأعود إليها لنستأنف حياتنا معًا على ما نريد.

ولقد جاءت لزيارتى فى فترات الزيارة التى كان مسموحًا بها فكان كل منا يحاول أن يتجلد وأن يصمد.. ومع هذا فقد كنت أحس بأنها فى حاجة إلى ولكن كيف أستطيع أن أساعدها من وراء القضبان؟

وفى الرابع من شهر سبتمبر سنة ١٩٣٥ أطلق سراحى فجأة من سجن «الموا» ولما

سألت عن السبب قيل لى أن زوجتى تجتاز مرحلة حرجة وأن الأخبار وردت بذلك اليوم فقط..

كانت «كمالا» تستشفى بعيدة عنى بآلاف الأميال بمصحة للأمراض الصدرية فى «بادينوير» بالغابة السوداء بألمانيا ولهذا أسرعت إلى «الله آباد» حيث بلغتها فى اليوم التالى وفى نفس المساء ركبت الطائرة ووصلت إلى بادينوير بعد أربعة أيام من وصولى إلى «الله آباد».

وقابلت «كمالا» فرأيت على شفتيها تلك الابتسامة التى رسمتها الشجاعة. المأثورة عنها ولكن تدهور صحتها كان واضحًا وكانت الآلام تستبد بها ويبدو أن وصولى منحها شيئًا من الراحة فتحسنت قليلاً فى اليوم التالى وفى بضعة الأيام التى تلته ولكن الأزمة ظلت قائمة وكان المرض قد جفف عودها وأخذ يستل حياتها فى بطء كريه.

وكان الأطباء- على عادتهم- يشجعوننى على الاسترسال مع الأمل حتى بدا أن الأزمة قد زالت.. وجلست إلى جانبها كما كنت أفعل دائمًا ولم أحدثها طويلاً فقد كانت أضعف من أن تحتمل الأحاديث ففضلت أن أقرأ لها فصولاً من قصة «الأرض الطيبة» القصة المعروفة عن الصين لبيرل باك وكانت «كمالا» تحب هذا كثيراً.

وكنت أغادر الدار التى استأجرتها كل صباح لأذهب إلى المصحة ثم أعود فى المساء متثاقل الخطى تضطرم الأفكار فى رأسى وقضيت ليالى الخريف الطويلة وحيداً فى غرفتى بالدار التى أنزل فيها وأحيانًا كنت أهيم على وجهى فى الحقول المجاورة لها تتراءى لعينى صور حياة «كمالا» وجوانب شخصيتها الخصبة العميقة.

واجتازت «كمالا» المحنة وتنفسنا جميعًا الصعداء وظللت إلى جوارها حتى جاء الشتاء وإذا بأزمة تنتابها فجأة باتت معها حياتها وكأنها معلقة بخيط ضعيف وكنت أنظر من خلال النافذة فلا أرى غير الثلج يغطى كل شىء وأحس صقيع الموت يدب إليها فأفقد تفاؤلى ولكن «كمالا» تغلبت على هذه الأزمة أيضًا بقوة عجيبة وتحسنت صحتها وبدت فى مرح متصل.

وبعد بضعة أيام استولى على نفسها حزن مفاجئ وطلبت إلى أن أنقلها إلى مكان آخر.. وألحت فى هذا الطلب ولم أفهم له سببًا وأخذت أسأل وعرفت أن ارلنديًا صغيراً كان مريضًا معها فى المصحة وكان يبعث إليها كل يوم بباقة من الورد وفجأة.. انقطعت الورود وعرفت «كمالا» أن الطفل قد مات. ولم تطق البقاء فى محيط ذكراه.. وفى أواخر يناير ١٩٣٦ نقلنا «كمالا إلى مصحة أخرى فى «لوزان » بسويسرا وخيل إلينا أن هذا الانتقال

قد أفادها إذ تسحنت صحتها وازداد إشراق وجهها واعتقدت أنه لن تكون هناك أزمات بعد ذلك.

وكانت الرسائل تأتينى من الهند ملحة فى عودتى فقررت أن أعود وناقشت الطبيب ثم حجزت مقعداً فى إحدى الطائرات..

وأعددت كل شيء للعودة.

كنت أحس أن «كمالا» لاتريد أن أعود ،ولكنها لم تقل هذا فأكدت لها أن برقية منها تكفى لأن تعيدنى إليها على الفور.

وقبل موعد سفرى بأربعة أيام طلب إلى الطبيب أن أؤجل سفرى ولم يزد حرفًا واحداً فوافقت من غير تردد.

وفى الساعات الأولى من صباح يوم ٢٨ من فبراير لفظت «كمالا» آخر أنفاسها ونقلت إلى حيث أحرق جسدها وفقًا للطقوس وفى خلال. دقائق تحول الوجه الحامل لمعانى الإنسانية والشجاعة إلى حفنة من التراب.

لقد تحولت الحياة التى كانت متدفقة بالنور والرحمة إلى رماد حملته فى زجاجة هى ما بقى من «كمالا» التى أحببتها! وسافرت به إلى الهند!.



مذكرات سجينة

فيجايا لا كشيمى بانديت

شقيقة نهرو وسفيرة الهند فى أمريكا



١٢ من أغسطس ١٩٤٢:

كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل حينما استيقظت من نومى مفزوعة وأضأت النور فوجدت «نبدا» خادمى واقفًا على حافة السرير.. ولما سألته ماذا يفعل ؟ قال أن البوليس قد وصل وأنهم يريدون أن يرونى.

ولقد كانت رأسى ساعتئذ ثقيلة مضطربة وتموج بكل الأحداث التى تعاقبت في خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية، وكان الرصاص الذى حصد مواكب الطلبة لا يزال يدوى فى أذنى، وكانت وجوه الذين سقطوا ووجوه الذين حملتهم إلى المستشفى لا تزال ماثلة أمام عينى.. كل شيء فى كان مهدمًا..

عقلى وجسدى وروحى على السواء.. وكانت الحياة وكل صورها تبدو مهتزة معكوسة أمامى..

وكانت البنات نائمات فى الفراش فلم أشأ أن أوقظهن.

شهدت «ليكا» و «تارا» أحداث الأمس وحينما أوَتَا إلى مخدعهما كانتا منهكتين تعستين.. ولا أظن أن ما رأتاه سينمحى قط من ذاكرتهما..

وخرجت إلى بهو الدار وأحسست أن هناك حشدًا من الجنود والضباط .. وما أن أضأت النور حتى دهشت. فقد وجدت كل ركن قد امتلأ بهم.. بعضهم فى ستره الرسمية

وبعضهم فى ملابس عادية.. ورأيت شرذمة منهم تصعد إلى الفراندة حيث تنام البنات فغضبت وأمرتهم أن يعودوا وطلبت إلى الجميع أن يغادروا المكان وأن ينتظرونى فى الحديقة.

ويبدو أن حكمدار البوليس قد ضايقه هذا فقد قال لى أن معه أمراً بالقبض على فرددت عليه قائلة ولكن أى ضرورة لكل هذا العدد من الجنود المسلحين للقبض على سيدة عزلاء وفى مثل هذه الساعة الشاذة ورد قائلاً: إن معه أيضاً أمراً بتفتيش المنزل كله فتركتهم يفعلون ما يريدون وذهبت لاستعد للسجن.

وفى الواقع لم أكن أتوقع أن يقبض على ولهذا كان الأمر مفاجأة سخيفة فلم يكن فى البيت أحد مع البنات ولم يكن فى الوقت متسع لكى أرتب لهن شيئاً وقد وصلت أنديرا ابنة أخى من بومباى منذ بضع ساعات فقط ولهذا صعدت لكى أقبلها قبلة وداع ولكى أوصيها بالبنات وبعد حديث عاجل ذهبنا لنوقظهن ونخبرهن بالأمر.

وكن شجاعات باسلات كالعادة وأدركن الموقف فوراً فتقبلنه فى بساطة وفى حماس.. بل وبعد لحظات كن يساعدننى فى حزم حقائبى .. وجرت «ليكا» إلى المكتبة وأحضرت بضعة كتب دستهم فى حقائبى ولكن «ريتا» ظلت ساكنة تنظر إلى نظرات ساهمة بعينيها الواسعتين المثقلتين بالنوم وكلما نظرت إليها أنا– خارت شجاعتى فقد كانت «ريتا» صغيرة والعالم كبير ولا أحد ليعنى بها.

وكأنما أحست هى بما فى نفسى إذ ابتسمت قائلة: «هل أذهب إلى السجن معك يا ماما» وأزاحت الكلمة كل همومى وضحكنا جميعاً وانحنيت أنا أقبلها واحتضنها بحرارة وقالت تارا: «سنودعك يا ماما فى الحديقة ليرى البوليس كيف تقابل أسرتنا هذه الأحداث».

وخرجن جميعاً معى إلى الحديقة وحينما اقتربنا من البوليس قالت «ليكا» فى صوت عال: «ماما العزيزة لا تهتمى لشىء سأعتنى أنا بالجميع ،وصاحت «تارا»..

«وداعاً يا ماما سنحتفظ بالعلم مرفوعاً وكانت «تارا» متحمسة مرفوعة الرأس تشتعل عيناها ببريق غريب وتعلقت «ريتا» الصغيرة بى لحظات ثم قالت فى صوت قوى حنون «ماما.. اعتنى بنفسك وسنحارب نحن الإنجليز خارج السجن».

ووجدت على الباب فى انتظارى ثلاثة لوريات مشحونة بالجنود ووجدت كل الشوارع والطرقات التى تؤدى إلى المنزل محاصرة وطلب إلى الحكمدار أن أصعد بجانبه إلى أحد اللوريات فصعدت.

ولقد كانت الأحكام العرفية معلنة فى المدينة ولهذا كان الظلام يسود كل شىء وكان الجو مكهربًا عنيفًا مشحونًا بالاحتمالات.. وكلما نفذت السيارات إلى شارع تدافعت إلى رأسى الأحداث ليس فقط أحداث الأمس وإنما كل أحداث العشرين عامًا الماضية.

وحينما وصل الموكب إلى جسر «الجمنة» أوقفنا الحراس ليتأكدوا منا ولدهشتى ظللنا مدة حتى اقتنعوا وتركونا نمر..

وقد عجبت وأنا أشاهد هذه الدقة ،أى ولاء خسيس يزرعه البريطانيون فى نفوس خدمهم وعملائهم!

ووصلت إلى السجن فى الساعة الرابعة صباحًا ويبدو أنهم لم يكونوا على علم بزيارتى فقد ثارت مشكلة انتهت بأن قادونى إلى الجناح الذى أعرفه جيدًا.

وكان الصداع يفتك برأسى ومفاصلى تكاد تنهار فلم أستطع قط أن أنام وظللت أفكر طويلاً فى «ليكا» وأخشى أن يكون مصيرها مثلى إلى السجن وفى المساء جاءتنى قبل أن تنام وأخذت تتحدث فى حدة قائلة.. «ماما..سيمضى وقت طويل قبل أن أستطيع أن أنسى ما رأيت اليوم.. وسيمضى وقت طويل قبل أن أسطتيع اقتلاع الحقد والكره الذى يطغى على كل حواسى.. إن الحياة العادية الطبيعية قد انتهت بالنسبة لنا.. ويجب أن نمضى فى الطريق وحتى النهاية».

أول سبتمبر

إن الأيام هنا طويلة.. طويلة.. لا تنتهى ويبدو لى أن ليل السجن أكثر ساعات من ليل الحياة.. بل إن الزمن هنا يطول أكثر مما يجب.. إن كل يوم بشهر وكل شهر بسنة وكل سنة بقرن كما قال جواهر لال.

ولقد كان اليوم عيد ميلادى وجاء ضابط السجن يهنئنى ويسألنى: كم عمرى؟ وقلت له لا أعرف.. وأنا حقًا لا أعرف.. إننى أحس وكأننى عشت من خلال عدة قرون طويلة.. طويلة... ولقد أخذت أتذكر اليوم ما قيل لى يومًا أننا لن نستطيع أن ندرك الزمن من خلال كرة من الزجاج أومن خلال صفحات يوميات.. وإنما من خلال أرواحنا.. وإذا ما استغرقت أرواحنا فى سبات.. جثم الزمن وطال.. وإذا ما استيقظت واضطرمت يومًا بالأسى ويومًا بالأمل ويومًا باللهفة فقد تحمل ساعة فى ثناياها مالا تحمله عشرات السنين الجافة.

١٥ من سبتمبر

إننى أتطلع الليلة إلى أمسية جميلة فى صحبة كتاب بديع أعطته لى أنديرا هو« أجمل رسائل التاريخ» وأنا أريد أن أستغرق كل وقتى فى شىء لأننى لا أعرف كم تمتد مدة

السجن هذه وأحيانًا يغلبنى الحنين إلى البيت وإلى البنات.. يجب أن أقهر هذه النزوات.

١٦ من سبتمبر

إن تصور الحياة بغير كتب أمر فظيع تمامًا كتصور الحياة بغير رسائل.

لقد قرأت فى مقدمة الكتاب أمس «أن البريد هو سلوى الحياة الوحيدة وطالما فى الحياة سعاة بريد فلن يفتر حماسنا للحياة أبدًا».

وما أظن أن هناك أحدًا فى الحياة لم يشعر هذا الشعور يومًا وماأظن أن أحدًا منا لم ينتظر يومًا فى لهفة ساعى البريد يحمل إليه رسالة .. رسالة واحدة فقط.

أكتوبر

إننا نعطى الطعام أهمية أكثر ما يستحق ،وهذه حقيقة لا نعرفها إلا فى السجن ،ولهذا صممت اليوم على أن أطرح الطعام من حياتى.. فلقد مرضت وأنا أحاول أن أطهى طعامى وعلى موقد فطرى وبمواد غريبة يسمونها تموين. ولم أجد سوى أن أطرح فكرة الطعام نهائيًا وأن أكتفى بالخبز والشاى.

والشاى فى السجن شىء لا يصدق ولقد كانت تجاربى فى الشاى عديدة ومتفاوتة وهى تتراوح بين الشاى المعطر الذى كانت تبعث به إلى مدام تشيانج كاى شيك وبين الشراب العسلى الذى لا يوصف والذى نتجرعه من خلال الانتخابات.

ولكن شاى السجن تجربة فريدة لم تمر فى حياتى من قبل وأحيانًا يهيئ لى أنهم يزرعونه فقط وخاصة للمساجين..

أكتوبر

أخبرتنى السجانة اليوم أنها قد خصصت لى خادمة من السجينات العاديات تساعدنى فى الطهى وفى تنظيف غرفتى وجاءت السجينة وكان اسمها «دورجى» ومنها عرفت أنها فى السادسة والعشرين وأنها تقضى حكمًا طويلاً لقتلها زوجها.

ولقد كانت «دورجى» سوداء كالحة ولكنها كانت سمحة لطيفة المعشر ومهذبة حتى لقد أدركت فورًا أننا سنصبح أصدقاء.

وأخذت «دورجى» تحدثنى حديثًا طريفًا عن السجن وعن قبحه وموازينه الاجتماعية ومنها عرفت أن لكل مكان حتى السجن أصوله وحدوده الدقيقة فقد عرفت مثلا أن القاتلات يتربصن على قمة السلم الاجتماعى ومن تحتهن السارقات ثم النشالات ثم المحتالات ثم مزيفات النقود ثم فى الدرك الأسفل البغاياوتاجرات الأعراض.

ولقد فهمت ساعتئذ ما كنت أسمعه حينما كانت تثور ثائرة السجينات سنة ١٩٣٢

وتقف إحداهن متهددة وتصبح «كيف تجرؤون على معاملتي كما لو كنت سارقة.. إنني هنا بحكم قتل».

ولقد كنت أول ما سجنت سنة ١٩٣٢ أخاف من هؤلاء النساء.

ولكن بعد أن عرفت «دروجي» تغير فهمي للإنسانية كثيراً.

وذات يوم من خلال الحديث. وكنا نجلس كثيرا لنثرثر روت لي «دروجي»قصتها وهي قصة عادية، قتلت زوجها لأنه يضربها ويهملها ويحرمها من الطعام ،وروت لي كل التفاصيل الكريهة المرعبة بشغف وكأنما تستمد نشوة عميقة من الذكرى.. تزداد وتعلو كلما ذكرت كيف فجعت حماتها القاسية في ابنها الوحيد.

وتركت «دروجي» ولداً في الثانية من عمره ودخلت السجن ببنت في الشهر السادس من عمرها وماتت البنت بفعل السحر الأسود كما تقول.. ولكن الولد لا زال حيًا.. وهو الآن في الحادية عشرة من عمره ولم تره مرة واحدة منذ سجنت.

وفي كل يوم كانت تنتابها نوبة تشنج وبكاء عنيفة على ابنهاالذي لم تره وأجلس أنا بجانبها لأسري عنها.

١٢ من نوفمبر

استلقيت على سريري.. وأخذت أنظر إلى السماء وأتأمل النجوم إنها تمنحني دائمًا شعوراً بالطمأنينة.. فهي ساكنة هادئة لا تغير من كل ما نراه من حماقات البشر ولكنني أحيانًا أسمع صوت الطائرات.. وهذا الصوت يثيرني ويبعث القلق والعذاب في نفسي.. ويجعلني أريد أن أحطم هذه القضبان.. إن من الحماقة أن يوضع البشر في أقفاص إن هذا لا يحل أي مشكلة قط.. إن العالم يسير في حلقة مفرغة ويعود دائمًا إلى حيث بدأ أي معنى للتقدم أنها مجرد كلمة .. مجرد كلمة.

يناير.

كانت صدمة كبرى لي أن أعرف اليوم بموت «مهاديف ديزاي» في السجن بالسكتة القلبية.. ولقد قضيت يومًا تعيسًا أليمًا.. فقدت فيه كل سيطرتي على نفسي.. وأخذت أبكي.. إن صور حياة «مهاديف ديزاي» تتتابع أمامي وأستطيع أن أحس أي عالم ضيق لا يحوي «مهاديف ديزاي» وأنني أفكر في «ديرجا»– زوجته– وابنها الصغير.. وماذا يفعلان الآن و «بابو» (غاندي) في السجن وليس لهما أحد سواه.

(مهاديف ديزاي) كان (سكرتير غاندي).

ولقد ظللت طوال الليل ساهرة لا أنام وأستعيد كل الأحداث التي تصلني به.. ولقد

رأيته.. وكأنما بالأمس وهو يدفع إلى بنسخة من «المودرن ريفيو» المجلة الجديدة ويطلب إلى أن أقرأ مقالاً لصديق له صديق شاب لامع من أذكى الشبان وأحبهم إليه ولقد كان هذا عام ١٩٢٠ وكان عنوان تحت أقدام الجورو «المعلم» وكان الكاتب يدعى « رانجيت ياندبت» ومنذ ذلك الحين ومن خلال اثنين وعشرين عاماً وأنا زوجة «الصديق الشاب اللامع».

إن موت «مهاديت ديزاى» فاجعة أليمة «لرانجيت».

يناير:

قرأت اليوم ذكريات «جفرى مونسل» عن السجن.. «إن السجن مقبرة يدفن فيها الناس أحياء وترى فيه البشرية عارية».

وقرأت له قصيدة تقول:

لقد رأى وهو يسير فى حقول باشا زنزانة فيها سجين وحيد وفرح الشيطان

فقد أرحت له بسجن مبتكر جديد لجهنم

وأننى أتمنى أن يزور الشيطان زنزانتى فإنه سيجد الكثير ليقتبسه من سجون البريطانيين فى الهند!

مارس:

تناولت فنجاناً من الشاى هذا الصباح وتمددت فى سريرى أستريح وجاءت «بيرنيما» و «كالى ديفى» و «مهاديفى تشوبى» و «لكشميى بابات» واثنتان من طالبات الجامعة الصغيرات هما : «قيد يافانا» و «جوفيندى ديفى».. وجلسنا نتحدث أن السجن لم يعد مقبرة بالنسبة لى هذه الأيام فقد وفد عليه فى الأسابيع الأخيرة كل من أعرفهن .. حتى «نارينى» العجوز التى تقضى الليل ونصف النهار تتلو أسفار الجينا والقيدانتا وتؤنبنا لأننا لا نشاركها.

وسمعنا فجأة ضجة فى فناء السجن وقامت «بيرنيما» لتطل من النافذة وما لبثت أن صاحت تنادينى ولما أطللت رأيت «ليكا» متلفعة بعدد من عقود الورد وقد سارت متهللة فى فناء السجن ووراءها زينب السجانة وصف من الجنود.

وظننت انهاجاءت لزيارتى وإن كنت استغربت كثرة عقود الورد ولكن بعد لحظات كانت «ليكا» فى وسطنا تعلن فرحة مزهوة أنهم قد قبضوا عليها.

«ليكا» فى السجن إذن صح ماتوقعته هذه الطفلة التى لم تعرف بعد الحياة .. فما بال السياسة.

وجلست «ليكا » تروى بفخر كيف قبضوا عليها وكيف جعلتهم ينتظرون ليلة كاملة وفى

البرد القارس حتى أمسكوا بها وجلست أستمع إليها وهى تتحدث . وأخذت أتأملها.. يوم ولدت .. ثم وهى طفلة فى سنتها الأولى.. وأنا بجوار سريرها والثلاثة أشهر الطوال أصلى وأبكى لتشفى من مرضها.. ثم وهى فى الثامنة من عمرها ويوم قبضوا على أنا ورانجيت أبوها ويوم ذهبت تودعنا على محطة القطار.. لقد كانت يومئذ تحمل علمًا كبيرًا أطول وأضخم منها.. ولما قلت لها لاتحملى هذا العلم الكبير يا عزيزتى» قالت «هذا يخيف البوليس يا ماما».

ثم «ليكا» منذ أشهر حينما احتفلنا بعيد ميلادها الثامن عشر وكانت تضطرم سعادة وحيوية وتبدو كأنها تريد أن تعيش كل لحظة وأن تنتزع من الحياة كل متعها وأخيرًا.. «ليكا» التى أمامى.. لقد تغير كل شىء فيها «إن الحياة الطبيعية العادية كما يعرفها الناس.. قد انتهت بالنسبة لنا.. ولابد أن نمضى فى الطريق حتى النهاية».

لم يكن هناك مناص من أن تأتى «ليكا» إلى هنا.. لا مناص لنا جميعًا.. من أن نأتى إلى هنا.



يوميات معالى الوزير

«من السجن ذهبت إلى الوزارة»



تسلمت صباح اليوم برقية من البانديت .. «جوفنه بالا بهانت بانت» يسألنى إذا كنت أقبل الاشتراك فى الوزارة.. وبدا لى عسيراً أن أصدق. وشعرت باضطراب وخوف وصممت على الفور أن أرفض ولكننى ما لبثت أن استرددت شجاعتى وفكرت فى أن هذه فرصة لا تعوض لدق المسمار الأخير فى نعش الخرافة الكبرى خرافة التمييز بين المرأة والرجل.

واستلقيت على مقعد قريب أستريح من وقع المفاجأة وأخذت أستعرض حياتى.. وأحلم: لو وقع هذا الحادث منذ عشرين عامًا فقط لما صدقه أحد ولكان خرافة أو أسطورة من أساطير الهند فقد كانت السياسة والوطنية عالمًا بعيداً مغلقًا لا تستطيع المرأة أن تسلك السبيل إليه وكانت الجاهلات والمتعلمات على السواء لا يطمعن فى أكثر من البيت والزوج والأولاد فإذا ما تحررت إحداهن قليلاً لم يتجاوز تحررها نطاق الخدمة الاجتماعية أو النشاط الثقافى والفنى.

وتذكرت كيف حدثت المعجزة.. فمنذ عشرين عامًا فقط أعلن المهاتما غاندى عزمه على السير ماشيًا إلى «داندى» لخرق قوانين الملح ،ولقد أذاع المهاتما يومئذ نداء خاصًا على النساء دعاهن إلى الخروج ليشاركن أزواجهن فى السير الطويل.. إلى الحرية. ألفا امرأة فى السجن.

وسرى النداء يومئذ كشرارة مقدّسة وخرجت الآلاف طارحات وراءهن تقاليد وظلمات وأغلال آلاف السنين.

وقبض فى ذاك العام على ألفى امرأة وحكم عليهن بالسجن مدداً تتراوح بين ستة أشهر وست سنوات، وكانت الشجاعة والتضحية اللتان أبدينها- حتى الفلاحات البسيطات- مثار دهشة العالم كله.

وفى غمرة هذا الكفاح تذكرت «سن».. كانت صديقتى وقريبة لى من بعيد .. وكانت من سيدات المجتمع الراقى وعلى جانب كبير من الثقافة والجمال.. وذهبت إليها ذات يوم من أيام عام ١٩٢٦ لأقنعها بالاشتراك معنا- وكنا أقلية ضئيلة- فى ميدان الكفاح فنظرت إلىّ باستغراب وقالت: ولماذا أشترك؟ إننى لا أجد ما يدعونى لأن أترك أولادى وبيتى لأتشرد فى الشوارع- إن هذا من واجب الرجال وليس من واجبى، إن واجبى أن أخدم زوجى وأنجب له أولادا. قلت لها: ولكن علينا أن نحرر بلادنا أيضًا وهذا جزء من واجبنا ومن صالحنا لأنه تحرير لنا.. لى ولك ولنساء الهند جميعًا.

واستدارت إلى منفعلة وقالت: إننى أستمتع بكل الحرية التى تحتاج إليها المرأة المهذبة المحترمة وليس هناك من يتشدق بالحرية إلا أمثالك اللاتى هجرن بيوتهن وأزواجهن وأولادهن.

ولقد حاولت يومئذ أن أدافع عن نفسى وأن أثبت لصديقتى أن زوجى وأولادى لا تنقصهم السعادة أوالعناية وأننى أضيف إلى واجبى نحوهم واجبًا آخر نحووطنى.. ولكن بلا جدوى.

لقد وقع هذا فى عام ١٩٢٦.. وفى عام ١٩٣٠ كانت هذه السيدة نفسها- وهى حامل فى شهورها الأخيرة- تقود مظاهرة كبرى فى حركة العصيان المدنى.

ولقد قبض عليها وأودعت السجن وأنجبت لزوجها ولده الرابع هناك . إتمامًا للواجب.

فى غرفة الوزير لأول مرة، كانت لدى فكرة غامضة ضئيلة عن تبعات الوزير حينما دخلت غرفتى فى بناء وزارة الصحة لأول مرة.

ولقد كانت معرفتى بشئون الحكم تافهة ولا تتعدى المرات القليلة التى كنت أصحب فيها أبى وأنا فتاة صغيرة إلى المجلس التشريعى فى «دلهى» و «سملا»، وكنت أجلس فى شرفة الزوار وأشاهد أبى وهو يتزعم حزب «السواراج»- أى الاستقلال- المعارض للحكومة.

وتقدم منى شاب رقيق مهذب.. وقدم نفسه قائلاً: إنه سكرتيرى الخاص.. ولم أفهم ماذا يعنى؟ ولكنى لم أشأ أن أسأل لكى لا أفضح جهلى..

وأخذت أجيل بصرى فى الغرفة التى سأقضى فيها معظم وقتى وأتأمل.. كان فى وسطها منضدة كبيرة تزحمها.. وإلى جوار الحائط تمددت «أريكة» جلدية عريضة وتبعثرت فى كل أركان الغرفة كراسى ومناضد صغيرة وأرفف كتب قديمة.. مما جعل الغرفة تبدو وكأنها إحدى غرف مزادات الأثاث القديم.

وصدمت عينى سجادة حمراء فاقعة على جدار الحائط الأخضر وكان هناك طابق من الغبار المتراكم قد علا كل شىء فى الغرفة وكلما أخذت أمعن النظر فيما حولى غَاصَ قلبى فى جنبى وأحسست بالتعاسة . كيف يمكن أن أجلس فى هذه الغرفة الكئيبة وكيف يمكن أن أصرف فيها شئون الدولة؟

والتفت إلى سكرتيرى الخاص وسألته بأدب وتردد هل أستطيع أن أزيح شيئًا من هذا الأثاث؟ وشعرت بالراحة حينما أجاب- بعد تردد- أنه لا مانع.

واستجمعت شجاعتى وأخذت أصدر الأوامر.. وبعد لحظات كانت السجادة الحمراء الفاقعة قد اختفت . وكان كل الأثاث تقريبا قد هبط إلى قاع المخزن.. واستطعت ببعض ابتسامات وكلمات إطراء أن أستخلص من معاون الوزارة بضع ستائر خضراء. ولما لم تستطع الابتسامات أن تستخلص منه سجادة خضراء أيضًا أرسلت إلى منزلى فجئ لى بسجادتين مناسبتين. على الفور شمرت عن ساعدى وأخذت بمعاونة المعاون والسكرتير والخدم نغير أماكن وضع الأثاث وزواياه إلى أن أحسست بأنى أستطيع أن أقضى هنا بعض الوقت دون أن أشعر باليأس والتعاسة..

لا زال هناك شىء ناقص فى الغرفة...

الأزهار..

وأرسلت أحد الفراشين ليشترى زهرية من معرض مصنوعات الحكومة المواجه للوزارة ولما عاد طلبت إليه أن يملأها بالورد وكنت قد رأيت منه فى حديقة الوزارة فنظر إلى الفراش فى صمت ودهشة ولم يتحرك.. وكررت عليه الطلب فأسرع بالخروج وبعث إلى بمعاون الوزارة.

وكانت إمارات الفزع والاضراب تبدو على المعاون وأخذ يستجمع أطراف شجاعته ليقول: ولكن يا صاحبة المعالى كيف توضع الأزهار هنا؟ لم يحدث قط أن وضعت الأزهار فى غرفة الوزير وقلت له: لم يحدث قط.. إذن فليحدث الآن وما دمت لاتريد أنت أن تحضر الزهور فسأنزل أنا لأ قطفها بنفسى..

ويبدو أن منظر «معالى الوزير» وفى يدها مقص تقطف الأزهار فى حديقة الوزارة قد

أفزع المعاون أكثر مما أفزعه وضع الأزهار فى غرفة الوزير فأسرع بالخروج قائلاً أنه سيحضر ما أمرت به على الفور.

بدأ الجد والاجتهاد اليوم.. فقد وجدت على مكتبى كومًا من الملفات لم أكد أتأملها حتى أخذت أفكر كيف سأستطيع أن أفصل فيها أو حتى أن أقرأها..

وبالطبع لم يكن هناك من يعلمنى قراءة الملفات.. ولم أشأ أن أبدى جهلاً ،ولذا لم يكن هناك مناص من الاعتماد على النفس وأخذت أقلب فيها واحدًا تلو الآخر حتى عثرت بملف بدا من نظرى سهلاً متواضعًا.. فأخذت أقرأه من الصفحة الأولى.. ولحسن الحظ كانت المسألة معقولة سائغة فاستغرقت فى دراستها إلى أن أحسست الشجاعة لأن أفصل فيها.

وعلى الفور أرسلت القرار لسكرتيرى ليبدأ تنفيذه.. ويبدو إنه كان صائبًا معقولاً لم يسخر به أحد.. فشجعنى هذا وتحمست واقتحمت باقى الملفات ولم تعد تخيفنى.

بدأ تحضير الميزانية.

وقد تحول كل شىء حولى إلى أعداد وأرقام أخذت تطاردنى حتى فى نومى وأحلامى.

ولماكنت لم أدرس شيئًا قط من الحساب وعجز أمهر المدرسين عن تعليمى مبادئه الأولى فقد بدت لى التجربة مرعبة.

وفى لحظة من لحظات اليأس كتبت إلى سكرتيرى البرلمانى قائلة: «أن الأرقام تفزعنى.. أرجو عمل شىء» ولم يبطئ رده الذى قال: «الأرقام تفزعك؟ لا أصدق يا صاحبة المعالى.. انت التى واجهت المدافع وصنعت مستقبل الأمة تخيفك الأرقام؟ أنت فقط تريدين تشجيعى» وأرفق برده مذكرة عن أسرار الميزانية جعلت من الأرقام شيئًا مفهومًا لا يخيف.

يبدو اننى لم أكن أعامل أعضاء البرلمان كما ينبغى.

لقد كنت أنظر إليهم كما كنت أنظر إليهم وأنا فتاة صغيرة أى كأصدقاء أبى وزبائن مكتبه أو كالضيوف الذين كانوا يزورون بيتنا من خلال سنى الجهاد.

ولقد كان عسيراً على حقًا أن أنظر إليهم كما كنت أنظر إليهم وأنا فتاة صغيرة أى كأصدقاء أبى وزبائن مكتبه أو كالضيوف الذين كانوا يزورون بيتنا من خلال سنى الجهاد.

ولقد كان عسيراً على حقًا أن أنظر إليهم الآن كخصوم أقوياء الشكيمة يتربصون بى الفرصة حتى حان موعد خطابى الأول فى البرلمان.. فقد قدم قانون تنظيم الإدارة الجديد.. وكان مفروضًا أن يقدمه رئيس الوزراء ولكنه مرض أو تمارض لسوء الحظ.. ووقع اختياره- لسبب لا أدريه- على لأ قوم بالمهمة ولقد جاء إلى من همس فى أذنى بأن هذا هو أهم مشروع قانونى تقدمه الحكومة وأن مصير الوزارة.- يا إلهى - متوقف عليه.

ولم تكن الخطابة فى الميادين العامة جديدة على.. ولكن لم يسبق لى قط أن خطبت فى برلمان.. ولذا كنت كلما اقترب الموعد أحسست بقلق وتخاذل شديدين حتى تذكرت فجأة ما قاله لى أبى مرة «لاتفقدى أعصابك قط.. أعدى خطابك بعناية ثم انسيه تماماً وتكلمى وكأنهم لا يعرفون شيئاً عن الأمر».. واستعدت شجاعتى ورباطة جاشى ووقفت لأخطب.. ولم أحس بما قلت إلا حينما اشتد التصفيق ومر القانون بسلام.

حينما كان السياسة مجرد حلم بالنسبة لى كنت أقرأ الصحف بشغف وإعجاب خاصة حينما تنشر أحاديث العظماء سواء أكانوا سياسيين أم رياضيين أم من نجوم السينما.. وكان يبدو لى أنه ليس فى العالم مهنة أعظم وأمتع من مهنة الصحفى هذا الذى تفتح له كل الأبواب والذى يستطيع أن يقتحمها كلما أراد والذى يصوغ بقلمه وما يكتب عقول الناس وقلوبهم.

ولقد ظل هذا اعتقادى حتى أصبحت ممن تقتحم أبوابهم وتنشر أحاديثهم وأراؤهم على الناس، فتغير الاعتقاد تماماً وآمنت أن هناك خطرين لا يمكن دفعهما: التليفون والصحفى.

وإذا كان التليفون يمكن الخلاص منه برفع السماعة، فإن الصحفى لا خلاص منه مطلقاً بل كلما حاولت التخلص منه وجدته أكثر إصراراً.. وما يكفى لأن يثير حمرة الخجل فى وجه الرجل العادى ويدفعه بعيداً.. لا يتعدى عنه صاحبنا «قطرات ماء على ظهر بطة» كما يقول المثل.

وذات يوم كان على أن أخطب فى اجتماع سياسى مهم واندفع إلى جماعة من الصحفيين الشبان المتحمسين يطلبون منى نص الخطاب وقلت لهم أننى لا أعد خطبى وأنا ألقيها ارتجالا..

ورجوتهم رجاء أخوياً حاراً أن ينقلوا الخطاب كما ألقيه.. ووعدونى وعد زملاء شرفاء فاطمأننت وذهبت إلى الاجتماع منشرحة الصدر..

واستيقظت صباح اليوم التالى على أجراس كل تليفونات البيت تدق من كل صوب لتسأل عن التصريحات المتناقضة التى نشرتها فى خطابى!

لقد نشرت كل صحيفة نصاً مختلفاً، ولم تنشر أحداها ما كنت أريد أن أقول.

ومرة أخرى كان على أن أخطب فى كلية للبنات، ألقيت خطاباً دعوتهن فيه إلى التحرر من كل الخرافات والإيمان بمساواتهن المطلقة مع الرجال، لأن كل تفريق بينهما إنما هو خرافة لا أساس لها من الحقيقة.

وفى اليوم التالى ثارت ثورة الآباء والأزواج حينما نشرت الصحف بعناوين ضخمة..

«مسز بانديت تقول: .. البيت خرافة اخترعها الرجل» وكنت أعتقد أن هذا قصور طبيعى فى صحافتنا الهندية ولكن زيارتى لأوربا وأنا وزيرة أقنعتنى أن صحافتنا المتواضعة أهون شرًا وأخف وطأة من الصحافة الأوربية الكبرى.

وإليكم مثالاً:

لم أكد أهبط من الطائرة فى مطار «كرويدون» فى الساعة الثانية صباحًا حتى وجدت عددًا من المصورين والصحفيين أحاطوا بى فى المطار وأصروا على أن أدلى لهم بكل شىء واستطعت بصعوبة أن أقنعهم بتأجيل ذلك للغد بعد أن وعدتهم بمؤتمر صحفى.

وتسللت إلى جوارى مخلوقة صغيرة رقيقة همست فى أذنى بأنها صحفية ناشئة وترجو أن أختصها بسبق صحفى لتثبت جدارتها بين الصحفيين الرجال وشعرت بتحيز لبنات جنسى خاصة وكانت هذه أول صحفية أقابلها فحملتها معى فى سيارتى إلى الفندق.

وظللت إلى ساعة متأخرة من الليل أجيب عن أسئلتها وكانت عن المرأة الهندية .. ما لها وما عليها.. وتشعب الحديث حتى انتهى بنا إلى الرياضة الهندية وأخذت أحدثها عن رياضتنا الهندية « أليوجا » مزاياها وفضائلها وانصرفت العصفورة مرحة منشرحة ونمت مستريحة لأنى فعلت معروفًا واستيقظت بعد ساعات لأجد الخبر الأول فى صحيفة «العصفورة المرحة» هو: الوزيرة الهندية تبدأ يومها بالوقوف على رأسها».

كلما نظرت إلى هذين العامين اللذين قضيتهما وزيرة أحسست أنها تجربة رائعة– لقد مرت ساعات من الفشل ومن خيبة الأمل ومن الشعور باليأس والعجز. ولكن الأمر الذى لا شك فيه هو أن هذه الساعات على اختلاف ألوانها لم تضع هباء.. ولا شك أن الدروس التى تلقيتها زادت من قدرتى على مواجهة كل شىء.

ولقد كان خير ما قمت به هو أننى أسهمت– ولو بجهد صغير– فى دفع الخرافة الكبرى بأن المرأة لا تستطيع أن تؤدى عمل الرجل..

أغنية من المرمر



«هذا ليس قبراً..هذا أغنية خالدة من المرمر..»

نهــرو

دق باب غرفتى فى ساعة مبكرة جداً من الصباح. وكنت غارقًا في النوم، وقبل أن أفتح عيني لأرد، كان قد دخل وجلس ووضع ساقاً على ساق وتحسس فى جيبه ليخرج علبة السجائر، وأنا لا أطيق رائحة الدخان فى الصباح .. وقال بلا كلفة:

- حينما تزور أجرا يجب أن تستيقظ مع إشراقة الفجر وتجمع أزهار (الشنار) كما كان يفعل أباطرة المغول..

وابتسمت ، ونظرت إليه موافقًا، وكنت بعد أسابيع فى الهند قد تعودت هذه النماذج وتقبل كل ما يصدر عنها..

واستطرد يقول:

- اسمى مبارك على خان وأنا دليل فندق الإمبريال بآجرا وأنا الذى سأصحبك اليوم لزيارة التاج محل والقلعة الحمراء وأطلال فتح بورسكرى ولقد كانت مفاجأة عجيبة لى وهذه أول مرة اقابل فيها مصريًا، وقد كان حلمى أن اقابل مصريًا وها هو قد تحقق ، وأنا سعيد، ولقد كنت أعتقد دائمًا أن أقدر من يستطيع أن يفهم المغول وتراث المغول هم أنتم المصريون بناة المعابد والمساجد والأهرامات، ولقد كان هناك شيء واحد يجمع بين المصريين والمغول هو البناء.. فن البناء وعبقرية البناء، والتعبير بالأعمدة والأبراج والقباب،

والشيء الآخر الذى تحسه فى البناء ولا تعرفه ولاتدركه.. روح المبنى تماماً كروح الملحمة أو التمثال أو الأغنية وهو شيء ستلمسه اليوم كما لم تلمسه فى أى مكان آخر فى العالم، ودققت الجرس وجاء خادم الفندق وطلبت الإفطار وسألت مبارك على خان هل أطلب لك إفطاراً ولكنه قال:

– إننى لا آكل شيئًا يوم أذهب لزيارة التاج بل أصوم وأكاد ألبس ملابس الإحرام، تماماً كما لو كنت ذاهبًا إلى مكة الشريفة، إن رؤية عمل فنى مثل التاج تحتاج إلى تركيز واندماج، وهذا ما جئت لكى أنبهك إليه، اننى هنا منذ عشرين عاماً، ولقد زرت التاج أكثر من ألف مرة، ولكننى فى كل مرة لابد وأن أقف خاشعًا متبتلاً فرحًا بالحياة وكأننى أراه لأول مرة.. فرحًا بالحياة وكأننى أراه لأول مرة.. فرحًا بالحياة، هل تستغرب إننى أحس بالفرح بالحياة أمام قبر امرأة؟. لكن هذا هو الواقع، لقد قلت لك أن فن المغول هو البناء.. ولكن قبل البناء كان فنهم الأول والعبقرى هو الحياة نفسها، كانت الحياة لديهم فنًا جميلاً، فى كل شيء فى الطعام والشراب واللباس، وفى الحب والحرب ومن الصباح حتى المساء، هل تعرف أسرة ليس فيها إمبراطور عظيم إلا فى حياته حب عظيم وكتاب عظيم وأثر عظيم..

إننى أعتقد أن ليس هناك حضارة تقربهم سوى حضارتكم أنتم المصريين ،إننى أعيش فى الحضارات القديمة عشرين عامًا الآن، وأنا أهيم من عالم سحرى إلى عالم سحرى، وأنا طبعًا لم أبدأ حياتى دليلاً، ولم يكن فى برنامج حياتى أن أصبح دليلاً، ولا شيء أضيق به مثل أن أكون دليلاً، خاصة حينما ارزأ بهؤلاء الأمريكيين والغربيين وحينما يقفون ليبتذلوا كل شيء ويسألونك فى صخب وضجيج كم تكلف هذا البناء أو يقفون فى تفاهة جوفاء ليناردوا .. كم هو جميل.. جمال المليون دولار..

– وماذا كنت تريد إذن؟..

– لقد جئت إلى هنا زائراً كنت طالبًا فى الجامعة وجئت فى زيارة عابرة ، ومن النظرة الأولى أحسست أننى لن أعود للجامعة وأحسست أننى أنتمى إلى هنا إلى هذا المكان أوعلى الأصح إلى هذا البناء،وعدت إلى الجامعة وأنهيت دراستى فى التاريخ، وتخرجت، وكان هناك قلق مستمر فى نفسى لم يسكت إلا حينما جئت إلى هنا، وأقمت هنا، ولم أجد سوى أن أعمل دليلاً.. إننى أشعر بالطمأنينة والرضا والسكون وبفرح عميق فى نفسى حينما استيقظ كل صباح وأحس أننى أستطيع أن أرى التاج أو أجول فى إطلال فتح بورسكرى أو القلعة الحمراء..

أو حتى لتتنفس نفس الهواء الذى تنفسه رجال ونساء وحسان وأباطرة المغول..
إن التاج فى حياتى، تمامًا كما كانت ممتز محل فى حياة شاه جيهان..
– ومتى سنذهب للتاج؟
– حينما تستعد ماديًا وروحيا، قم واغتسل وأعد نفسك، إننى أريدك خاصة أن ترى التاج كما أحب أن تراه.. إننى لست متحمسًا قط لضيوف اليوم.. رجال ونساء أعمال لا روح فيهم، يطوفون العالم ليزيحوا الملل أو ليسكتوا ضمائرهم القلقة أو ليبحثو عن مغامرة مثيرة، بلا اعتبار أو احترام للكون..
وهل تدرى كيف أريكم التاج محل، إن لى طريقة خاصة، وأسلوباً فريداً، لى أنا فقط، إننى لا أذهب إلى التاج مباشرة ولا أواجه التاج مرة واحدة وجهًا لوجه، ولكننى أذهب إلى القلعة الحمراء، على بعد عدة أميال من التاج، وفى شرفة الغرفة التى سجن فيه الإمبراطور شاه جيهان أتطلع فى المرآة الصغيرة ،إن قصة هذه المرآة هى قصة التاج..
– دعني حتى أغتسل..
ودخلت أغتسل وأعد نفسى للرحلة ولكنه لم يسكت، وتابع الحديث بصوت عال:
– لقد سجن أو رنجزيب الصارم المتقشف أباه شاه جيهان فى قاعة بالقلعة الحمراء، ولم يجد أبوه ما يطلبه منه، ولا ما يريده من الحياة سوى أن يرى قبرها، ولم تكن هناك وسيلة، ولم يكن هناك حل، فقد كان القبر يبعد عن القلعة عدة أميال، وتطوع مهندس عبقرى من مهندسى المغول ووضع له هذه المرآة السحرية فى أحد الأعمدة، وهى مرآة تستطيع من بعد هذه الأميال أن تعكس له صورة التاج، وكان يقضى يومه كله امام هذه المرآة وكان الشيء الوحيد الذى عزاه حتى مات فى السجن، وراح ضحية ابنه المتزمت المتقشف الصارم.. لقد كان حبًا عجيبًا.. حبًا كاملاً فيه كل شىء، المجد والخلق والهزيمة والمأساة.
إن قصص الحب عادة لا تكتب كاملة وكثيرون يريدون أن يخفوا جوانبها الضعيفة أو القبيحة أو المريرة، ولكننى أحب أن أروى القصة كاملة لقد خلق الله الحب مزيجًا من الأرض والسماء، ولا يجدى أن تحاول أن تجعل منه خرافات تطربنا ولاتعلمنا.. لقد كان شاه جيهان رجلا وكانت ممتاز محل امرأة.. وقصتها قصة رجل وامرأة ، وعلى هذا الأساس يجب أن تروى.. لقد كانت ممتاز محل زوجة لأحد رجال البلاط حينما رآها الإمبراطور شاه جيهان فى احتفال الزهور فى عيد النيروز، أجمل احتفالات البلاط، وكانت ممتاز محل ابنة أصف خان وزير (جهانجير)..
– قف قليلاً عند هذه الأسماء يا صديقى مبارك.

– جهانجير، فاتح الكون هو الإمبراطور العظيم والد شاه جيهان، ولقد دارت كل حياته حول امرأة هى (نور جيهان) نور الكون وهذه قصة أخرى مجيدة ، وقد أرويها لك اليوم أيضاً ، لأنها الحلقة الأولى من قصة شاه جيهان، وكان أخوها أصف خان، والفتاة المفضلة لدى عمتها الإمبراطورة العظيمة، ولكن ممتاز، كانت فتاة رقيقة حالمة تختلف تماماً عن نور جيهان، التى كانت إمبراطورة بكل ما تتضمن الكلمة والتى كانت كل شىء فى حياة الإمبراطور وحياة الإمبراطور أيضاً وكانت محبة عاشقة بقدر ما كانت سياسية حازمة بل بقدر ما كانت محاربة قائدة ، لقد قادت بنفسها الحرب ضد الجنرال المتمرد (محبة خان) لتنقذ زوجها الموشك على الهلاك جهانجير..

وحينما سقطت فى الأسر وحكم عليها بالإعدام سألها (محبة خان) ماذا تريد قبل أن تموت فقالت أريد أن أرى زوجى.. مرة واحدة ، وحينما شهد محبة خان اللقاء، اهتزت نفسه ولم يملك سوى أن يعفو عن الاثنين..

لا تدعنى استطرد.. أننى أريد أن أروى لك قصة التاج..

كلي آذان صاغية يا صديقى مبارك..

– لقد ورث شاه جيهان الحب عن أبيه، وحينما التقى بممتاز محل فى حفلة النيروز، وجد نفسه على الفور ، أن امرأتك هى المرأة التى تفتح لك أسرار الكون.. وأسرار نفسك والتى تحس الحياة معها فيضاً متجدداً مناسباً وهذه هى أعظم وأندر ما تعثر عليه، ومن بين مليون امرأة تمر فى حياتك قد لا تجد هذه المرأة وحينئذ تظل حياتك قلقاً خاوياً ولو أحاطت بك نساء العالم كله، إن حكمة الطبيعة فى الحب عميقة عجيبة ، هى حكمة الكون كله، وهى تخلق لكل رجل عظيم امرأة عظيمة، وكل مهمته أن يبحث عنها وأن يجدها، وأن يحصل عليها مهما كان الثمن، بقانون الطبيعة العميق وبحق بناء الكون أو على الأصح واجب بناء الحياة والكون.. أتدرى لماذا أشرح لك هذه..؟

– لماذا؟..

– لقد رأى شاه جيهان ممتاز محل وأدرك أنها امرأته وأدرك أنها أيضاً تنتمى إلى زوج آخر ضعيف من رجال البلاط فقرر أن يتخلص من هذا الزوج، وبعض المؤرخين يقول أنها بداية قبيحة لقصة مجيدة، ولكنى لا أرى هذا..

– أن يتخلص من زوج ليحصل على امرأة.. هذا ليس شيئاً يا صديقى مبارك..

– لا تضع المسألة هكذا ،بل هل يقف رجل ضعيف عقبة بين روحين عظيمين، وأن يحول بين الهند وبين كل العدل والرحمة والمجد والجمال الذى نعمت به ، إن بعض الرجال

الضعاف كالطفيليات يلصقون بأجساد وأرواح النساء العظيمات، ولا يستطعن هؤلاء مطلقًا التخلص منهن ، إن التخلص من رجل ضعيف أقسى بكثير من التخلص من رجل قوى أو عظيم ، ألا تدرى هذا ، ألا توافق عليه.

– إن هذا جزء من القصة.. ارويه فقط.. ونحكم عليه بعدئذ..

وتزوج شاه جيهان من ممتاز محل وتفجر فى نفسه كل ما تفجره امرأة عظيمة فى حياة رجل عظيم وكان العصر الذهبى لكل امبراطورية المغول، لم تكن (ممتاز محل) كما قلت لك كعمتها نور جيهان تتدخل وتحسم فى السياسة والاقتصاد والحرب ،ولكن كانت فتاة رقيقة حالمة دافئة ناعسة خلقت للحب والحب فقط، وكانت تملك تلك اللمسة الساحرة التى تطوى كل من يقترب منها.. ولقد كان البلاط فى عصر جهانجير قائمًا على المجد، أما فى عهد شاه جيهان فقد كان قائمًا على الحب وحده. ولكن ممتاز محل لم تكن مجرد أنثى، لقد كان ذكاؤها وإلهامها هو أثمن ما فى الإمبراطورية ولم تكن تشارك فى الحكم أو فى الحرب، ولكن كانت مستشارته الأولى والأخيرة ، وكانت من بعيد تشير فى كل شىء.. لم يكن ينشئ حديقة ولا يقيم مسجداً ولا يبنى قصراً ، وهو قد زين الهند كلها بأجمل حدائقها ومساجدها وقلاعها وقصورها– إلا وترى (ممتاز محل) التصميم وتوافق عليه، ولم يكن يقضى أو يبرم أمراً أو يصدر حكمًا أو يعلن حربًا قبل أن يتشير (ممتاز محل)، ولم تكن هى التى تطلب أن تضع أنفها، بل هو الذى كان يحمل كل شىء إليها، وينصت حتى تجلو إلهامها وذكاءها وتشير..

وبين ذراعى (ممتاز محل) قال كلمته المشهورة: (إذا كان هناك فردوس على الأرض فها هو.. ها هو)..

وعاش شاه جيهان فى هذا الفردوس تسعة عشر عاماً، وعاشت الهند كلها معه فى هذا الفردوس تسعة عشر عاماً وأنجبت له أربعة أولاد وبنتين، سجل التاريخ أسماءهم جميعاً، دار اشيكو الفنان، وأور نجزيب الصارم، وروشنارة الحالمة، وجهاناره الوفية التى ظلت إلى جوار والدها حتى لحظته الأخيرة..

وفى كل مرة كانت تنجب غلاماً كان كل شىء كما قال يولد فى الامبراطورية فى حياته ، كان كل شىء يستعد لينتظر المولودة، وكان كل شىء يقف فى حياته، ويظل إلى جانبها حتى تلد، وحينما كانت تطلب إليه أن يغادرها وأن لا يراها وهى تتعذب، كان يبكى ويقول لها إن أجمل ما فى حياته هو رؤيتها وهى تحمل فى أحشائها أسرار الكون والخلق والإبداع.. وتغنى وتجمل بها الحياة.

ولقد ماتت (ممتاز محل) فى لحظة كهذه.. ماتت ميتة امرأة مجيدة وهى تلد، وهى تهب الحياة إنسانًا جديدًا.. وكان إلى جوارها شاه جيهان.. وكانت آخر كلماتها إليه (لا تتزوج بعدى.. لن تحب امرأة مثلى، لا تنس أن تزور قبرى) أنانية أو تفانيًا أو غرورًا أو وفاء ،سمه كما تشاء..

ومات كل شيء بالنسبة لشاه جيهان إلا ذكراها.. ولقد صمم على أن يعيش لهذه الذكرى وأن يجعل قبرها شيئًا خالدًا لم يشيد مثله لامرأة ، قبرًا حيًا متجددًا تراه كل يوم فيهيئ لك أنه بنى اليوم فقط وانك تراه لأول مرة.. وبعث يطلب المهندسين والفنانين والبنائين والخطاطين من روما ومن القاهرة و من سمرقند، ومن بكين، لقد صمم على أن يجمع الإنسانية كلها فى هذا القبر..

ولم يعد هناك ما يشغله سوى بناء هذا القبر.. ولقد كان يجتمع من الصباح إلى المساء مع مهندسى المرمر القادمين من إيطاليا، أو الخطاطين العرب القادمين من بغداد أو فنانى الفسيفساء القادمين من الصين أو البنائين القادمين من بخارى وسمر قند.. ووحدت بين هؤلاء جميعًا القصة.. ولعله لم يسبق أن تآلف وتآزر هذا الجمع المتباين من الفنانين فى بناء واحد مثلما حدث يومئذ ، ولقد هزتهم جميعًا من أعماقهم القصة ، ودخلت (ممتاز محل) فى حياتهم كلهم وألهمتهم نفس النقاء والصفاء والعمق الذى كانت تنشره وتلهمه فى حياتها، وأراد كل منهم أن يهب أجمل ما فى روحه ليخلد قصة حب عظيم، وأى مهمة أجمل للفنان وأمجد وأعمق إلهامًا من تخليد قصة حب عظيم..

ولقد ترك كثيرون منهم أوراقًا سجلوا فيها أحاسيسهم ومشاعرهم من خلال البناء، وهى كلها قصائد تحية لذكرى هذه المرأة العجيبة. ولقد كتب أحدهم يقول لقد سكبت روحى كلها فى هذا القبر، ولن أبنى بعده شيئًا لأنه لم يعد لى ما أستطيع أن أخلق به أى شيء جديد.

وظل كل هؤلاء سبعة عشر عامًا طويلة يبنون حتى خرج (التاج محل) تمامًا كما تصوره شاه جيهان، رمزًا لخلود الحياة لا لنهايتها، ولم يكن بناء، ولكن أغنية من المرمر كما قال جواهر لال نهرو..

وحينما تم البناء أحس شاه جيهان أنه يريد أن يموت، وأن كل ما يريده من الحياة قد تحقق، وأنه لم يعد له سوى أن يذهب إلى العالم الآخر إلى حيث تحيا ممتاز محل، وإلى حيث لا يفترقان أبدًا إذا التقيا..

ومرض شاه جيهان، وهيئ للجميع أن ساعته قد أذنت، وكان هو يستعجل الموت كل

يوم، ولكن بدأت بمرضه قصة أخرى مريرة دامية هى قصة الصراع على العرش بين أبنائه الأربعة، وانبثق أو زنجزيب، ثائرًا قاسيًا متدينًا صارمًا كحد السيف وناقمًا على أبيه.. على إسرافه وبذخه وضعفه أمام امرأة حتى ولو كانت أمه.

وفتك أو نجزيب بأخوته الثلاثة واحدًا واحدًا.. وقبض على أبيه وسجنه فى القلعة حيث ظل سجينًا مريضًا عشر سنوات طوال، ولم يكن يعزبه فيها إلا المرأة الصغيرة التى كان يقف إلى جوارها ،وينسى كل شىء.. ثم ابنته (جهانارا) التى نقمت على أخيها، ولحقت بأبيها لتقف إلى جواره في خلال محنته التعيسة.. لا .. لم يكن تعيسًا، إن من يحب مثل شاه جيهان، ومن يتعذب فى حب امرأة كممتاز محل لن يكون تعيسًا، أنه يستخلص من الحياة أجمل وأنبل ما فيها..

ولقد كان شاه جيهان يقضى أيامه الأخيرة، يصلى ويذكر ممتاز محل، وينظم الشعر، وينتظر اليوم الذى يعبر هذا العالم إلى عالمها.

ولم يضق بالسجن، ولم يحنق على ابنه، ولم يبك لمصيره، لقد حرر الحب روحه، وأغنى الحب عالمه الداخلى، وكان سجنه الوحيد هو عالم ليس فيه (ممتاز محل).

وبدأت الهند كلها تهتز لقصة شاه جيهان، وتنشد قصة شاه جيهان، وتنقالها الرواة والشعراء، ومنشدو الملاحم والاساطير، ولم تلهمهم قصة حضارة الشرق والغرب أيضًا.. ما ألهمته قصة حب شاه جيهان وممتاز محل.

ولقد جاء فى العام الماضى (روبرت مين) ليكتب القصة من جديد، ليقدمها لهذا العصر الخاوى الأجوف، وليذكره بالقيم الكبرى التى أفلست منها الحضارة.. قيم الحب العميق العظيم الخلاق..

ولم يكتب (روبرت مين) شيئًا لقد كنت أنا الذى رويت له كل شىء، ودللته على كل شىء.. وطبعًا لم يشأ أن يذكر من الذى دله على مغزى القصة وجوهرها، ولم أهتم.. إن كل ما يعتنينى هو أن يروى هذه القصة رجل يحسها ويعيشها ويقدمها لهذا العصر ولكل عصر.. وليس هناك ما تحتاجه الإنسانية مثل مخلصة إلى مثل مخلصة عاطفية تنفذ روح الرجل وترفعها وتدفعها كما فعلت ممتاز محل..

لقد مات شاه جيهان، ولحق بممتاز محل. وفى التاج محل ترقد رفات (ممتاز محل) وإلى جوارها رفات شاه جيهان.. هل هناك رجل وامرأة أسعد منهما فى الحياة.. أو الموت؟..

– بالطبع لا..

– إذن هيا بنا.. لقد استعددت للزيارة..

لا يختلف كاتب المصنع فى شىء عن الحيوان الأعجم.. ارفع صوتك فى العامل فسيرفع صوته عليك، واشتم الحمال فسيلقى حملك من فوق ظهره.. احتقر الشحاذ فسيجد وسيلة يشعرك بضآلتك ،وحتى الحمار سيركلك برجليه إذا شددت عليه ،أما كاتب المصنع فلا.. ازعق فيه سبه واشتمه واضربه فسيحتمل كل شىء فى سكون.. إن قدرته على التحكم فى أعصابه لا يستطيع حتى (اليوجى) أن يكتسبها بعد أعوام من المران وضبط النفس إنه صورة للقناعة وتمثال للولاء ونموذج للاحترام، بل هو مزيج من كل الفضائل ، ومع هذا فإن الحظ لم يبتسم له قط.. إن سقف كوخ الفلاح البائس يحظى أحيانًا بلفتة من الحظ وذلك فى ليلة عيد الدوالى، عيد الأضواء، حين يهطل المطر وتتغير الفصول.

أما حياة (بابوجى) فهى سلسلة متصلة من الملل.. بلا شعاع نور واحد وسط الظلام.. وحتى وجهه لم يضىء مرة بابتسامة إن لالا فاتح تشاند من أعضاء الإنسانية الصماء العجماء!

وقد قيل يومًا أن الاسم دلالة على مصير صاحبه ولكن اسم فاتح تشاند يعنى نجم النصر بينما صاحبه ليس سوى عبد للهزيمة.. وهو قد فشل وانهزم فى حياته العائلية وبين أصدقائه وحيثما حل بعث الهزيمة وخيبة الأمل حوله.. وهو لم ينجب أولادًا بل ثلاث بنات وليس له أخوة بل ثلاث أخوات ثم هو لا يملك قرشًا واحدًا يعتمد عليه عند الحاجة .. وأن كان هذا لا دخل له فيه لأنه طيب كريم ولكن الناس جميعًا استغلوا هذا فيه.. وهو يقاسى من صحته فإن شعر رأسه فى سن الثانية والثلاثين مثل الملح والفلفل وعيناه قد انطفأ بريقهما ومعدته قد تلفت ووجهه شحب وخدوده قد غارت وأكتافه انخت ولم يعد فى قلبه ذرة من الشجاعة ،ولم يعد فى عروقه قطرة من الدم..

وكان فاتح تشاند يذهب إلى مكتبه فى التاسعة صباحًا ويعود فى السادسة مساء.. وبهذا لا يجد فى نفسه القدرة على مغادرة المنزل ،وبهذا لم يكن يعرف شيئًا عما قد يحدث فى العالم ،كأن حاضره ومستقبله وفردوسه وجحيمه هما فى مكتبه فى المصنع!! ولقد مرت سنوات طويلة منذ لعب الورق مع أصحابه. وكان الوقت شتاء والسماء تكتنفها بعض الغيوم وحينما عاد لالا فاتح تشاند من عمله فى الخامسة والنصف كانت زوجته تضىء الشمع، وتمدد هو كالعادة فى سكون على المقعد وذلك ليجمع قواه ليتكلم ولكنه كان لا يزال متمددًا حينما ارتفع صوت فى الخارج ونادى عليه ، وذهبت ابنته الصغيرة لترى،وجاءت تقول أنه ساعى المصنع وكانت زوجته (شاردا) فى هذه اللحظة تنظف الأوانى لتجهيز العشاء.. فقالت لابنتها:

اسأليه ماذا يريد؟ لقد عاد توا من المصنع؟ فلماذا يبعثون إليه؟

ورد الساعي قائلا:

«صاحب» يريده ويقول أنه لأمر مهم؟ وأحس لا لا فاتح تشاند بقلق ورفع رأسه ليسأل (من الذى جاء)؟

وردت زوجته (انه شبراسى).

(شبراسى.. وماذا يريد «صاحب» منى).

يقول أنه يريدك حالاً؟ وأنا لا أعرف أى نوع من الناس صاحب هذا؟ يبدو أنه فى حاجة إليك على الدوام؟ قل له أنك لا تستطيع الذهاب؟ ألم تشتغل بما يكفى طوال اليوم قل له أنك لا تستطيع الذهاب؟ إن أقصى ما يستطيع هو أن يفصلك فنستريح.

وتمتم فاتح تشاند لنفسه (لقد أنهيت كل عملى.. فماذا يريد منى .. شىء عجيب) ولكنه نادى على الشبراسى الذى كان لا يزال واقفًا خارج الدار وقال (سأحضر حالاً).

وقالت زوجته (تناول شيئًا من الطعام.. فسوف تنسى، وأعطته طبقًا من العدس وجلس حينما رأى العدس وتأمله باشتهاء لحظات ، ولكنه ما لبث أن سأل شاردا «هل أكل الأطفال»؟.

وصاحت فيه شاردا بغضب (نعم أكلو.. وأخذوا نصيبهم، كل أنت).

وفى هذه اللحظة ظهرت الطفلة الصغيرة ووقفت ساكنه وصاحت فيها شاردا (ماذا تفعلين هنا، اذهبى والعبى فى الخارج).

وقال فاتح تشاند إلى زوجته (لا تخفى الطفلة تعالى يا تشونى تعالى اجلسى هنا)..

ونظرت تشونى إلى عينى أمها فسرى فيها الخوف فأسرعت إلى الشارع.

وصاح الشبراسى من الخارج (يا بوجى.. ان الوقت يتأخر).

وقالت شاردا لماذا لا تقول له أنك لا تستطيع الذهاب..

ورد قائلا: كيف أستطيع هذا ،وأنا أعتمد عليه لكى أعيش؟..

أنه يمتص دمك حتى تموت، هل رأيت وجهك فى المرآة إنك تبدو كالمريض منذ ستة أشهر.

ولم يرد فاتح تشاند ولعق بعضًا من طبق العدس ثم ابتلع كوبًا من الماء وأسرع إلى الخارج.. ولم ينتظر شاردا لتتم كلامها..

وقال الشبراسى حينما رآه: لقد غبت يا بابوجى فلنسرع وإلا أخذ صاحب يشتمنا حين يرانا..

وحاول فاتح تشاند أن يجرى ولكنه عدل لأنه لم يستطع وقال : يشتم كما يريد.. إننى لا أستطيع الجرى.. هل هو فى البنجالو أم فى المصنع؟..

وقال الشبراسى: ولماذا يكون فى المصنع؟... هل هو ملك أم هو بهلوان؟

وكان الشبراسى متعوداً على المشى السريع، وكان بابو فاتح تشاند متعوداً على المشى ببطء، ولكن كيف يعترف بهذا؟.. كان فى نفسه بقية من كبرياء فحاول أن يحلق بالشبراسى ولكنه عجز، كانت أنفاسه تثقل، والألم يحز فى أضلاعه ورأسه يتداعى وجسمه كله ينفض بالعرق، وكان الذباب المضىء يتراقص أمام عينيه كالبرق، وأخذ الشبراسى يحذره ويلومه قائلاً: يحسن أن تسرع يا بوجى.. إنك بطىء..

وكان فاتح تشاند يجد صعوبة فى الكلام، ولكنه قال: اسبقنى.

وجلس على حجر فى الطريق ووضع رأسه بين يديه وأخذ يلهث ويتنفس تنفساً عميقاً، وحينما رآه الشبراسى هكذا لم ينبس بكلمة وتركه ومضى.. وكان فاتح تشاند يشعر بخوف مما قد يقوله الشبراسى (لصاحب) الإنجليزى، فتحامل على نفسه وقام.. ولو دفعه طفل صغير ساعتئذ لتهاوى على الأرض، وأخذ يقاوم حتى وصل البنجالو.

وكان (صاحب) يتمشى فى الشرفة ذهاباً وجيئة، وكان ينظر بين لحظة وأخرى إلى الباب ويتميز غيظاً كلما لم يجد أحداً، وما أن رأى الشبراسى حتى صاح: أين كنت طوال هذا الوقت؟..

ووقف الشبراسى بخضوع على عتبة الشرفة وقال: (هازور) فاتح تشاند استغرق وقتاً طويلاً حتى مللت الانتظار.. وأنت تستطيع أن ترى أننى جئت أجرى.

وقال (صاحب)بالهندوستانية الرديئة التى يعرف بعضاً منها: وماذا قال بابو؟

– إنه قادم.. لقد استغرق ساعة.

وفى هذه اللحظة دخل فاتح تشاند حديقة البنجالو، واقترب من صاحب وحيّاه بانحناءة طويلة، ونظر إليه صاحب بطرف عينيه قائلاً: لماذا تأخرت إلى الآن؟..

وحينما لمح فاتح تشاند وجه صاحب جمد الدم فى عروقه وقال: (هازور) لقد تركت المصنع منذ قليل، ولكن ما أن جاء الشبراسى ونادانى حتى تركت البيت بأسرع ما أستطيع..

– أنت كذاب.. لقد انتظرت هنا اكثر من ساعة..

– (هازور) أنا لا أكذب.. فقط ربما استغرقت وقتاً أكثر من اللازم، لأننى متعب.. ولكننى تركت المنزل بمجرد أن نادانى الشبراسى..

ورمى صاحب بإناء كان فى يده ، وكان واضحًا أنه مخمور، وصاح:

– أيها الكذاب الأحمق.. اغلق فمك لقد انتظرتك ساعة، ويجب أن تمسك أذنيك بيديك وتطلب العفو..

وضبط فاتح تشاند أعصابه، وكأنه يبلع دمًا وقال:

(هازور).. لقد اشتغلت اليوم.

– اغلق فمك أيها الخنزير..

– (هازور) إننى لم أفعل شيئًا يستوجب هذا..

– شبراسى.. أمسك أذنى هذا الخنزير..

ورد الشبراسى فى صوت خافت .. ولكنه حازم قائلا:

– (هازور) هو أيضًا رئيسى.. فكيف أشد أذنيه؟..

– شد أذنيه كما قلت لك.. وإلا عرفت كيف أؤدبك..

ورد الشبراسى: (هازور) اننى احضر للمصنع لأشتغل لا لكى تأدبنى، أنا أيضًا لى كرامة.. (هازور) يستطيع أن يأخذ عملي منى.. إننى أطيع أوامرك، ولكننى لا أعتدى على كرامة أحد.. أنا لن أشتغل عندك للأبد..

ولم يطق صاحب هذا فانفجر وهجم على الشبراسى، ولكن هذا أطلق ساقيه للريح..

ووقف فاتح تشاند صامتًا جامدًا كالصنم وحينما لم يلحق صاحب بالشبراسى رجع إليه وأمسكه من كلا أذنيه وهزه قائلاً:

– أيها الخنزير.. أنت تعصى أوامرى.. أنت تعصى أوامرى.. اذهب إلى المكتب واحضر الملف..

وأخذ فاتح تشاند يتحسس أذنيه قائلاً: ملف صاحب؟..

– أى ملف.. أى ملف.. هل أنت أصم؟.. أريد الملف.. هل تسمعنى؟

واستجمع فاتح تشاند بعضًا من الشجاعة وسأله بشىء من الضيق:

– أى ملف تريد؟..

وكان فاتح تشاند تائهًا، ولكنه لم يستطع أن يسأل مرة ثانية، فإن صاحب سىء الخلق ، وهو مخمور.. مخمور بالسلطة، ومخمور بالويسكى، ولا أحد يستطيع أن يتصور ما قد يفعله، ولهذا سار فاتح تشاند فى صمت إلى المصنع.

وصاح صاحب: اجر..

ورد فاتح تشاند: (هازور).. لا أستطيع أن أجرى..

– لقد تعلمت الكسل.. إيه .. سأعلمك كيف تجري.. ودفعه بقدمه.

وفاتح تشاند كاتب فى المصنع ولكنه أيضًا آدمى، ولو كان على شىء من القوة لما تحمل هذه الإهانة ومن مخمور، ولكن كما كان الحال لا جدوى من المقاومة.

ولم يذهب فاتح تشاند إلى المصنع، فإن صاحب لم يخبره أى ملف يريد، ولعله كان مخمورًا إلى حد لا يمكنه أن يميز ولذا فقد سار إلى منزله، وكان بطيئًا يحس كأنما يقيد أقدامه الألم والهوان الذى رآه.. ومن الواضح أن صاحب أقوى منه جسمًا، ولكن ألم يكن يستطيع أن يرد أهانته؟.. ولماذا لم يخلع حذاءه ويضربه على وجهه؟.. ولكن ما جدوى هذا؟.. ومن يدرى ربما أطلق عليه الانجليزى رصاصة قتلته.. وعلى أقل تقدير كانوا سيحكمون عليه حكمًا خفيفًا اما بضعة أشهر حبس، أو غرامة مائتى أو ثلاثمائة روبية.. ولكن أسرته كانت ستتحطم وتتشرد.. لم يكن هناك أحد يعنى بأطفاله.. وربما ماتوا من الجوع على الأرصفة.. يا إلهى.. لماذا لم يكن على شىء من الثراء؟.. لو كان لديه ولو شىء من المال لما سمح بهذه المعاملة، ولما اكترث للموت إذا ما أعطى هذا الحيوان درسًا.. إنه لم يخف لنفسه، فليس هناك متعة فى الحياة يأسف عليها، ولكن زوجته وأولاده..

وأخذ يفكر فى كل شىء وهو سائر .. لماذا لم يهتم بصحته وأهملها إلى هذا الحد؟.. ولماذا لا يحمل معه سكينًا ليمزق به صاحب؟.. ربما كان (خانسامة) صاحب يمزقونه هم وخدمه الآخرون.. وماذا بهم.. كان سيضرب رمزًا لكفاح الطغيان.. إنه سيموت يومًا وسيترك عائلته.. ولكن اليوم كان سيموت ميته شريفة.. واستولت عليه هذه الفكرة الأخيرة حتى لقد استدار وسار بضعة خطوات عائدًا إلى البنجالو، ولكنه ما لبث أن تخاذل ورجع. لابد أن صاحب قد غادر البنجالو إلى النادى؟.. وما فائدة خلق متاعب جديدة؟.. إن ما حدث كان كافيًا..

وما أن وصل إلى الدار حتى سألته شاردا، لماذا أرسل إليك؟ لقد تأخرت.

ورد عليها وهو مستلقٍ على المقعد الطويل (كان مخمورًا وأخذ الملعون يشتمنى ثم أهاننى وطلب إلى الشبراسى أن يشد أذنى).

وأجابت شاردا حانقة (ولماذا لم تضربه بحذائك على وجهه).

وقال فاتح تشاند كان الشبراسى طيبًا فقد قال له فى وضوح (هازور أنا لست فى خدمتك لأهين أناسًا محترمين ثم تركه ومضى).

(لقد كان هذا شجاعة منه؟ ولماذا لم ترد الإهانة للإنجليزى؟).

(لقد فعلت، لقد رددت له أكثر منها فقد اندفع نحوى بعصا فخلعت حذائى.. وحينما

ضربني بالعصا انهلت عليه بالحذاء)
وكأنما اسكرت شاردا القصة فقالت (حقًا.. لابد أن وجهه كان منظراً!!.
(كان وجهه كأرض الغرفة القذرة).
(أحسنت أحسنت.. لو كنت أنا هناك لما تركته حيًا).
فقال لها (ولكن الأمور ستتعقد بعد هذا الحادث.. ولا أدرى ما سوف يحدث.. ولكننى سأفقد عملى على أى حال وربما وضعت فى السجن أيضًا.. ولن ينصت لى أحد حتى ولا القضاء فسينحازون إلى صفه).
(لا تهتم.. سنرى بعد الآن أن أى انجليزى لن يجرؤ على معاملة مرؤوسيه هكذا).
(ربما كان قتلنى).
(كان سيلقى جزاءه حتمًا).
وابتسم فاتح تشاند وقال (وماذا كنت تفعلين أنت).
(الله كان سيرعانا، ألا تعرف أن أعظم ما يحافظ عليه الإنسان هو كرامته، وإذا فقدت كرامتك فأنت لا تستحق أن ترعى زوجة وأطفالاً.. وما دمت قد ضربته فأنا فخورة بك، ولو كنت تحملت الإهانة ساكتًا لكرهت أن أنظر فى وجهك.. وربما كنت سكت ولم أقل شيئًا وفى قلبى كنت سأفقد أى احترام لك).
وهدأ صوت شاردا وسرت فيها السكينة ثم قالت:
(والآن مهما كانت النتيجة فإنى سأحتملها بفرح.. هاى أين تذهب .. خذ . اسمع).
ولكن فاتح تشاند كان يجرى كالمجنون خارجًا من المنزل وظلت شاردا تصيح ولكنه لم يجب .. لقد كان مندفعًا إلى البنجالو ولكن لم يكن فى قلبه هذه المرة ذرة من الخوف بل على العكس كان رافعًا رأسه.. وكان وجهه كقطعة فولاذ وكان هو كله إنسانًا جديداً لا الكاتب الضعيف الشاحب ولكن إنسانًا شجاعًا حيًا ذا هدف.. ومال إلى بيت صديق يعرفه واقترض عصا غليظة ثم أسرع إلى البنجالو.
وكانت الساعة التاسعة وكان (صاحب) يتناول عشاءه ،ولكن فاتح تشاند لم ينتظره ولكى يتم طعامه وما كاد خانسامة يقدم الطعام إليه ويعود إلى المطبخ حتى رفع ستاراً ودلف إلى الداخل وكانت أرض الغرفة مفروشة بسجادة جميلة ثمينة لم ير مثلها فاتح تشاند حتى يوم زواجه ونظر إليه (صاحب) بعينين تتطايران شرراً.
ورفع فاتح تشاند العصا وقال: (لقد طلبت الملف وقد أحضرت الملف.. فانته من طعامك حتى أعرضه عليك. إننى منتظر هنا فاستمتع بالطعام إذ فربما كانت أكلتك الأخيرة).

وذهل (صاحب) ونظر إلى فاتح تشاند نصف ثائر ونصف حانق.. ولكنه تحقق أنه أمام شخص لم يعد يأبه لشيء.

وشعر صاحب بخوف.. إذ من السهل أن تضرب الكلب طالما أنه لا يعض ، ولكن إذا هجم عليك ليعضك فستفقد إرادتك .. وهذا ما شعر به صاحب!!

طالما كان فاتح تشاند يتحمل صامتًا، فصاحب قوى جبار، ولكنه الآن فى حالة أخرى. لقدكان يرقب كالقط كل حركة، وقد خانته عزيمته ، فإن أى إهانة بسيطة ستهوى بالعصا على وجهه ، طبعًا إنه يستطيع أن يفصله، بل ويستطيع أن يضعه فى السجن، ولكن الفضيحة والضجة ستلاحقانه!..

ولهذا كان لابد له كرجل بعيد النظر أن يغدو معتدلاً ودبلوماسيًا.. فقال: يبدو يا عزيزى فاتح تشاند أنك غاضب منى.. ولكن لماذا تغضب؟.. هل قلت شيئًا أساء إليك؟..

– منذ نصف ساعة فقط شددت أذنى وسميتنى المغفل الأحمق مائة مرة .. فهل نسيت بسرعة يا صاحب؟..

– أنا شددت أذنيك؟.. هل تقول جادًا؟.. هل تظننى مجنونًا؟..

– إن الساعى يشهد على هذا، وخدمك أيضًا رأوا الحادث..

– متى فعلت كل هذا؟..

– منذ نصف ساعة فقط.. لقد أرسلت إلى، وحينما جئت شددت أذنى وركلتنى بقدمك..

– حقًا! .. يجب أن أعترف لك يا بابوجى أننى كنت قد شربت قليلا، وقد أكثر الخادم من الويسكى ، ولماذا فأنا لا أذكر شيئًا .. يا إلهى.. هل فعلت كل هذا؟..

وأجاب فاتح تشاند: وهل لو كنت قتلتنى وأنت مخمور أما كنت أموت؟.. وإذا كان كل شيء مغفور للمخمور فأنا مخمور فى هذه اللحظة.. والقرار الذى اتخذته هو أن تمسك أذنيك وتشدهما ثم تطلب العفو وتقسم أيضًا انك لن تعامل الناس هكذا .. وإياك أن تتحرك حركة بسيطة وإلا فسأهشم رأسك .. والآن أمسك أذنيك واشددهما..

حاول صاحب أن يضحك قائلا: بابوجى إنك تحسن المزاح.. أليس كذلك؟.. وإذا كنت قد أسأت إليك فأرجو أن تعذرنى..

– أذنيك..

ولم يكن الإنجليزى مستعدًا لأن يخضع.

وهز فاتح تشاند العصا قائلا: أمسك للإهانة بسهولة، فقفز من كرسيه وحاول أن يختطف العصا من يد فاتح تشاند. ولكن هذا كان متيقظًا، فما أن غادر صاحب المائدة

حتى هوى عليه بضربة على صلعته ترنح على أثرها وأمسك رأسه بين يديه، وظل دقيقة يصيح: سأفصلك.. سأفصلك..

وقال فاتح تشاند: لن يهمنى.. ولكننى لن أغادر هنا حتى تمسك أذنيك ثم تقسم أنك لن تعامل أحداً كما عاملتنى وإذ لم تفعل فاستعد للضربة الثانية.. ورفع عصاه..

ولم يكن صاحب قد نسى الضربة الأولى قط، فأمسك بأذنيه على التو وقال: هاك ما تريد.. هل اكتفيت؟..

– وهل لن تسب أحداً بعد اليوم؟..

أبداً..

– وإذا فعلت فلتذكر أننى لن أكون بعيداً..

– لن أسب أحداً أبداً..

– حسنًا.. والآن فسأتركك، ومنذ اليوم لم أعد كاتبًا فى مصنعك ، وسأرسل استقالتى غداً، وسأكتب أنها بسبب سوء خلقك..

– ولكن لماذا تستقيل؟.. إننى لم أفصلك..

– لا أريد أن أشتغل لدى حمار أحمق مثلك بعد اليوم.. وغادر فاتح تشاند البنجالو وسار إلى بيته هادئًا مطمئنًا فقد كان يشعر بالنصر والحرية.. ولم يحدث قط فى حياته أن شعر بهذه السعادة.

«قصة هندية.. بقلم ابريم تشاند»

ترجمة : محمد عودة



راقصة هندية



«كان فى رقصها قدسية غاندى، وشاعرية نهرو، وصوفية براشادا!!»

رأيتها ترقص فى الاحتفال باستقلال الهند فأدركت ما قيل لى يومًا من أن الاحتفال باستقلال الهند لا يتم بغير رقصاتها.

كانت تعكس فى رقصاتها أجمل ما فى الهند.. قدسية غاندى، وشاعرية نهرو، وصوفية «راجندرا براشاد» رئيس الجمهورية .. الذى كان حاضرًا.. يتأمل رقصاتها وكأنه يتعبد!!..

وكانت تبعث نفس ذلك الشىء الحار العميق الجميل السماوى الذى تحسه فى المعابد، وأمام تماثيل الآلهة..

ومال على جارى وأنا مبهور وقال:

– لا يجب أن تراها هنا.. إنها هناغريبة فى دلهى، وسط البيروقراطية والحكام العظام، أما هناك..

– هناك أين؟..

– فى مدراس، فى «الكالاكشترا» فهناك ثلاث واحات لروح الإنسان فى الهند «الكالاكشترا» فى مدراس حيث بنت «روكمينى ديفى» معبدًا للجمال و «الشانتنبنيكيتين» فى كلكتا حيث بنى طاغور معبدًا للسلام و «البنجى كولوفى» مستعمرة المنبوذين فى دلهى،

حيث بنى غاندى معبداً للإنسان، ولا بد أن تذهب إلى هناك لتفهم الهند.

- مدراس هذه قارة أخرى!!

- ولكن الرحلة تستحق وستراها كما يجب أن تراها، بساريها القطن البسيط بين تلميذاتها تعيش معهن فى قلب «ناتاراما» إله الرقص نفسه..

إن كان شىء فى «الكالاكشترا» من طراز الأكواخ إلى الفنون التى تعلم حتى الطعام الذى يأكلونه بمثل الهند، ورمز لأصالتها، ولكن الشكل هناك ليس كل شىء ، لقد أنقذت «روكمينى ديفى» روح الرقص فى الهند، وانتشلت «البهارات تاتيام» رقصنا المقدس من محنة انهيارنا الثقافى، وإن كانت أيضًا أكثر من راقصة..

أفضل.. لقد كانت مجاهدة وطنية وهبت رقصها لمعركة الحرية، وأسهمت به فيها، ولقد كان رقصها فصلا من قصة تحررنا، ولا زال شعار « الكالاكشترا» هو أن التحرر لابد أن يكون جميلاً ، لأن الحرية بغير جمال مستحيلة، تمامًا كالجمال بغير حرية.

***

وذهبت إلى مدراس

ووجدت «روكمينى ديفى» تحت الشجرة وكانت «الكالاكشترا» غابة بعيدة صغيرة من الأكواخ والأشجار، تناثر تحتها فتيات وفتيان صغار مع معلميهم ومعلماتهم يعزفون ويرقصون ويصلون ويمرحون. وكان كل شىء هنديًا خالصًا وعريقًا، وحينما سألت الأستاذة:

- أين القصة هنا؟.. اغرورقت «الأستاذة» فى الضحك.. ضحكًا صافيًا كأنغام السارود وقالت:

- لم تكن البداية عادية، ولقد بدأت حين تنتهى الراقصات، وعندنا تبدأ الراقصة من سن السادسة أو العاشرة، وهى تطوف بأستاذة الرقص تتعلم رقص «الكاتاكالى» فى «تانجور» وتتعلم «البهارات ناتيام» هنا فى مدراس، والكاتاك رقص المغول فى «أجرا» فى الشمال، و «المانيبور» رقص الشعب فى «أسام»، وحينما يمنحها أستاذها الإذن تبدأ ترقص وتظل حتى يشير عليها بأن تكف فتعتزل أو تبحث عن ميدان آخر، ولكننى بدأت هكذا فى سن اليأس، فى سن الخامسة والعشرين، ولا أدرى ما الذى انبثق فى نفسى فجأة ودفعنى لأن أرقص وأن أتحدى عقبات كثيرة وعسيرة، ولقد كان فى نفسى دائمًا منذ طفولتى شعور مبهم غامض بأننى أريد أن أرقص ولكنه لم يستبد بى إلا فى ذلك الحين. وربما كان غاندى.. كان غاندى قد أيقظ الهند كلها واستيقظت معها، وأحسست أننى أريد أن أسهم فى المعركة وأن أجاهد مع ملايين المجاهدين والمجاهدات، وهيئ لى أن لو رقصت

وعبرت فى رقصاتى عن حلمنا بالحرية فإننى أكون قد أديت واجبى، كان سلاحنا هو قرانا الروحية، أولاً وأخيراً والرقص منها.

وبدأت أتعلم الرقص..

– كيف، بطريقة الفتيات الصغار؟..

– لا بطريقة أشق، لقد ذهبت إلى كبير أساتذة الرقص هنا وسليل الحكيم القديم العظيم «بهارات» مبتدع «البهارات ناتيام» فطلب إلى أن أرقص أمامه، وحينما رقصت سألنى هل علمك أحد قبل الآن، وقلت له لا ، فقال لى هذا لم يحدث منذ رقصت «لكشمى» للإله «شيفا» وما أظنك فى حاجة إلى أن تتعلمى كثيراً، وقلت له لا يا مهاراش أريد أن أتعلم.. إننى أحس روحى خاوية، وروى لى القصة التى لا زالت درسى الأول والأخير، وقال لى أن تعليم الرقص يتغير منذ ألقى «ناتاراجا» درسه الأول على تلميذته الخالدة «شانتا» هل تعرفينه؟.. ذهبت «شانتا» إلى «ناتاراجا» ليعلمها الرقص فقال لها «اذهبى أولاً وادرسى الموسيقى»، وغابت عاماً تعلمت فيه أصول الموسيقى، وجاءت وقالت له لقد درست يا أستاذى، فقال لها اذهبى وادرسى الشعر، وغابت عاماً درست فيه أصول الأدب والأساطير القديمة وعادت، فقال لها: هل «ترين الكون»؟ فقالت: نعم يا أستاذى ، فقال: الآن تستطيعين أن تتعلمى الرقص.

ووعيت هذا الدرس جيداً، ولا زال هو الدرس الذى استذكره كل صباح وأعلمه لكل تلاميذى وتلميذاتى.. إن الرقص يجب أن يغدو شعلة من روح « ناتاراجا» نفسه.

– هذا منهج رائع لكل فنان.. ولكنك لم تقضِ كل هذه السنين فى تعلم كل هذه «الفروع»؟

– كنت أريد أن أعيد مجد رقص «البهارات ناتيام» وأن أسهم فى انتشاله من الهوة التى انحدر إليها، وأعيده إلى المعابد حيث ولد وحيث يجب أن ترد إليه قدسيته، وأخذت أطوف وأجمع الراقصات وأتعلم وأرقص للجماهير، وقال لى غاندى يوماً: «أنت سفيرتنا الثقافية للعالم اذهبى وبشرى بثقافة الهند واقتنعيهم أننا أحياء ولا نموت».

ورحلت إلى أوروبا وأمريكا، ورقصت على معظم مسارحها من ستوكهلم إلى نيويورك، وتفتحت روحى إلى حضارة الغرب، وإلى المعانى التى تجمع روح الإنسان فى الشرق والغرب، وآمنت بالاثنين معاً. ولما كنت أخشى دائماً أن تكون أيامى على المسرح قصيرة، وأن يشير لى أستاذى بإصبعه فأنزل أردت أن أقوم بعمل كبير أبقى به على المسرح حتى بعد أن أغادره، ورأيت أن أبعث ملحمة الهند الكبرى «كومارا سامبهافان» التى

كتبهاالشاعر الخالد «كاليداسا» فى القرن الرابع قبل الميلاد، وجمع فيها كل حكمة الهند القديمة تمامًا كما روى هو ميروس فى الإلياذة حكمة الإغريق. وكان عملاً كما روى وهو ميروس فى الالياذه حكمة الاغريق. وكان عملاً طموحًا استغرق منى سنوات عمرى، ولكنه حينما تم.. أحسست أننى حققت حياتى، وذهبت إلى أستاذى وقلت له: هل أنزل، فقال: لا .. لن تنزلى طالما كان هناك رقص وطالما كانت روحنا فى حاجة إلى الحرية، وسكت يومها طويلا.. وقال إن معركتنا الروحية مستمرة حتى بعد أن نستقل بزمن بعيد..

– وأظنهاعلى أشدها الآن..

ولهذا رأيت أن نعد لهذه المعركة جيشًا صغيرًا من الراقصات والراقصين لينفذوا إلى روح الهند، ويبشرون بها، ويحفظون عمودهاالفقرى قائمًا..

وها أنت فى قلبه ، ولقد أنشأنا «الكالاكشترا» لندرس ونتعلم ونعيش معًا، كما كان «الجورو» معلمى الهند القديمة و «الريشى» حكماءها يصبحون تلاميذهم إلى ظل شجرة ،ليورثوهم ما تعلموه.

وفى كل بضعة أعوام تخرج للهند راقصًا أو راقصة عبقرية تحمل رسالة «الكالاكشترا» وتجدد ثقتنا بالهند وفى الإنسان.. ومرة أخرى أدركت وأمنت لماذا لا يتم الاحتفال باستقلال الهند بغير رقصاتها.

ثورة.. إقبال



بدأت باكستان حلمًا فى رأس شاعر من شعراء الهند ومفكر من مفكريها العظام هو «محمد اقبال».

واقبال تراث تتفق عليه وتتقاسمه الهند وباكستان، ونشيد الجيش الهندى قصيدة وطنية من قصائده.

«والماجنا كارتا» الباكستانية خطاب ألقاه فى الثلاثينيات فى مؤتمر حزب العصبة الإسلامية.

وباكستان التى حلم بها اقبال كانت شيئًا مختلفًا وبدأت كل المشاكل، التى تعيشها باكستان الآن من البعد عن طريق اقبال. وقد كان اقبال مع كثير من زعماء وأقطاب المسلمين فى الهند فى مقدمة الحركة الوطنية الهندية بل سبق بعضهم غاندى فى مقاومة الحكم البريطانى، والدعوة للاستقلال.

ولكن لأسباب عديدة ، رئيسية وثانوية، تعثر أمل هؤلاء فى الحركة الوطنية الهندية، وبدأوا البحث عن طريق آخر.. للمسلمين وحدهم!

وكانت الصبغة الدينية (الهندوكية) للحركة الوطنية على يد غاندى، تغلفهم وفى النهاية نفرت كثيراً منهم.

وكان غاندى يريد أن يوقظ ملايين الهنود، أن ينفذ إلى ثمار راحتهم، وأن يبدع لهم وأن يجد لهم طريقًا وسلاحًا خاصًا.. بعد أن جردهم الاستعمار من كل الأسلحة وسد كل الطرق ورأى أن يعيش حياتهم ويتكلم لغتهم وينفذ إلى أرواحهم من تراثهم الروحى.

ولكن غاندى كان يريد أن يوقظ كل الهند، المسلمين الهندوس والمسيحيين وكل الملايين المستعبدة.

وكانت دعوته لهذا إنسانية ، وصلواته مزيجًا متساويًا من كل الديانات، ونداء لكل الهند.

ولكن حول غاندى فى حزب المؤتمر تجمع أقطاب الهندوس، بعضهم متدين تدينًا عميقًا، مثل المهاتما، وبعضهم متعصب، يرى الهند وطن الهندوس ، ويحب أن يكون وطنهم أولاً، وبعضهم يخفى مطامعه تحت أقنعة الدين، ورأسماليون يريدون أن تستقل الهند ليملكوها هم ويحكموها.

وهب البريطانيون الذين رأوا وحدة الهند، تقوم فجأة، وتهدد كل ما أقاموه من خلال قرون طويلة على التفرقة بين الهندوس والمسلمين ليفتتوا الوحدة.

وكان لدى كثيرين من أقطاب المسلمين حساسية الطائفية، المعتزة بنفيها وهى على قلتها النسبية حكمت الهند ألف عام، وأسهمت فى حضارتها وتراثها تمامًا كما أسهمت الأغلبية وهى لم ينقطع كفاحها من أجل استقلال الهند منذ بداية الاستعمار.

وأدت كل هذه العوامل مجتمعة ومتفرقة إلى أن ينقسم المسلمون فريقين، الذين يريدون البحث عن طريق آخر لاستقلال المسلمين فى الهند، والذين يصرون على البقاء مع الأغلبية فى وطن واحد والصمود، حتى يستقل ويذهب العدو والذى يقف وراء كل الفرقة وكل المشاكل كما قال أحدهم: «أين نذهب ونترك تاج محل ومسجد الجمعة والقلعة الحمراء» وهى أزهى الآثار الإسلامية فى الهند.

وكان رأى هؤلاء أن المسلمين ليسوا أقلية، هم أقلية عددية، ولكن أقلية خلاقة مبدعة هى القوة الأخرى التى لا تتحق ولا تكتمل شخصية الهند بدونها، ولابد أن يبقوا على السراء والضراء مع الأغلبية، ويحلوا المشاكل معًا.

وكان أعظم هؤلاء أبو الكلام أزاد، وكان أعظم الآخرين (اقبال).

ودعا اقبال إلى أن يستقل المسلمون بوطن خاص فى الهند، ولكى يحقق المسلمون هذا الوطن، لابد من ثورة ثقافية يصلحون فيها ما ران على عقيدتهم وثقافتهم.

ثم ثورة شعبية يتخلصون بها من الاستعمار والاستغلال.

ولقد دأب الحكم البريطانى بكل ما استطاع على أن يبقى ويثبت التخلف لدى جماهير المسلمين خاصة وسلط عليهم جيشًا من المشغوفين الدينيين ينشرون البدع والخرافات، ويذكون الفرقة والانقسام بين مختلف المذاهب.

ولهذا رفض (اقبال) الصوفية والمتصوفة وقاومهم وأعلن أن (الصوفية أفيون المسلمين) ودعا إلى العمل والثورة.. وانقلاب.. انقلاب.. انقلاب» أى: الثورة.. الثورة- الثورة الاردية.

وقتلت أشعار اقبال وكتاباته الهند كلها، المسلمين والهندوس على السواء، كان أعظم شعراء اللغة الاردية بعد (غالب).

وقال أحد كبار المفكرين:

«لدى الهندوس طاغور الذى يدعونا إلى أن ننام، ولدى المسلمين اقبال الذى يدعونا إلى الثورة».

كان طاغور يبحث عن الجمال والسلام، الجمال فى كل شىء والسلام والإخاء مع كل الناس.

وكان اقبال يدعو إلى تصحيح الحياة والنظم- أولاً- ليقوم الجمال ويسود السلام.

وكانت باكستان بهذا (ثورة) يحققها جماهير المسلمين.

ولكن حينما دعا إليها، لم يدع إلى انتزاعها من الهندوس، أو إلى أن تقوم دولة إسلامية تناصب الدولة الهندوكية العداء- ولكن أن تقوم دولة مسالمة ، بالاتفاق بين الاثنين ويكون الطريق لتحقيق السلام بينهما.

تتحقق باكستان من الولايات ذات الأغلبية الإسلامية فى الهند ويستقل بها المسلمون ويحكمونها حكمًا عصريًا تعيش فى ظله الأغلبية المسلمة والأقلية الهندوكية التى تبقى فيه حياة أفضل.

وتتكون من الولايات ذات الأغلبية الهندوكية الهند.

ويعيش فيها الهندوس وما يبقى من المسلمين حياة مماثلة.

ولابد أن تكفل الدولتان للأقليات الحقوق والشرعية والطبيعية. أن توفر لهم كل الضمانات.

كان الشرط الأول فى حكم اقبال أن يكون الوطن ملكًا لكل المسلمين ولأغلبيتهم خاصة ولهذا لابد أن يسوده نظام اجتماعى، يحرر المسلمين من الاستعمار ومن الاستغلال معًا.

إن التحرر بالنسبة للمسلمين لا يعنى فقط خلاصهم من الاستعمار وهو أساس كل البلاء.. ولا من الهيمنة والسيطرة الهندوكية فحسب، ولكن من الاستغلال. أى من الفقر أيضًا.. وأساسًا وكان المسلمون فى الهند - أشد جماهيرها فقرًا وعوزًا. بعد المنبوذين وقد

تعمد الحكم البريطاني أن يبقيهم دائمًا في القاع.

انتزع البريطانيون حكم الهند من المسلمين.

وحينماثار المسلمون ، ثورة عارمة كادت تقضي على الإمبراطورية كلها سنة ١٨٥٧، نزل بطش البريطانيين الأكبر بالمسلمين. شرب القائد البريطاني، كوبًا مترعة من دم امرأة المغول وأرسل رؤوسهم على صينية كبيرة إلى الإمبراطور في قصره .. قبل محاكمته وعزله ونفيه.

وقد دعا اقبال المسلمين منذ البداية إلى (أن يدرسوا الاقتصاد أولاً.. وحتى قبل أن يبدأ الدعوة إلى باكستان بوقت طويل كتب كتابًا باللغة الأردية بعنوان (علومى اقتصاد) يدعو المسلمين إلى أن ينكبوا على دراسة الاقتصاد لأن (الأمة التي لا تبني اقتصادًا قويًا، لا يمكن أن تبقى في هذا العصر..)

وظل اقبال يبحث في الإسلام وفي مذاهب ونظم العصر عن حل للمشكلة التي تقض مضجعه وهي الفقر، فقر المسلمين في الهند.

وقاده البحث إلى الحقائق الرئيسية الأولى وهي: أن الاستعمار يستغل شعوب الشرق كما يستغل شعوب الغرب وأن الرأسمالية هي لغة العصر- نظام ضد الإنسان.

وشن اقبال حملة على الرأسمالية والإقطاع . وأعلن أن القضاء على الفقر لابد أن يبدأ من القضاء على هؤلاء، وأن الإسلام ضد الاثنين، وليس هناك إقطاع في الإسلام لأن الأرض وملكية الأرض، هي لله وحده، ولابد أن توزع بين عباده بالعدل، بل وليس من حق أحد أن يملك أرضًا لا يزرعها ويعيش منها وكل من يملك أرضًا لا يعرفها كما يفعل الإقطاعيون لابد أن تنزع منه وأن توزع على من هم أولى بها..

وهذا هو الإسلام.

وقال قصائده المشهورة دعا بها فلاح البنجاب:

«قم وحطم الأصنام والقيود حطم سلاسل الأغلال. إن الإسلام يدعوك كل لحظة إلى أن تحقق ذاتك».

«اعرف نفسك أيها الفلاح.. أنت البذر والحقل والمطر. كن شعلة تناسب وتحرق كل ما يتنافى وأحكام الله.. هل تخاف الزيف.. حطم الزيف ولا تخافه».

وقامت الحرب العالمية ومن خلالها انتصرت الثورة الروسية وكانت حدثًا أثار العالم كله، ولكنها هزت شاعر الهند العظيم، كما لم يهزه حدث من قبل، تلقى أخبارها وشعاراتها بفرح كبير ثم ألهمته قصيدتين من أجمل أشعاره ومن أشهر قصائد الهند قصيدتان هما: «الله يأمر ملائكته» و «لينين في حضرة الله».

وتقول قصيدته الأولى: «إن الله دعا الملائكة وكلهم بأمر واحد هو أن يوقظوا فقراء العالم لكى يحطموا العالم « الرأسمالي والإقطاعى. وأن يساعدوا البشر فى إقامة العالم الجديد.. خلاص الإنسان».

وتقول القصيدة الثانية: «ان لينين حينما انتقل إلى العالم الآخر، ولقى الله آمن به، ولكنه اعتذر أنه لم يكن ليستطيع أن يرى الله فى عالم يستغل فيه العامل ويسترق الفلاح وتستعبد فيه الشعوب وترتفع فيه البنوك أعلى من الكنائس، ولكن وقد رأى الله وآمن به ، فإن خلاص الإنسان أصبح قريبًا».

وتجاوبت الهند كلها بالقصيدتين وأثارت الجماهير والمثقفين.

ولكن قامت الأوساط الدينية المتزمتة تتهم اقبال بالشيوعية والبلشفية وتثير حملة عنيفة ضده.

ووقف اقبال يبرئ نفسه من التهمة ويدافع عن موقفه وبدأت مرحلة من القلق والحيرة، بين اعجابه بالثورة الاجتماعية التى حققتها الثورة الروسية وبين رفضه للإلحاد فى الفلسفة الماركسية وبعد البحث والعناء توصل إلى معادلة فلسفية تقول:

«الشيوعية +الإيمان بالله= الإسلام».

ولم تنقطع الحملة عليه، ودخل فى حوارحاد مع الشيوعيين هم والمتزمتين.

ولهذا قال:

«إن الإسلام يتفق مع الشيوعية فى أنه ضد الرأسمالية وضد الإقطاع وضد الاحتكار وأنه ضد الملوك والقياصرة ، وأنه ضد رجال الدين والاكليروس.. ولكن كل هذه مبادئ فى القرآن ولا حاجة للمسلمين لتلمسها فى كتاب آخر».

وفى خطاب كتبه إلى بريطانى قال: روسيا.. والإسلام.

«إننى لا أعتقد أن الروس بطبيعتهم شعب غير متدين، بل العكس وموقفهم الآن من الدين حالة طارئة.. وليس هناك نظام يمكن أن يدوم ويقوم على الإلحاد.. وحينما تستقر الأوضاع فى هذا البلد.. سوف يفكرون مرة ثانية.. ولأننى على يقين أن البلشفية، مع الإيمان بالله هى الإسلام تقريبا.. فلن أستغرب على مر الوقت أنه إما أن تكتسح روسيا الإسلام أو يكتسح الإسلام روسيا.. ويتوقف هذا على دور المسلمين الهنود فى ظل الدستور الجديد».

وكان هناك بحث ومفاوضة حول دستور للهند فى ظل الحكم البريطانى.

وقد ظلت المشكلة الاجتماعية هى المشكلة التى تعيبه ولم ينقطع بحثه فى الإسلام وفى

الاشتراكية والشيوعية.. عن حلول لها.

وفى آخر حياته ازداد قلقه وحيرته وفى خطاب كتبه إلى (محمد على جنة) قبل وفاته بشهور قال:

«إن على حزب العصبة الإسلامية أن يحسم نهائيًا موقفه، هل يظل حزب الطبقات العليا من المسلمين أو يصبح حزب جماهير المسلمين، وهى الجماهير التى لا زالت وبحق بعيدة عن الحزب».

«إن كل مستقبل حزب العصبة الإسلامية يتوقف على شىء واحد هو كيف يمكن أن تحل مشكلة الفقر ،ولحسن الحظ هناك حل فى تطبيق مبادئ الإسلام وتطويرها بما يتفق وروح العصر»

«لقد بدأ السلم العادى فى الهند يحس بأسباب تدهوره وانحطاطه، من خلال المائتى عام الماضى، وهو يعتقد أن سبب فقره هو الرأسمالية والمرابين الهندوس، واشتراكية «جواهر لال» الملحدة ليس من المحتمل أن تجتذب كثيراً من المسلمين، ولهذا فإن ماأقترحه ربما يكون خير رد يمكن أن نواجه به اشتراكية جواهر لال».

ورأى كثيرون أن اقبال قد حل أخيراً المعادلة الصعبة التى كانت تحيره بين الاشتراكية الديمقراطية والدين.

ورأوا أيضًا قلقه يشتد حول العصبة الإسلامية وحول حلم باكستان وهل يصبح حزب اقطاعيين فقط. وهل تولد باكستان صنيعة الإقطاعيين المسلمين، وهل لا تكون بداية ثورة وديمقراطية اشتراكية إسلامية، كما تصور.

ومات محمد اقبال، ولكن لا زال واحداً من أعظم شعراء ومفكرى وثوار الهند والباكستان معًا، وضمن قلة نادرة يجمع عليها شعبا البلدين.

وفى باكستان - الآن- عودة إلى مراجعة أفكار اقبال وذلك لإدراك مدى الانحراف والبعد عن الطريق الصحيح وكيف يمكن العودة إليه.. خلاص باكستان هو فى استئناف المسيرة فى طريق اقبال.

وهذا هو خلاصة حديث طويل مع (جاويد محمد اقبال) ابن الشاعر الكبير، والقاضى فى لاهور، وحديث طويل آخر مع (رشيد خان) و (محمد مهدى) من شعراء وأدباء الهند المعاصرين فى دلهى..

وهو حديث فيه ما ينفعنا ويلائمنا وينفى الفكرة السائدة عندنا، أن اقبال كان متصوفًا نغنى بعض قصائده فقط..

الفشل المزدوج

«قصة أسد كشمير»



لا شىء يعكس كل متناقضات شبه القارة الهندية أى (الهند وباكستان) مثل مشكلة كشمير. ولا أحد يعكس هذه المشكلة مثل شخصيتها الأولى (الشيخ عبد الله) أسد كشمير. وقد قابلت الشيخ عبد الله مرتين. كانت المرة الأولى عام ١٩٥١، وكانت المرة الثانية سنة ١٩٦٤، كانت الشيخ محمد عبد الله، رئيس وزراء كشمير، ورئيس حزب المؤتمر الوطنى الكشميري، وأهم من هذا وفوقه، كان بطلاً وطنيًا من أبطال الهند، وزعيمًا مسلمًا يضعه الكثيرون قبل أبو الكلام أزاد «ورفيع أحمد كدواى »وكانا قطبى زعامة المسلمين الوطنيين فى الهند فى ذلك الحين.

وفى عام ١٩٦٤، كان الشيخ عبد الله.. خارجًا منذ قليل من سجن دام ما يقرب من أحد عشر عامًا ، قاسى في خلالها هو وأسرته (كل ما لا يمكن أن يحدث فى دولة تقول إنها ديموقراطية علمانية) وخارجًا من محاكمة صورية لم تتم، وجهت إليه التهمة (التى كنت أتصور كل شىء إلا أن تحدث له وتوجه فى ظل حكومة يرأسها نهرو) وهى الخيانة..

ولكن سواء فى المرة الأولى أو المرة الثانية كان (الشيخ عبد الله) هو هو لا يزال (شير كشمير) أى أسدها، ومعبود جماهيرها..

حينما خرج من السجن، وعاد إلى كشمير، قوبل مقابلة (أعادت إلى الأذهان ذكرى

مظاهرات أيام غاندى، أو مظاهرات الاستقلال..) كما قالت أشد الصحف عداء له.. ولا زال فى المرة الثانية كما كان فى المرة الأولى هو العامل الحاسم، والفيصل فى مصير كشمير وشعب كشمير..

وحينما روى لى الشيخ عبد الله قصة كشمير فى المرة الأولى قال:

«قصتنا بسيطة ومعقدة، ككل شىء فى الهند، ولكن لابد أن تبدأ منذ البداية.. هذا الوادى الجميل الذى فتنك، والذى يستأثر بكل من يراه، اشتراه المهراجا «جولاب سنج» من البريطانيين هو و «جامو» بمبلغ سبعة ملايين ونصف مليون روبية، وكان ذلك مكافأة للمهراجا على خيانته لقائده الكبير «رانجيبت سنج» فى حروب السيخ الشهيرة.. ومن ذلك اليوم (وقد سميت الصفقة معاهدة ارتيسار سنة ١٨٤٩) اعتبر المهراجا جولاب سنج وأحفاده أن ولاية جامو وكشمير هى ضيعة اشتروها هى وأهلها ، ليفعلوا بها ما يشاءون وقد قام حكم المهراجات والأمراء على الاستبداد والاستغلال، بأشد أنواعهما، ولكنه فى كشمير كان مضاعفًا.. كانت الأسرة الحاكمة هندوكية والأغلبية مسلمين، ولهذا كونت الأسرة أرستقراطية هندوكية ، ملكت كل شىء، وبطشت بكل الحقوق والحرمات، وسامت هذا الشعب الوديع الموهوب أفظع أشكال الاستبداد والاستغلال.

وفى سنة ١٩٣١ اجتمعنا- بعض الشباب- وقررنا إنشاء (حزب المؤتمر الإسلامى) ليدافع عن حقوق الأغلبية ضد حكم المهراجا والقلة الحاكمة ولم يمض قليل حتى أصبح الحزب، قوة سياسية تقلق المهراجا والإنجليز.. وأخذوا يفكرون فى كل الطرق للقضاء عليه..

ووجدنا بعدئذ شيئًا غريبًا.. انتقى المهراجا ومستشاروه الإنجليز عددًا من المسلمين، ومن الحزب ومنحوهم بعض الوظائف. والمناصب الكبيرة.. وإذا بهؤلاء ينشقون عن الحزب، وينضمون لأعدائه ويصبحون أشد بطشًا بالمسلمين..

وأدركنا أن المشكلة ليست مسلمًا وغير مسلم، بل وطنى وغير وطنى ، ومستعمر ومضطهد، ومستغل وإقطاعى..

وقررنا أن نغير الحزب، فلسفته وتنظيمه وبرامجه وسميناه (حزب المؤتمر الوطنى) وأصبح يضم كل أهالى كشمير ، من مسلمين وهندوكيين وسيخ، ويصهرهم معًا، فى كفاح ضد الاستعمار وضد الاقطاع.

وكان حزبينا مستقلاً، معتمدًا على قوته، وكفاحه الذاتى، وكان حزب المؤتمر لا يمارس العمل السياسى فى ولايات الأمراء، كان قاصرًا على الهند البريطانية.. وقد زاده البطش

والإرهاب الذى أنزله بنا المهراجا، قوة وصلابة ، حتى أصبح نموذجًا لكفاح كل الولايات..

ونحن وإن كنا مستقلين تمامًا عن حزب المؤتمر الهندى، إلا أن مثلنا وأهدافنا مشتركة ، فقد كنا نكافح ضد الاستعمار ومن أجل حرية الهند، وكنا نكافح ضد الاقطاع ركيزة الاستعمار ومن أجل عدالة اجتماعية فى الهند، وكنا نكافح أيضًا الطائفية ومن أجل الوحدة القومية للهند..

ولهذا تمت الصداقة والزمالة الوثيقة بيننا وبين حزب المؤتمر الهندى وبين قادته خاصة غاندى ونهرو.. وعلى العكس نشب الخلاف حادًا حتى أصبح معركة سافرة بيننا وبين حزب العصبة الإسلامية، ومحمد على جنة..

لقد تعلمنا من تجربتنا.. أن المسلمين والهندوس ليسوا أمتين منفصلتين، ولكن أمة واحدة مستغلة ومضطهدة، ويوم يرتفع الاضطهاد والاستغلال، سوف تتأكد وتتدعم هذه الوحدة..

وقد قدم حزبنا المثل لهذا.. فقد انضم إليه كل العلماء والكهنة، والمثقفين المسلمين والهندوكيين والفلاحين والصناع وكل الجماهير من كل الأديان والطوائف..

واستطاع الحزب أن يعزل المهراجا، وحاشيته من الهندوكيين والمسلمين والسيخ والبريطانيين، ولم تعرف الولاية أى صراع طائفى رغم ما حاوله كل هؤلاء من تحويل الكفاح الوطنى إلى مذابح طائفية كالعادة.

ولم يقتصر حزبنا على الكفاح الوطنى، وتنظيم الصفوف ضد المستعمرين وعملاء المستعمرين، ولكنه أعد نفسه لتبعات ما بعد الحرية. بحثنا كل مشاكل كشمير ، وكان أهمها الفقر المدقع، ونهب كل موارد ومواهب هذا الشعب المسكين ، وقادنا البحث إلى الحل الاشتراكى، ووضعنا برنامجًا مفصلاً، بعنوان (كشمير الجديدة) لإقامة تجربة اشتراكية ديموقراطية علمانية فى الولاية تكون نموذجًا للهند كلها.. كان برنامجًا متقدمًا بكثير عن برنامج حزب المؤتمر الهندى واثبتنا نظريًا وعمليًا وسياسيًا أن الإسلام لا يتعارض مع الوطنية ولا مع الاشتراكية.. قدمنا الحجة والدليل.. وحينما قسمت الهند كنا ضد التقسيم، ولكنه أصبح حقيقة واقعة فقبلناه..

وقد منح الأمراء والمهراجات الهنود، بعد التقسيم حق الانضمام إلى الهند أو باكستان ، مع مراعاة العوامل الجغرافية ورغبة شعوبهم.

ولما كانت كشمير تقع بين الهند وباكستان وكان المهراجا هندوكيًا والأغلبية مسلمة ، كما كانت كشمير ضمن أحلام «جنة» وخريطته لباكستان، فقد تلكأ المهراجا فى الاختيار

وبدأ يماطل كلتا الدولتين.

وانتهزت باكستان فرصة بعض الاضطرابات التى وقعت فى مدينة (بونش) فدفعت بالقبائل الشمالية لكى تهاجم كشمير بحجة (أنهم يريدون الإسهام فى تحرير إخوانهم المسلمين..)

وهجم رجال القبائل ، ولكنهم لم يسيروا إلى بونش ولكن إلى الوادى- حيث نهبوا وسلبوا وارتكبوا كل الموبقات..

واستغاث المهراجا بالهند.. واشترطت الهند انضمامه، وأن يصدق حزب المؤتمر الوطنى على هذا الانضمام، ولن يظل كل هذا معلقًا حتى يعود الأمن والاستقرار فيجرى استفتاء بين الشعب ليقرر بنفسه إلى من يريد أن ينضم.. وأفرج عنى ، وتوليت رئاسة الوزارة.. ونظمنا المقاومة الشعبية التى اشتركت مع القوات الهندية فى صد العدوان).

وأضاف الشيخ محمد عبد الله فى نهاية حديثه عام ١٩٥١ (لو انضمت كشمير إلى باكستان.. ماذا ستكون النتيجة ستقع كشمير فى قبضة الإقطاعيين، وعملاء الاستعمار البريطانى القدامى وأخطر من هذا ستغدو كشمير فوراً قاعدة من قواعد الحرب الباردة فى قلب آسيا .. إن كشمير ذات حدود مشتركة مع الهند ومع الاتحاد السوفياتى.. والغرب يتطلع إليها بلهفة ليجعلها من قواعده.

وأخطر من هذا أيضًا، سوف تذكى كل أحقاد المتعصبين الهندوكيين فى الهند نفسها، وستجعل الأربعين مليون مسلم الذين لا زالوا فى الهند والذين يريدون أن يعيشوا فى أمان كمواطنين ستجعلهم (أجانب) مكروهين فى الهند وستحل بهم كل الأخطار المحتملة..

ولكن مع الهند، سوف تكون كشمير قمة الديموقراطية والاشتراكية والعلمانية، مركز إشعاع فى قلب آسيا، ومنارة تلقى ضوءها على الجميع.. وعلى كل فإن الشعب هو الذى سيفصل (ولا نشك فى نتيجة الاستفتاء).

وغادرت كشمير يومها، مقتنعًا بكل ما قاله الشيخ عبد الله.. وبأن كشمير سوف تكون تجربة ثورية جديدة.. فلديها كل مقومات هذه التجربة: زعيم شعبى قوى، وحزب جماهيرى ذو قيادات واعية ناضجة .. قابلت يومها هذه القيادات وكانت مجموعة متناسقة تكاد تكون نموذجًا لما يمكن أن يكون عليه (كادر) حزب ثورى.. مولانا سعيد الفقيه المناضل الواسع الأفق، وميرزا أفضل بيدج المهية الجماهيرى الاشتراكى، وغلام صادق السياسى المحنك (الماركسى) ثم بخشى غلام محمد الرجل الثانى فى الحزب، ورجل كشمير القوى، أو كما قال البعض (الحديدى)، وقائد المعارك العديدة العنيفة التى خاضها الحزب.

ولدى هؤلاء القادة، كان برنامج واضح محدد هو برنامج (كشمير الجديدة) بدأوا بالفعل تطبيقه ، وأعلن (ميرزا أفضل بيج) الإصلاح الزراعى فى كشمير ولم يكن يفوقه يومئذ فى آسيا سوى الإصلاح الزراعى فى (الصين)، وأثار يومها دويًا فى الهند كلها حتى لقد قال نهرو نفسه (أتمنى لو استطعنا تطبيق مثله فى الهند كلها).

ويومها قررت أن أتعمق بنفسى فى حوارى وأزقة كشمير ألمس بنفسى صدى كل هذا، وكان من الصعب أن يتكلم الناس أو أن يستجوبهم أحد حتى يعرفوا أننى (عربى مسلم) وحينئذ تشرق الأسارير وتتفتح القلوب والأفواه.. واستغربت يومئذ أن وجدت الجميع يؤمنون إيمانًا مطلقًا تامًا (بالشيخ عبد الله) ولكن كثيرين منهم أيضًا يفضلون باكستان.

وأقنعت نفسى أن هذه مجرد عواطف غير واعية وإنها بالتربية السياسية، وبلمسها نتائج التغيير الاجتماعى سوف تقتنع.

وآمنت يومها أن كشمير لابد وأن تنضم للهند وأن هذا موضوعيًا هو لمصلحة السلام والتقدم والوحدة القومية، (لو انضمت كشمير إلى باكستان لأصبحت قاعدة للحرب الباردة، وضيعة للاقطاعيين المسلمين الذين لن يختلفوا عن المهراجا، ولألهبت العداء الطائفى الذى هو لعنة المسلمين كلها).

وتركت كشمير متحمسًا لهذه التجربة الجديدة.. مصممًا على متابعة أخبارها..

وتوالت هذه الأخبار ولكن غريبة عجيبة.

فى أغسطس سنة ١٩٥٣ أعلن فجأة وبلا مقدمات اعتقال (الشيخ عبدالله) وقام باعتقاله تلميذه وزميله ومساعده الأيمن (بخشى غلام محمد) نفس الرجل الذى قال (أن أركان الإسلام بالنسبة للجميع خمسة ولكنها بالنسبة لى ستة والركن السادس هو إيمانى بالشيخ عبد الله).

ولم يكن بخشى غلام ليجرؤ على اعتقال أحد زعماء الهند كلها، بغير موافقة الحكومة المركزية أو اقتراحها.. وهذه الحكومة بدا أنها تبارك هذا الإجراء، لأن مصادرها صرحت بأن (الشيخ عبد الله قد تآمر على كشمير مع الولايات المتحدة الأمريكية بواسطة ادلاى شتيفنسون وذلك لإعلانها ولاية مستقلة).

وأسدل ستار (حديدى)على الشيخ عبدالله وعلى كشمير كلها، وتولى بخشى غلام حكمها (جعل الشعب كله يترحم على أيام المهراجا الهندوكى) وبلغ الإرهاب والبطش كما بلغ الفساد واستغلال السلطة والنفوذ حدًا لم تبلغه ولاية فى الهند مع كثرة الولايات الفاسدة..

وبعد خمس سنوات طويلة فى السجن، قضاها الشيخ (عبد الله) وأربعون من رفاقه هم زهرة شاب وقيادة الحزب، بل كشمير كلها، أفرج عنه، وعاد إلى كشمير..

وانفجرت كشمير كلها، وخرجت جموعها كلها رجالاً ونساء وأطفالاً لترحب به، ولتؤكد إيمانها وإخلاصها له..

وذهلت الحكومة وعرضت على الشيخ عبد الله أن يتولى رئاسة الوزارة.. وأن ينسى الطوفان ما حدث، ويعود كل شىء إلى ما كان عليه ولكنه رفض..

وبعد ثلاثة أشهر أعيد (الشيخ عبد الله) وعشرون من رفاقه إلى السجن وفى هذه المرة وجهت إليهم تهمة التآمر مع باكستان لضم الولاية إليها بالقوة والرشوة.. ولكن بعد خمس سنوات أخرى.. انفجرت الأمور فى كشمير.. نفسها،، بلغ الاستبداد والاستغلال حداً هدد بالثورة فى الولاية.. وحينما يصل شعب كشمير الوديع إلى حافة الثورة.. فإن شمال الهند كله سوف يتزعزع..

وقرر حزب المؤتمر إزاحة (بخشى غلام محمد) من حكم كشمير قبل أن تشتعل الولاية كلها. وتولت وزارة جديدة برئاسة غلام صادق لإصلاح ما أفسدته إحدى عشرة سنة من حكم (الحجاج الثقفى) كما يسمون بخشى فى الولاية..

ولم يكن ممكنًا أن يحدث شىء قبل إطلاق سراح الشيخ عبد الله ورفاقه.. وبالفعل تم هذا الإفراج..

وفى هذه المرة قوبل الشيخ عبد الله فى الولاية تلك المقابلات التى قالت كل صحف الهند حتى أشدها عداء أنها أعادت ذكرى أيام الكفاح.. ومظاهرات الأيام الأولى للاستقلال).

وفى ظل كل هذه الظروف قابلت الشيخ عبد الله المقابلة الثانية.

وفى هذه المرة قال:

(أنا لا أطلب شيئًا.. سوى الحق الطبيعى البسيط المعترف فى العالم كله لشعب كشمير وهو حق تقرير المصير..

وأنت تعرف التاريخ.. حينما بدأت غارات القبائل وهزمت قوات المهراجا، وأحس أنه لا يستطيع بعد الآن حماية الولاية طلب المساعدة العسكرية من الهند. ووافقت حكومة الهند على منحه هذه المساعدة بشرط أن يوقع على وثيقة الانضمام للهند وذلك لأن كشمير بعد الاستقلال والتقسيم، أصبحت مستقلة فعلاً ، وهم لا يستطيعون إرسال الجيش الهندى إلى ولاية مستقلة ، لأن هذا قد يدفع باكستان إلى إرسال جيشها وتصبح حربًا عامة بين الدولتين ولدى قبول هذا الانضمام كتبت حكومة الهند إلى المهراجا تعلن أن هذا

الانضمام مشروط بتصديق شعب كشمير عليه حينما يعود الأمن والنظام وذلك من خلال استفتاء عام.

ومن خلال استمرار القتال، ذهبت الهند إلى هيئة الأمم، وطلبت التدخل لوقف باكستان عن مساعدة الغزاة وأعلنت الهند فى هيئة الأمم أنها أرسلت جيوشها إلى ولاية جامور وكشمير (لا للتوسع ولكن لمساعدة شعب كشمير ليحافظ على حقه فى تقرير المصير) وأن يقرر بحرية كاملة إلى أى بلد ينضم.

وبعد عدة جلسات فى مجلس الأمن، اتفقت الهند وباكستان فى النهاية على أن تترك لشعب كشمير حرية الانضمام إلى الهند أو باكستان، وذلك من خلال استفتاء نزيه يعقد تحت رأية الأمم المتحدة.

وجاء يوم قررت الهند فيه من جانبها أن الاتفاقيات القديمة مع باكستان على عقد استفتاء فى كشمير قد أصبحت باطلة المفعول، وأن الهند لا تحس أنها مرتبطة بها وهى لا تعطى للباكستان ولا للأمم المتحدة ولا للشعب فى كشمير الحق فى الاستفتاء. وعللت الهند ذلك بأن باكستان تتأهب لتنضم للأحلاف وللغرب..

وكان هذا بداية الخلاف بينى وبين الهند.. إن الاستفتاء حق منح لشعب كشمير نفسه، وقد حارب هذا الشعب منذ سنة ١٩٣١ من أجل هذا الحق وانضمام باكستان للأحلاف يجب ألا يؤثر بحال على هذا الحق المقدس.

وحينماحدث هذا التغير فى موقف الهند، رفضه رفضًا تامًا ، كان من الصعب على أن أخلف وعدى للشعب ثم أحافظ على ثقته ، كان من المستحيل أن أكون طرفًا فى عملية تزييف ونقض وعود.. (ولهذا اعتقلت).

وأعلنت الهند الديموقراطية سياسة الذهب والمدفع فى كشمير، ومن لم يشتروه بالذهب، أرهبوه أو أعدموه بالمدفع.. واستولت على كشمير عصابة عبثت بكل شىء، وأضاعت آخر خيط من الثقة كان لشعب كشمير بحكومة الهند أو بمبادئ الهند.

لقد كان ما يربطنا بالهند هو الإيمان بالعلمانية وبالديموقراطية، وبالاشتراكية ولكنناااكتشفنا أن كل هذه واجهة أو مجرد شعارات للاستهلاك الخارجى..

وكيف يمكن أن ننضم أو نتحالف مع بلد لا نثق بمبادئها ولا فى وعودها.

تصور أننى اعتقلت فى ظل أكبر ديموقراطية فى العالم.. وجعلت أرسل الرجاء تلو الرجاء وألح على أن يسمحوا لى بمواجهة المجلس التأسيسى فى كشمير ،لكى أرد على الاتهامات وأحصل على الثقة أو أفقدها.. فرفضوا وظللنا أحد عشر عامًا فى السجن بغير

تهمة واضحة أو محددة، وحينما حوكمنا رفض كل المحامين الدفاع عنا لأن أى محام فى كشمير أو فى الهند لم يجرؤ على الدفاع حتى اضطررت إلى أن أستحضر محاميًا بريطانيًا .. هل تسمى هذه حكومة ديموقراطية.. وأنا أعرف نهرو جيدًا، ولا أظن أنه كان موافقًا على كل هذا، ولكن ماذا تقول عن حكومة لم يكن نهرو يتسطيع أن يمنعها من أن تدوس كل المبادئ والأسس ،وعلى كل حال فنحن قد نسينا مشكلتنا الشخصية، ولكننا نصر اليوم أكثر من أى يوم آخر على حق شعب كشمير فى تقرير مصيره.. له هو أن يختار ولا يمكن أن يتنازل عن حقه فى الاختيار لقد أردنا أن نمهد لهذا، بخلق جو ملائم بين الهند وباكستان.. أم سياسة الهند تقوم على عداوة باكستان وسياسة باكستان تقوم على عداوة الهند، وقد أردنا أن نبدد هذا الجو، ونخلق أولاً جوًا من التفاهم يمكن فى ظله أن تحل مشكلة كشمير بل وكل المشاكل الأخرى.. وقد نما الان شعور فى الهند، بعد سبعة عشر عامًا من الاستقلال أن الدولتين لا يمكن أن تعيشا إلى الأبد فى صراع وحقد لا ينتهى وحدث نفس الشىء فى باكستان .. وهذا هو أهم ما يعتمد عليه.فى مثل هذاالجو يمكن أن تتحقق إرادة شعب كشمير وهى تقرير مصيره بنفسه باستفتاء أو بأى طريق آخر يوضح هذه الإرادة).

وسألت الشيخ عبد الله (ولكن لو تقرر الاستفتاء فكيف ستختار أنت).

وضحك قائلاً: (هذا ما سأحتفظ به سرًا) ولكن أحد معاونية الكبار قال لنا أن ما تتطلع إليه كشمير ليس الانضمام إلى الهند ولا الانضمام إلى باكستان ولكن (تحييد كشمير بالاتفاق بين الهند وباكستان وبضمانة هيئة الأمم وتحت قوات مشتركة من الدول الآسيوية الإفريقية المحايدة.. إن الغالبية العظمى، ترفض الانضمام للهند، وقد فقدت ثقتها نهائيًا فى الهند وهى ترفض باكستان.. لأن مصير شعب كشمير الذى بقى فى باكستان لم يكن أحسن حالاً ممن بقوا فى الهند).

وفى هذا تكمن كل المشكلة..

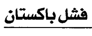
لقد ترك خط إيقاف أطلاق النار ثلاث أخماس كشمير فى الهند والخمسين الآخرين فى باكستان.. ولو كانت باكستان قد حققت فى الخمسين اللذين بقيا فيها (حكومة إسلامية عصرية تقدمية تضمن لمسلمى الهند حماية وتطوير عقيدتهم وثقافتهم، كما كان هدف باكستان.. لو كان هذا قد حدث، لكانت مشكلة كشمير قد حلت، ولكان الثلاثة الأخماس الباقون قد فرضوا إرادتهم وأكدوا رغبتهم فى الانضمام إلى باكستان.

ولو كانت الهند قد حققت فى (ثلاثة أخماس) كشمير الواحة الديموقراطية العلمانية

الاشتراكية تطبيقًا لمبادئ حزب المؤتمر الوطني الكشميري وحزب المؤتمر الهندي عامة..
ولو لم تقم الهند في كشمير حكمًا استبداديًا فاسدًا قائمًا على (المدفع والذهب) طوال أحد عشر عامًا، ورغم أنف شعب كشمير كله لكان (الخمسان) اللذان بقيا في باكستان، قد فرضوا إرادتهم وأكدوا رغبتهم، وانضموا إلى الهند..

ولكن الهند نفسها لم تكن لتستطيع هذا، لأن الهند نفسها تجربة فاشلة، وفاقد الشيء لا يعطيه.. وباكستان تجربة أشد فشلاً لم تحقق لنفسها شيئًا تحققه لكشمير ومن هنا تبدأ القصة.





فشل باكستان



قسمت الهند لأن أغلبية المسلمين هناك بقيادة محمد على جنة آمنوا بأنهم ليسوا مجرد أقلية، ولكنهم أمة ، وشعب كامل يملك كل مقومات الشعب، وله كل الحق فى تقرير مصيره، له الحق فى أن يحصل على وطن، وأن ينشىء فيه دولة جديدة إسلامية، دولة عصرية ثورية يستطيع أن ينمى فيهاحياته وحضارته وتكون استمرارًا لتاريخ وتراث ألف عام من الإسلام فى الهند وألف وأربعمائة عام من الإسلام فى العالم..

تكون هذه الدولة الجديدة طليعة ثورة فى حياة الشعوب الإسلامية، والحضارة الإسلامية كاملة كما تخيلها فيلسوف الإسلام الكبير، والأب الروحى لفكرة باكستان محمد اقبال، وكما تخيلها الفلاسفة والثوار المسلمون.. من أبى ذر الغفارى حتى جمال الدين الأفغانى..

ولم يكن محمد على جنة مؤمنًا بأن الهند وطن للجميع ، وأن الدين لله ، أى أن الهند وطن للجميع، وأن الدين لله ، أى أن الهند وطن لأديان متعددة، ولأقليات متعددة، ولثقافات متعددة ، ولغات متعددة ولكن كلهم مواطنون هنود، ويجب أن يكونوا مواطنين هنودًا وأن يتعلموا كيف يعيشون معًا وكيف يؤمنون جميعًا بوطنهم. وهذاالتنوع يجعل الهند بلد التسامح، وبلد التنوع والخصب، وبلد التفاعل والامتزاج الناضج المثمر.

وكان جنة يؤمن أن قاعدة التناسق والتكامل بين كل عناصر الأمة الهندية المختلفة ، هو التفاهم بين الأغلبية أى الهندوس، وبين الأقلية الرئيسية أى المسلمين ، وإذا ما تحقق هذا فإن الأقليات الآخرى ستجد مثلاً ، ونموذجًا تحتذبه.

ولهذا صب محمدعلى جنة كل جهود حياته فى تحقيق هذا الحلم، كأساس لوحدة الهند، ولتقدمها وتحررها.

وكانت شاعرة الهند الكبيرة ، ساروجينى نايدو، عندليب الثورة الهندية كما يسمونها تتغنى (بمحمد على جنة) وقد أطلقت عليه لقب سفير الوحدة بين الهندوس المسلمين.

وقد كان محمد على جنة محاميًا ذا عقلية قانونية دستورية عصرية، وكان سياسيًا. على الطراز الإنجليزى يؤمن بالكفاح الدستورى القانونى فى إطار قيم ومبادئ وتنظيمات معينة ، وكان محمد على جنة عضوًا بارزًا فى حزب المؤتمر الهندى، وكان أيضًا عضوًا بارزًا فى الحزب الآخر وهو العصبة الإسلامية.

وكان يرى أن الهند سوف تحصل على حقوقها عن طريق الكفاح السياسى الدستورى. عن طريق مجادلة ومقاومة وإقناع البريطانيين . ولكن فى إطار الحزبين القائمين، وتنسيق العمل بينهما وبفضل محمد على جنة استطاع الحزبان أن يعقدا اجتماعا مشتركًا سنة ١٩١٦.

وسار التاريخ الهندى عبر طريق آخر.

وفى سنة ١٩١٩ ظهر على مسرح السياسة الهندية (غاندى) ظاهرة جديدة فريدة ، أعلنت بدء مرحلة أخرى غيرت كل شىء فى حياة الهند.

كان غاندى يرى أن تحقيق حرية الهند. لن يتم عن طريق (المرافعات) البليغة والحجج المقنعة على موائد المفاوضات أو داخل الغرف المغلقة . ولكن عن طريق إثارة جماهير الهند الضخمة بلا عدد.. أى إيقاظها من نومها العميق، وتبديد يأسها وخوفها، ورد ثقتها بنفسها، وبقدرتها على استعادة حقوقها..

ولكى يحقق غاندى هذا، ارتدى ثياب فلاح هندى فقير، وابتدع اسلوبًا ولغة روحية تنفذ إلى روح الفلاح وتلمس أعماقه، وتحول يأسه إلى صمود، وضعفه وتخاذله إلى مقاومة..

كان غاندى هندوكيًا متدينًا، ولكنه استنبط لغة روحية مشتركة، تلمس قلوب ونفوس، المسلمين والمسيحيين، والبوذيين.. والبارسيين (عباد النار) وكل ديانات الهند..

وأعلن غاندى أن الهنود يستطيعون أن يقهروا الاستعمار، إذا ما قهروا أنفسهم وسيطروا عليها،وإذا ما قاوموا البريطانيين بلا عنف ، مقاومة إيجابية ، ولكن سلمية، وذلك

بعدم التعاون معهم ، وبعصيان قوانينهم، ورفض بضاعتهم، والصمود أمام قوتهم وقسوتهم..

وكان هذا شيئًا غريبًا ، لم يفهمه جنة، ولم يقبله ، قال إن هذا رجوع إلى الوراء.. إنه العودة إلى الغيبيات والصلوات.. إنه حركة بعث وإحياء دينى هندوكى ، سترجع بالهند، إلى عصر الخرافات والأساطير، وستمنع قيام الهند العصرية الدستورية العلمانية التى تسع جميع الديانات والمعتقدات، ولكن تعتمد أساسًا على العلم والعقل.. وتساير روح العصر..

وهكذا لم يفهم محمد على جنة، الظاهرة الجديدة والقيادة الجديدة، التى تدعى غاندى واعترض عليها.. وربما كان هذا أخطر حدث فى تاريخ الهند الحديثة..

ولم يسلك ضعفاء المسلمين فى الهند نفس مسلك (جنة) بل لقد انضموا جميعًا وراء غاندى، وإلى حزب المؤتمر، وكان من أقوى أعوانه.. وإذا كانت هذه صدمة لكبرياء جنة ،وكان يتمتع بقدر كبير منه ، فقد آثر أن يترك الهند كلها، وأن يذهب ليعيش ويعمل فى بريطانيا.. لقد سارت الهند كلها، هندوكيين ومسلمين، وبارسيين وراء غاندى.. ولم يعد له ولآرائه مكان.. لم يعد يستطيع أن يكون فى الصدارة ، ولهذا سافر ليعلن احتجاجه بطريقة مهذبة.. جنتلمانية).

ولكن لم يمض قليل على الكفاح، وعلى تحقق هذه الوحدة الروحية والقومية، التى قضى الاستعمار مائتى عام فى تحطيمها.. حتى بدأت تتداعى وتتزعزع أركانها..

لقد ذهل البريطانيون ، لأن رأوا الهند كلها، جماهير وقادة تتبع هذا (الفقير العارى) وذهلوا أكثر لأن تتبعه الأقلية الرئيسية التى ظلوا منذ أواخر القرن التاسع عشر يعتقدون أنها عماد حكمهم وبقاؤهم فى الهند..

وذهل البريطانيون لأن هذه الأقلية كانت أشد ثورية وحماسًا من كل أهل الهند وأنها قدمت زعماء، انبثقوا كأعظم أبطال هذا الكفاح وأشدهم حرارة وقوة، الأسماء التى أصبحت جزءً لا يتجزأ من تاريخ الثورة الهندية. محمد على وشوكت على.. والدكتور الأنصارى وحكيم أجمل خان.. وأبو الكلام أزاد.. وآصف على ورفيع كداوى.. وغيرهم.

وأدرك البريطانيون أن بقاءهم فى الهند يعتمد فى هذه المرة، كما اعتمد بعد ثورة سنة ١٨٥٧ على تقويض الوحدة القومية بين المسلمين والهندوك وبدأوا العمل بهمة..

ولم ينجحوا تمامًا، ولكنهم لم يفشلوا أيضا..

وقد ساعدهم أن أخذت تنمو فى داخل حزب المؤتمر اتجاهات بعث هندوكى حقيقى،

يعلن أن (الهند للهندوكيين) وحولوا اليقظة والتجدد الروحى إلى تعصب دينى ، كان رد فعله على الفور نشأة اتجاه مماثل له بين المسلمين داخل حزب المؤتمر وخارجه.. وساعد البريطانيين أيضًا أن العناصر البورجوازية داخل حزب المؤتمر. وكان أغلبها من الهندوكيين وهم أكثر ثروة وثقافة من المسلمين، بدأوا يفصحون عن نواياهم فى جعل الحركة الوطنية كلها أداة لتحقيق طموحهم.. والتفاهم مع البريطانيين حول (سوق الهند) و(سلطة الحكم) فى الهند!.

وبدأ صراع طويل داخل حزب المؤتمر حول حقوق المسلمين ومطالب المسلمين.. انتهى بخروج عدد من زعماء المسلمين، وبخمود حرارة عدد منهم أو خيبة آمالهم. ولكن مع هذا استطاع غاندى ونهرو.. أن يحفظا الغالبية العظمى من قادة وجماهير المسلمين داخل حزب المؤتمر..

كان غاندى ونهرو يدركان أنه بغير كسب المسلمين لن يمكن تحقيق حرية الهند ، وكانا ينظران بإعجاب لما حققته الثورة المصرية سنة ١٩١٩ من وحدة المسلمين والأقباط فى مصر ويريدان تحقيقه فى الهند.

وكان غاندى ونهرو يحاربان فى جبهات كثيرة داخل حزب المؤتمر وخارجه لتحقيق هذا الهدف الكبير.

ولهذا ظلت الوحدة قائمة ولكن قلقة، تهب عليها الريح عاتية عاصفة من ثلاث جهات الاستعماريين البريطانيين ، والمتعصبين الهندوكيين والمسلمين، وتختفى وراءهم مصالح الرأسماليين والإقطاعيين الهندوكيين والمسلمين..

وتطورت الأحداث خارج الهند وداخلها.

أعلن غاندى جولة ثانية من المقاومة السلمية والعصيان المدنى فى ثلاثينيات هذا القرن انتهت بمؤتمر مائدة مستديرة ومفاوضات طويلة معقدة لم تنته إلى شىء..

واقترن هذابظهور الفاشية وقيام هتلر فى أوروبا.. والعسكرية اليابانية فى آسيا، وبداية تحالف الاثنين لتقسيم العالم من جديد خصوصًا آسيا وافريقيا.

وأعلنت بريطانيا دستور سنة ١٩٣٥ للحكم الذاتى فى الهند البريطانية.. وهو دستور يمنح التنازلات المحدودة التى يمنحها عادة الاستعمار البريطانى حينما يدرك أن لا مخرج..

وفى عام ١٩٣٧ أجريت الانتخابات وفق الدستور، لإقرار هذا الحكم الذاتى.. واكتسح حزب المؤتمر هذه الانتخابات فى كل الولايات.

طاف جواهر لال نهرو الهند، شبراً شبراً، وأشعل جماهير الهند، كما لا يستطيع أن يشعلها سواه.. وكانت الانتخابات. نصراً ساحقاً كاسحاً لحزب المؤتمر..

وتولت حكومات من حزب المؤتمر الحكم فى ولايات الهند البريطانية وفق هذا الدستور لأول مرة فى تاريخ الهند منذ الاستعمار. كانت أول تجربة فى حكم الهنود لأنفسهم.

وأعلن نهرو مزهواً أن فى الهند قوتين (حزب المؤتمر والاستعمار البريطانى) وأن التاريخ طبعاً مع القوة الأولى.. ارتفع صوت يقول (لا.. هناك قوة ثالثة هى المسلمون) كان هذا صوت محمد على جنة.. لقد عاد من منفاه الاختياري سنة ١٩٣٥ ، قبيل صدور هذا الدستور المحدود .. وعاد بناء على طلب عدد من المسلمين لكى يترشدوا به فى المرحلة الجديدة من تطور الحركة الوطنية فى الهند..

وربما كانت عودته ، لأنه استشعر أن الهند سوف تنتهى إلى ما كان يريده وهو الحصول على حقوقها الدستورية بالطريق السلمي التدريجي ، وأنه فى إطار هذا الحكم الجديد سوف يكون له دور يلعبه ، بمواهبه السياسية والقانونية..

وكانت دعوته من خلال أيام عودته الأولى هى للوفاق التام بين المسلمين والهندوس.. ولكنه لم يجد مكاناً له فى حزب المؤتمر، ولهذا عمل مع العصبة الإسلامية..

وحينما اكتسح حزب المؤتمر الانتخابات وأعلن نهرو كلمته المشهورة كان لابد وأن يعترض (جنة وإن كان اعتراضه قد بقى مجرد اعتراض (أكاديمى)..

ومن خلال حكومات حزب المؤتمر فى الولايات وقع التغيير الحاسم الذى بدأت منه المأساة..

أحست جماهير المسلمين فى الهند أن حكم حزب المؤتمر.. ليس حكماً نزيهاً غير متحيز، ولكنه حكم مسخر لصالح الأغلبية وعلى حساب الاقلية، وأخطر من هذا أحس أكثر المثقفين المسلمين والتقدميون منهم على الأخص ، أن حكم حزب المؤتمر هوحكم بورجوازى..هندوكى مسخر لحساب الرأسمالية الهندوكية ، التى لا تحجم عن استغلال الدين..

وأحسوا أن مبادئ غاندى ونهرو.. هذه هى الواجهة التقدمية، أما السلطة الحقيقية والسياسات العملية فيملكها ويوجهها الرأسماليون الهندوكيون.

إن الهند المستقلة لن تكون دولة ديمقراطية علمانية اشتراكية كما يريد نهرو، ولكن سوف تكون دولة رأسمالية هندوكية، كما يريد باتل وبيرلا..

وبدأ تحول حاسم آخر..

وبدأت هجرة كبرى من حزب المؤتمر إلى حزب العصبة الإسلامية..

ولابد من كلمة عن الحزبين..

انشئ حـزب المؤتمر الهندى سنة ١٨٨٥ وأنشـأه بريطانى يدعى (هيـوم) وذلك لكى يمتص السخط الذى بدأ يظهر فى صفوف الطبقة الوسطى والعليا الهندية.. والذى بدأ يقلق الإنجليز.

وكان انتشار الحزب ، وانضمام أفراد هذه الطبقات إليه، يمكن الإنجليز من معرفة التيارات المختلفة فى المجتمع لفكر الهندوكى، فيستطيعون توجيهها أو تشتيتها..

ولكن مـا لبث هذا الحزب أن بدأ يضطرم بتيارات زادت من قلق الإنجليز، هو وإن لم يخرج عن دائرة الولاء المطلق للإمبراطورية والرغبة فى الوصول إلى الحكم الذاتى بالتدرج وتحت رعاية ووصاية بريطانيا، إلا أن تيارات أخرى (متطرفة) بدأت تظهر وتحتل مكانًا فيه..

ورأى البريطانيون أن يلجأوا مرة أخرى إلى تطبيق جديد لسياستهم التقليدية وهى التفرقة بين الهندوس والمسلمين..

وفى سنة ١٩٠٦ أنشأوا بزعامة أحد رجالهم الأقطاب وهو (أغاخان) حزب العصبة الإسلامية ليمثل حقوق ومطالب المسلمين.. وضم هذا الحزب الاقطاعيين والموظفين الكبار المسلمين وكان ينافس حزب المؤتمر فى تأكيد ولائه للإمبراطورية وتطلعه فى مدى بعيد إلى الحكم الذاتى..

وكلما تطرف حزب المؤتمر، دب النشاط فى حزب العصبة الإسلامية، والعكس صحيح.. وبدأ بعض (العقلاء) والوطنيين فى الحزبين يدركون أن البريطانيين يلعبون بالحزبين، وأن لابد للقوى المستنيرة فى الحزبين من تنسيق سياستها وقوتها، وكان من أقطاب هذا الرأى (محمد على جنة) وبفضل جهوده عقد الحزبان اجتماعًا سنويًا مشتركًا فى (لنكاو) سنة ١٩١٦.

وبظهور غاندى، وتحول حزب المؤتمر إلى حزب جماهيرى للثورة الوطنية الهندية، انضمت كل العناصر الوطنية والمستنيرة من كل الأقليات إلى الحزب..

وظل حزب العصبة الإسلامية مجرد تنظيم أجوف خاو، الاقطاعيين والامراء المسلمين والموظفين والضباط المتقاعدين.. ويمثل أقوى القوى الرجعية المتعاونة فى الهند..

وبدأ التغير يدب فى الحزب حينما عاد محمد على جنة إلى الهند سنة ١٩٣٥، ولم يكن صعبًا ولا غريبًا أن يصل إلى قيادته بعد قليل من رجوعه..

ولكن التغير التاريخى حدث بعد هجرة المثقفين والطبقة الوسطى المسلمة إلى حزبة بعد حكومات حزب المؤتمر الأقلية سنة ١٩٣٧.

ولقد كان تناقضًا أن يهاجر هؤلاء الثوريون الوطنيون. التقدميون إلى حزب الإقطاع والبروقراطية والتعاون مع الاستعمار، ولكنهم رأوا أنهم يستطيعون الاستيلاء على هذا الحزب، وطرد أو تصفية هذه العناصر، وتحويله إلى حزب ثورى شعبى يكون قائده محمد على جنة، وهو رجل يجمع بين الإسلام والوطنية وروح العصر ويكون فيلسوفه اقبال، وهو الذى وفق بين الإسلام والتقدم إلى أبعد حدود التقدمية، وتكونت قاعدة الجماهير الإسلامية، المتعطشة إلى استرداد حقوقها وحرياتها، ومجدها وتراثها.. ليكونوا هم قياداته وضمانات مثله ومبادئه..

وهم بذلك يستطيعون تحقيق حلم (باكستان) دولة تضم المقاطعات التى تحوى الغالبية العظمى من الهند، ومن بينها مقاطعات من أهم وأغنى وأجمل ولايات الهند مثل البنجاب والبنغال وكشمير، وسوف ينشئون فيها دولة جديدة ثورية تقدمية اشتراكية إسلامية، تفوق ما سوف يحققه البورجوازيون الرأسماليون الهنود، وتضرب مثلاً فى الديمقراطية والتسامح والثورة الاجتماعية، وترتبط بكل الشعوب الإسلامية الثائرة وبكل التحررية فى العالم..

ومنذ ذلك التحول.. أصبحت (باكستان) حقيقة وأصبح تحقيقها مجرد خطوات..

وتحققت بالفعل فى ١٥ من أغسطس سنة ١٩٤٧.

ولكن منذ تحققها بدأ الصراع التاريخى فى داخلها.. صراع عنيف بين رجال العصبة الإسلامية القدامى.. وهؤلاء كانوا يريدون باكستان لكى يحافظوا على ثرواتهم الشاسعة وعلى سلطة الحكم التى تمتعوا بها طويلاً وعلى ولائهم الذى قارب العقيدة للبريطانيين وبين القادة (الجدد) نسبيًا الذين كانوا يريدون تحقيق دولة إسلامية ثورية جديدة.

وبعد أشهر من قيام باكستان مات (محمد على جنة)، (القائد الأعظم) كما يسمونه.. والرجل الذى قامت على أكتافه باكستان.. وكان موته ضربة قاصمة للاتحاد الثانى فى باكستان فقد كان يحميه ويؤيده ،وبعد موته بدأت المؤامرات لتصفية هؤلاء (المشاغبين) ولضم باكستان إلى السياسة الغربية والانحياز للكتلة الغربية، وكانت الحرب الباردة فى ذلك الحين على أشدها ، وهذه الكتلة تبحث عن قواعد، لصد لحركات الوطنية والثورية قبل صد الشيوعية!..

وأدركت القوى الثورية و التقدمية أن لابد لها من عمل حاسم..

وتجمع الضباط بقيادة الجنرال (أكبر خان) وكان الجيش الباكستانى الجديد ينقسم إلى الضباط التقدميين بقيادة (أكبر خان) وضباط الجيش البريطانى بقيادة (أيوب خان) وتجمع معهم المثقفون (الثوريون) الباكستانيون بقيادة (فايز أحمد فايز) شاعر باكستان الكبير، وقرروا القيام بانقلاب عسكرى يحمى (الثورة الباكستانية) من الوقوع فى يد الإقطاعيين والغرب.. واكتشفت هذه المؤامرة .. خانها أحد المشتركين فيها وقضى عليها قضاء قاسيًا وشتت جميع من اشتركوا فيها..

ولولا تدخل (لياقت على خان)رئيس الوزراء فى ذلك الحين، لقضى عليهم جميعًا بالإعدام.. وكان (لياقت على خان) يقف فى منتصف الطريق بين الاتجاهين ويريد أن يوفق ويوازن حفظًا لبقاء باكستان..

وبعد أشهر قليلة فى سنة ١٩٥١.. قتل (لياقت على خان) فى جريمة غامضة لم يظهر مدبرها حتى الآن.. ولا زالت مئات من علامات الاستفهام تحيط بها.

وبموت (لياقت على خان) سقطت باكستان نهائيًا فى يد الغرب وعملائه العريقين.. الذين خدموا الإمبراطورية البريطانية بتفان عظيم طوال ما يقرب من قرنين من الزمان. فقط.. حولوا شيئًا من ولائهم إلى إمبراطورية أغنى هى الإمبراطورية الأمريكية .. وتحول حزب العصبة الإسلامية مرة أخرى إلى عصابة تريد نهب وسلب كل ما تستطيع نهبه وسلبه وبيع كل ما تستطيع بيعه من باكستان..

وأصبحت باكستان قاعدة لحلف بغداد ولحلف جنوب شرقى آسيا..

وأصبح الإسلام أداة لتبرير أى شىء وكل سياسة خائنة ساقطة..

وانحدرت باكستان من هاوية إلى هاوية أعمق حتى وصلت إلى الحضيض سنة ١٩٥٨.

وادرك السادة الذين يتصرفون فى أقدار باكستان أن لابد من تغيير (الطاقم) الحاكم.. إن السياسيين قد استهلكوا أنفسهم فى الفساد والاستغلال.. وقرروا استدعاء العسكريين للحكم.. وقامت بذلك حكومة أيوب خان..

فشلت باكستان.. وهى منذ البداية ولدت ولادة صعبة.

كان (محمد على جنة) وكان قادة المسلمين يحلمون بأن تضم باكستان ولاية البنجاب كاملة وولاية البنغال كاملة.. ولم يخالجهم شك فى أنها ستضم كشمير (جوهرة الهند) كلها..

ولكن قسمت البنجاب وأصبح نصفها فى الهند ونصفها فى باكستان، وقسمت البنغال تقسيمًا أقسى، ولم تذهب كشمير إلى باكستان.. بل بقيت فى الهند..

أصبحت باكستان دولة يفصل بين جناحيها ألف ميل من أرض الهند ولهذا سماها محمد على جنة نفسه (باكستان مبتورة، متآكلة) ليست طبعًا حلمه ولا حلم اقبال ولا حلم الثوار المسلمين.

ولم تستطيع باكستان أن تسع كل مسلمى الهند فقد بقى عدد كبير منهم فى الهند، وفى حزب المؤتمر بقى عدد من الذين ظلوا على إيمانهم بوحدة الهند وبمبادئ غاندى ونهرو، وبأن الهند ستخرج كدولة علمانية ديمقراطية.. تسع جميع أبنائها..

وبقى فى الهند أربعون مليون مسلم فى أرجاء متفرقة من الهند، ولم تستطع أن تضم باكستان ولم يكن ممكنًا أن تضمهم..

بل وبقى فى باكستان عشرة ملايين هندوكى لم يستطيعوا أن يغادروا مواطنهم التى عاشوا فيها هم وأجدادهم آلاف السنين.

وحينما تم تقسيم الهند لم يتم بهدوء أو باتفاق ودى بين زعماء الحزبين الرئيسين ولكنه تم فى جو مكهرب مشحون، بالصراع والعداء، ما لبث أن سال بحر من الدماء، لا مثيل له لرهبته وبشاعته، وذبح وقتل وشوه ملايين من الرجال والنساء والأطفال..

وبعد التقسيم ببضعة أشهر نشبت الحرب بين الدولتين.. فى ولاية (كشمير) وكادت تتحول إلى حرب شاملة من الدولتين اللتين كانتا من قبل دولة واحدة.. لولا أن تدخلت هيئة الأمم وتقرر إيقاف اطلاق النار..

ومن يومها تعيش الدولتان فى حالة حرب..

الهند تنفق نصف ميزانيتها على التسلح.. ضد باكستان.. والباكستان تنفق ثلثى ميزانيتها على التسلح ضد الهند.. وشعبا البلدين يتضوران جوعًا.. ولا زال بعد سبعة عشر عامًا من الاستقلال.. يعانيان أحط مستوى معيشة فى العالم.. باختلاف لا يذكر لصالح الهند.

فشل الهند

بعد استقلال الهند وتقسيمها، أعلن الزعماء الهنود بقيادة غاندى ونهرو، أنهم لم يوافقوا على تقسيم الهند إلا اضطرارًا، لأن الهند لم تكن لتحصل على حريتها إلا بإرضاء العصبة الإسلامية ولكنهم لم يوافقوا ولم يعترفوا مطلقًا بنظرية (الأمتين).

وأعلن زعماء الهند أن باكستان، أصبحت دولة ولها الحق أن تتصرف كما تشاء ، ولكنهم هم، زعماء الثورة الهندية، سيبنون دولتهم وفق المبادئ التى قامت عليها ثورتهم..

منذ البداية ، والتى لا يمكن أن يتخلوا عنها.

وتستطيع باكستان أن تبنى دولة دينية، ولكن الهند سوف تبنى دولة علمانية، أى دولة (محايدة) دينيًا، تكفل الحرية لكل الأديان والعقائد، بالتساوى وبلا تحيز، وبما لا يضر بحرية الآخرين أو بالنظام العام.

وتستطيع باكستان أن تبنى دولة اقطاعية أو رأسمالية ولكن الهند سوف تبنى دولة اشتراكية لا يقف فيها الاستقلال عند حد طرد المستعمر ولكن يمتد إلى بناء مجتمع جديد، يختفى فيه الاستغلال والفروق الطبقية الفاحشة.

وتستطيع باكستان أن تتبع سياسة منحازة أو غربية، ولكن الهند ستتبع سياسة جديدة هى الحياد الإيجابى.. سياسة تحفظ حريتها وذاتيتها وتجمع حولها كل الدول الجديدة، لتحفظ السلام، ولتفرض إرادتها على الحياة الدولية التى تخرج إليها للمرة الأولى.

ولم تطرب الجماهير الهندية وحدها لهذا ،بل طربت له كل شعوب آسيا وافريقيا .. إن تجربة جديدة عظيمة سوف تبدأ، وسوف تكون المدرسة والمنارة للشعوب جميعًا..

وبدأ التطبيق..

وشتان بين ما أعلن وما تحقق.

لم تكن إقامة دولة علمانية فى الهند، ليمكن أن تتحقق بمجرد النوايا الطيبة أو بنصوص الدستور، وإنما كانت إقامة هذه الدولة تتطلب ثورة اجتماعية جذرية تقضى على الأسس الاقتصادية والاجتماعية للطائفية والتعصب الطائفى، كما تتطلب ثورة روحية وثقافية جذرية ، تجدد وتصلح وتوفق بين الأديان العديدة، والمذاهب العديدة، والمعتقدات العديدة التى تزخر بها الهند.

والطائفية والتعصب الطائفى، ظاهرة استشرت فى الهند، بمجئ الاستعمار ، وقد كانت حياة الهند وتاريخ الهند قبل الاستعمار، يتميز عامة بالتسامح وقد أراد الإمبراطور (أكبر) ذات يوم أن يخلق دينًا واحدًا جديدًا، يجمع خلاصة أديان الهند ويعتنقه شعبها كله، وكان الهندوسيون يخدمون فى بلاط المسلمين، والمسلمون يخدمون فى بلاط الهندوكيين، بلا تعصب ولا مذابح.

وحينما استولى البريطانيون على الهند، وتطبيقًا لسياسة فرق تسد، بدأ حفر أخاديد عميقة من التعصب بين كل الأديان، بل بين المذاهب المختلفة من الدين الواحد.. ولكن عماد هذه الحرب الطائفية كان الهندوس الذين يكونون الأغلبية، والمسلمون الذين يكونون الأقلية الرئيسية والذين انتزع منهم الإنجليز حكم الهند بعد ما يزيد عن ألف عام.

وقد كان عملاء الإنجليز، من المهراجات الهندوكيين أو الأمراء المسلمين ، يدعمون هم بدورهم هذه السياسة. وكان أكثر المهراجات يدعون أنهم من سلالة الآلهة ، وأنهم يحفظون مجد وتراث الهندوكية، وكان كثير من الأمراء المسلمين، يدعون أنهم (أشراف) من سلالة النبى محمد وأنهم يحفظون مجد وتراث الإسلام.

وكان البريطانيون يضعون أحيانًا أميرًا مسلمًا على ولاية أغلبيتها هندوكية، أو أميرًا هندوكيًا على ولاية أغلبها مسلمة كما حدث فى ولايتين من أهم ولايات الهند هما حيدر أباد وكشمير، لضمان تنفيذ هذه السياسة.

وإذا ما ثارت الجماهير فى ولاية من الولايات أعلن المهراجا أن الهندوكية فى خطر أو أن الإسلام فى خطر فتتحول المعركة إلى مذابح.. ويظل الضحايا يضمدون جراحهم زمنًا طويلاً.. وينسون كل ما عداها.

وقد استعار الرأسماليون هذه الأسلوب أيضًا، واستخدموه فى سعيهم للسيطرة على سوق الهند وعلى مواردها.. وإذا ما سرى قلق أو سخط بين العمال.. أو تقدموا بمطالب.. افتعل الرأسماليون معركة أو مذبحة بين العمال المسلمين والهندوس يظل بعدها (السلام) الصناعى سائدًا لمدة طويلة ويظل العمال كل متحفز للثأر من الآخر.

ولهذا كانت إقامة الدولة العلمانية ، تقتضى أولاً تصفية (أوكار) التعصب ، وهى الإقطاع والرأسمالية فقد أثبت تاريخ الهند كله أن ليس هناك ما يوجب الصراع مطلقًا بين الفلاحين والعمال والتجار الصغار وكل الطبقات المضطهدة فى الهند .. وأنها عاشت وتستطيع أن تعيش فى وئام ما لم تسخر لخدمة مصالح استغلالية أو استبدادية.

وقد قسمت الهند بعدما سمى (مجزرة التاريخ العظمى) ولهذا لم تكن (العلمانية) لتتحقق بعد هذا الواقع المر. إلا بجهد صادق كبير.. لا يضمد فقط الجراح العميقة، ولكن يزيد أثرها ، وما حفرته فى جسد الأمة قلبها.

كان هذا يقتضى ثورة روحية وثقافية، يقتضى تغيير نظم التعلمى تغييرًا جوهريًا، ويقتضى بعث التراث الاصلاحى، فى كل الأديان، والهندوكية دين حفل تاريخه بالمصلحين الذين أرادوا تجريده من الخرافات ليلائم روح العصر ، والإسلام فى الهند حفل بعدد كبير من المفكرين والمصلحين كان من أهمهم وأعظمهم (أبو الكلام آزاد) وكان لابد من تجديد الفكر الدينى والثقافى للهند كلها، وخلق تعايش وتناسق ، عقلى وروحى يعمق التعايش والتناسق الاجتماعى والسياسى.

ولم تكن هذه بالمهمة السهلة ولا بالبسيطة فقد كانت تقتضى أفقًا واسعًا وحبًا، وعقولا

كبيرة خلاقة.. ولكنها لم تنقص الهند، ولم يكن هناك طريق آخر أمام الهند.

ولكن العلمانية فى الهند بقيت قشرة على السطح مجرد نصوص ، ثم بضعة مناصب ووظائف تمنح للأقليات لتثبت تحرر الهند وعلمانيتها. ولكن داخل الهند وقلبها، ظل يزخر (بالصديد) ويتفجر بين حين وآخر، مما كان يجعل نهرو يصيح قبل موته بأسابيع (أن ما يحدث يجعلنى أشعر بالعار والخزى).

وأعلنت الهند أنها سوف تقيم دولة ديمقراطية برلمانية.. كأحدث ما تكون الديموقراطية البرلمانية.

وأقامتها بالفعل..

وقد كان نجاح الديمقراطية ، وكانت ثقة الهند بقدرتها على إقامة الديموقراطية، قائمة على الثقة بحزب المؤتمر.

وكان هذا هو حزب الأغلبية وأقدم أحزاب الهند ويضم كل الطبقات الوطنية فيها، وكان نجاح الديموقراطية يعتمد على قدرته على أن يطور نفسه مع حزب يستطيع أن يبنى الهند الجديدة وأن يحقق لشعب الهند كل أمانيه من الاستقلال.

وكان نجاح الديموقراطية فى الهند يقوم على قدرة حزب المؤتمر على أن يكون العمود الفقرى المتجدد المتطور لهذه الديموقراطية ، ولحياة الهند الجديدة كلها.

وكان حزب المؤتمر جبهة عريضة ملاكا ورأسماليين ومثقفين وعمالاً وفلاحين، وبعد الاستقلال كان لابد من أن ينتهى هذا الحلف وأن يختار حزب المؤتمر أن يكون إما حزب الملاك والرأسماليين وإما حزب العمال والفلاحين.. أو على الأقل أن تكون القيادة لهؤلاء أم للآخرين.

ومـا حـدث هو أن نجح الملاك والرأسـمـاليـون واسـتـولوا على الحـزب ، وانشق عنه الاشتراكيون ، وأراد نهرو أن يوفق وأن يحفظ للحزب وحدته.. ولكن هذاالتوفيق كان سر قصور وضعف سياسات نهرو. وفى ظل حزب المؤتمر، وهو أخطبوط طويل (عاجز) يمتد من أقصى الهند إلى أقصاها، ربما كان من الصعب أن ينمو حزب للمعارضة يستطيع أن يكون البديل أو أن يقدم البديل، خصوصًا وأن هذا الحزب كان فى السلطة، وأنه قد بقى فيه جناح يسارى ، وأن زعيمه كان نهرو.. وأن الجماهير ظلت بغالبيتها فيه لم تستطع أن

(*) إشارة إلى خسارة الحزب الشيوعى الصينى للإنتخابات فى ولاية (ليراك) التى كانت معقلاً أساسياً للحزب، وذلك بعد الحرب الصينية - الهندية .

تدرك متناقضات حزب الحركة الوطنية وحزب غاندى ونهرو.

ولهذا أصبحت الديموقراطية الهندية قائمة على حزب أغلبه راكد عاجز، لا تظهر قوته ولا تبرز إلا فى كسب الانتخابات، واحزاب أخرى صغيرة تشتت وتبددت وتاهت فى البيداء..

الاشتراكيون الذين انشقوا عن حزب المؤتمر ليكونوا جبهة تقدمية ثورية ، تفتتوا إلى احزاب صغيرة ، وانحرفوا إلى تأييد الكتلة الاستعمارية ومناصرة الغرب.

والشيوعيون الذين تخبطوا كثيراً، استطاعوا أن يصلحوا من شأنهم، وأن يبدو كأنهم الحزب الثاني، ولكنهم تبعثروا، وانشقوا على بعضهم مرة أخرى حتى قال البعض منهم إن حزبهم قد انتهى.

ولهذا ضاع الركن الأول والرئيسى لقيام الديموقراطية وهو قيام أحزاب قوية ذات مبادئ وبرامج ومنظمات، تقدم حلولاً للمشاكل الرئيسية والجوهرية وتستطيع خوض المعارك السياسية والدستورية على نطاق الأمة كلها.

على أن نجاح الديموقراطية فى الهند. لم يكن يعتمد على قيام نظام حزبى سليم فقط، بل كان لابد له أولاً من تصفية العقبات أمام إقامة مثل هذا النظام.. تصفية الطوق الحديدى الاستعمارى الذى حكمت به بريطانيا الهند..

وقد قسمت بريطانيا الهند إلى قسمين، الهند البريطانية وهى التى تحكمها حكمًا مباشراً.

وولايات الهند التى تحكمها حكمًا غير مباشر عن طريق الأمراء والمهراجات وعددهم ٥٦٢. ولدى كل منهم مقيم بريطانى له حق (الفيتو).

وقد حكمت بريطانيا الهند البريطانية، عن طريق البيروقراطية (الإنجلو- هندية) وعن طريق البوليس. وكان لابد لإقامة الديموقراطية الهندية، من تصفية الحكم البيروقراطى البوليسى القديم، تصفية جذرية لكى تزدهر شجرة الديقمراطية ولكن لم يحدث هذا ، وبقيت هذه البيروقراطية، وبقى البوليس بروحهما وإجراءاتهما..ولهذا ظلت روح الشعب وقواه مختلفة.

وقد كانت أساليب الحكم فى الولايات أقسى وأفظع، معظمها كانت نظمًا من القرون الوسطى أو ما قبلها وكانت تصفيتها بل اجتثاثها تمامًا شرطًا رئيسيًا لقيام أى ديموقراطية ، ولكن الأمراء والمهراجات، وإن كانت قد صفيت إلى حد ما سلطتهم

(*) بلغ عددهم الآن مع الزيادة السكانية فى الهند حوالى مائة مليون مسلم .

السياسية، إلا أن عدداً منهم ظلوا حكاماً (دستوريين) وترك لهم القسط الأكبر من ثرواتهم وقصورهم، بل وعين عدد منهم فى مناصب السفراء ووكلاء الوزارات.. مما جعل نفوذهم المعنوى والمادى بارزاً- ولا يزال- خاصة فى الريف وجعل نمو الديموقراطية أو تفتح الجماهير للديموقراطية عسيراً..

وكان نجاح الديموقراطية فى الهند، يتطلب ولا بد قيام رأى عام مستنير فى الهند وكان هذا يقتضى ثورة ثقافية كاملة فى الهند، فقد كانت نسبة الأمية فى الهند هى أعلى نسبة فى العالم.. وكانت الصحافة والإذاعة وكل أجهزة الرأى والإعلام مسخرة لخدمة المصالح البريطانية ، وكان نظام التعليم الهندى، يهدف أساساً إلى إخراج موظفين هنود يخدمون الإدارة البريطانية لا مواطنين صالحين يخدمون وطنهم.

وكان خلق رأى عام مستنير يتطلب لهذا القضاء على الامية، ويتطلب نقل الصحافة والإذاعة لخدمة الشعب الهندى، ويتطلب تغييراً جذرياً فى نظم التعليم الهندى..

ولكن ظلت نسبة الأمية بتغير طفيف أعلى نسبة وانتقلت ملكية الصحافة مناصفة بين الرأسماليين الهنود، والرأسماليين الأجانب وتخبط نظام التعليم الهندى، تخبطاً أدى إلى أزمة عامة فى كل أجهزة التعليم خاصة الجامعات.

على أن الضمان الرئيسى للديموقراطية فى الهند ، كانت الثورة الاجتماعية فلا يمكن إقامة ديموقراطية برلمانية سليمة لشعب جائع عار.

وقد كا نهرو نفسه يقول (إن الديموقراطية لابد وأن تؤدى إلى رفع مستوى معيشة الشعب. وإذا لم تؤد إلى هذا فلا بد من البحث عن نظام آخر) بل وهذا البحث قد تقوم به الجماهير نفسها، إذا ما أحست أنها لا تحقق شيئاً فى ظل الديموقراطية.

وفى هذا الصدد أيضاً.. أى فى تحقيق الاشتراكية لم تحقق الهندسوى أضعف النتائج.

وقد كانت الهند تقيم تجربتها الاشتراكية فى قلب آسيا وعن شرقها الصين تقيم تجربة عظمى، وإلى شمالها الاتحاد السوفيتى، حيث أقام تجارب جذرية فى آسيا السوفيتية.

وكان على الهند أن تقيم تجربة تضارع هذه التجارب وتقدم نموذجاً خارج الكتلة الشرقية لإقامة الاشتراكية الديموقراطية، يكون مثلاً ، للدول الجديدة المحايدة.

وكان بناء الاشتراكية فى الهند لابد وأن يقوم أساساً على إرساء أسسها فى الريف حيث الغالبية العظمى للشعب الهندى وحيث طاف غاندى ونهرو به قرية قرية، وبذلوا الوعود العريضة للفلاحين، بان الاستقلال يعنى بالنسبة لهم الأرض والرخاء..

وكان الاستعمار البريطانى قد اعتمد فى تثبيت دعائمه وحكمه على الإقطاعيين ، وخلق نظماً معقدة بشعة للأرض والأستغلال الفلاحين، ولهذا كان تحقيق إصلاح زراعى ثورى، فى الهند، باختلاف نظم الملكية والاستغلال من ولاية لأخرى، يتطلب جهداً خارقاً ،ويتطلب دقيقاً.. ويتطلب ضربات قاصمة متتالية ، تكسر ظهر الإقطاعيين الذين تفننوا فى البطش بالفلاح وامتصاص دمائه..

ولم يحدث هذا، وخرجت قوانين الإصلاح الزراعى باهتة هزيلة، وإذا كان تطبيق هذه القوانين موكولاً للحكومات الأقليمية ، فقد عبث الملاك والإقطاعيون عبثاً كاملاً بهذا التطبيق ، حتى أصبح ضعيف الأثر فى حياة الهند كلها.

وقد كان بناء الاشتراكية فى الهند يتطلب أول ما يتطلب تأميم الرأسمال الاجنبى، أو تأميم قواعده الرئيسية، وحصر الباقى فى اضيق نطاق ، وقد كانت الهند هى المثل التاريخى لاستغلال واستنزاف الرأسمال الأجنبى، وكان اول ما يمكن أن يعنيه استقلالها. هو سحب الأرض من يد هذا الرأسمال.

ولكن الرأسماليين الهنود الذين كانوا يريدون الاعتماد على الرأسمال الأمريكى والبريطانى، والذين كانوا يريدون أن يجعلوا من الهند قلعة الرأسمالية فى آسيا.. اكتفوا بمشاركة الرأسمال الأجنبى مشاركة (عادلة) وفتحوا أبواب الهند ليدخل الرأسمال من كل جهة.. بل ولا تمضى مدة إلا وتذهب وفودهم تطرق كل باب (أجنبى) وتستجديه أن يذهب ليستغل الهند.

وكان بناء الاشتراكية فى الهند لابد وأن يعنى تأميم الرأسمال الهندى المستغل الكبير، ووضع خطة تنمية صارمة ، تعبئ كل موارد الهند، وتتولى التصنيع على أسس اشتراكية.

وكان نهرو يدرك أن هذه هى المعركة الرئيسية، وقد خاضها بكل بسالة ولكن ما استطاع أن يفرضه هو قطاع عام.

ربما كان أهم وأعظم ما حققه ، ولكن ظلت الرأسمالية الهندية على قدر عظيم من القوة.. بل وتكاد تكون القوة الحاسمة فى الهند..

بقى الحياد..

وكان قيام مجموعة محايدة حاسمة من الدول الجديدة بقيادة الهند.. كان يتطلب أن تكون الهند دائماً فى طليعة الثورة الآسيوية الافريقية.

ولكن الرأسماليين الهنود، كانوا يريدون أسواق هذه البلاد. ولا يريدون استفزاز الغرب الذى تشن ضده الحرب.. هذه البلاد.. وكان الرأسماليون الهنود، يريدون أن يخفوا عن

الرأى العام الهندى، الثورات والتغييرات الاجتماعية التى تحدث فى تلك البلاد..

ولهذا أصبح حياد الهند أوعدم انحيازها فى أكثر الأحيان (باهتا) لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى .وأصبح فهمها وتأييدها للثورات والانتفاضات الآسيوية والافريقية ناقصًا عاجزًا.

وكما قال ما لافيا أحد أقطاب اليسار فى حزب المؤتمر (أن الذين استلهموا مبادئنا.. واعتنقوها قد سبقونا وتركونا.. نحن معلميهم) !!

وهكذا استقلت الهند.

وقسمت الهند..

واصبحت دولتين الهند وباكستان.

واختلفتا فى كل شىء إلا فى شىء واحد هو «الفشل»..

وانعكس هذا ، كما لا ينعكس فى شكل آخر، فى وادى جميل ساحر اسمه «كشمير».

شنكر.. حزب الأطفال



شنكر كاتب ورسام ومناضل ومؤسسة كاملة (شرارة من روح الهند) بعد استقلال الهند، قررت أن أكون فى المعارضة وأخبت غاندى ونهرو بالقرار وباركاه.. كنت أحس ما سوف يكون عليه الحال بعد الاستقلال.. وحين يتحول المجاهدون والزهاد إلى حكام ويتاكلبون على مسرات الحكم سوف تبدأ قصة مسلية ويكون المنظر مضحكًا ومبكيًا ولابد من أحد بسجله.

(وقررت أن أصدر مجلة كاريكاتيرية ساخرة لا تخاف أو تخشى أحدًا وتكون مهمتها نقد الهند المستقلة وبلا حدود وسميتها باسمى).

وشجعنى نهرو كثيراً.. فى الواقع كان أكبر المشجعين، كانت أمنيته أن يقود المعارضة وعلى أى حال كان زعيم المعارضة وكان يمدنا سراً بالمعلومات وبالقصص والغرائب وكنا ننشر ونسخر ونثير الزوابع، ولا يستطيع أحد أن يعرف مصادرنا وكان يوم صدور- شنكر- عاصفًا دائمًا، وكنت أفضل أن أختفى فيه.. وأعود لاجد نهرو يضحك سعيداً. وبعد مضى الوقت وجدت أن النقد والكاريكاتير مهما لن يصلح الهند.. ولن يخلصها.. كان الفساد يتفاقم.. أحيانًا إلى حد اليأس وهناك نكتة مشهورة.. ما الفرق بين السياسى الهندى واللص.. الأول يدخل السجن أولاً..

وكان الحلأان أؤلف حزبًا سياسيًا ولكن كان سيتحول فى النهاية إلى (حزب مؤتمر) آخر خاصة إذا استولينا على السلطة، وقال لى نهرو نرشحك للانتخابات وتتاكف من هناك ووافق الشيوعيون والاشتراكيون على أن يتركوا لى دائرة.. ولكن رفضت، لم يكن هذا هو الحل على أى حال..

وذات يوم.. اكتشفت أن سكان الهند، خمسمائة مليون، وبينهم مائتان مليون طفل.. أى أن الأغلبية الساحقة هم الأطفال.. وإذن هذا هو الحزب الذى لابد أن نؤلفه.

وكانت مجلة (شنكر) تأخذ من وقتى يومين فى الأسبوع، فى البداية كنت ارسمها وأكتبها من الغلاف للغلاف، ثم وجدت معاونين متحمسين ولم تعد تأخذ من وقتى أكثر من يومين، ولذا قررت أن أمضى الخمسة الأيام الباقية.. مع الحزب الذى اكتشفته !!

وفى البداية كان ضروريًا أن أبحث عن لغة للتفاهم معهم كان غاندى يقول دائمًا اللغة أهم ما تذهب به للناس، ووجدت اللغة الوحيدة الممكنة هى الفن.. وهى لغة الإنسان الأول.. وقبل أن يكتب الإنسان رسم ونحت..

وأعلنا عن عدد خاص من شنكر (لرسوم الأطفال) وطلبنا إلى أطفال الهند أن يوافونا برسوم ،وحينما جاءت اللوحات دهشت للنتيجة .. وأيضًا لما يختزن فى نفوس الأطفال.. بدا كأنهم يحلمون بنفس الهند التى نحلم بها..

وقررت بعدها أن يكون مهرجانًا سنويًا للأطفال، وأن نقيم مسابقة فى الفن فى دلهى لكل أطفال الهند وأن تنشر الرسوم الفائزة فى العدد الخاص وأن يقام لها معرض كبير وأن تمنح أيضًا جوائز ثمينة..

وتدافع الأطفال بعشرات الألوف، أصبحت المسابقة حدثًا فى حياتهم جميعًا.. ولم نعرف كيف يمكن أن نجد مكانًا تقام فيه المسابقة.. ونصبنا خيمة كبيرة فى ساحة واسعة ووضعنا نهرو تحت رعايته ، وقرر أن يسلم الجوائز وأن يقضى يومًا مع الأطفال.. (وقال لى واحد من هؤلاء سوف يحقق ما تريده).

واكتشفت من المسابقة، ومن صداقتي للأطفال مدي الحرمان الذي يعيشون فيه والغربة والعزلة التى يعانون منها.. مع آبائهم وأمهاتهم.

ورأيت أنه لابد أن نخلق ثقافة هندية للطفل ، لابد أن نصدر له مجلة خاصة، وأن نعد له مكتبة كاملة وأن نقيم له عالمًا يسعد به ، ليمكن أن يبنى السعادة بعدئذ .. فى عالم يفتقدها..

وبدأت أجمع بعض أساطير الهند وقصصها لكى أعيد كتابتها لهم.. وبدأت من كيرالا

مسقط رأسى، كانت جدتى تروى لى القصص ،أذكر ،روت لى ما يقرب من أربعمائة قصة عن أربعمائة فيل مختلفين ،الفيل ذو مكانة خاصة فى تراث الهند خاصة فى كيرالا وبدأت أجمع هذه القصص واخترت ستة أفيال طيبة وكتبت ماجرى لها ورأيت أن أستعين أيضًا ببعض الكتاب الآخرين لكتابة الأساطير الأخرى، لابد أن يكون لدينا كتاب أطفال يعيشون معهم ويكتبون لهم فقط ولكن لم أجد سوى قلة نادرة.. البعض يكتبون للطفل من أعلى ، أو يضحكون للأطفال بلا ملل.. وكانت متعة أكتب بنفسى أكثر الأعمال ونجحت قصص الفيلة الستة وواصلت الكتابة للأطفال بلا ملل.. وكانت متعة كبرى.. وقررت أن أكتب قصة حياتى لهم.. كيرالا، وجدتى وأفيالها، والبحر والصيادين، والحب.. والحرية .. وكيرالا بلد الحب والحرية، المرأة تحب من تريد والرجل يثور ويرفض ما يقيده..

وفكرت لماذا لا تكتب قصة الهند الحديثة وقصة أبطالها. أيضًا . ما دام هولاء أمل الهند فلا بد أن يعرفوا دورهم وتطوع أحد كتابنا الكبار بكتابة قصة غاندى ونجحت المحاولة، وتطوع كاتب كبير آخر بكتابة قصة حياة نهرو للأطفال ونجحت نفس النجاح، واجتذب العمل كاتبًا كبيرًا ثالثًا فكتب قصة ذاكر حسين، رئيس جمهورية الهند السابق، وأرفع مثل لثقافتنا ، نجحت الكتب الثلاثة نجاحًا كبيرًا.. بدأت بعده المكتبة القومية للاطفال تتسع ويشترك فيها عدد كبير من الفنانين والكتاب..

ومن خلال البحث عن القصص والأساطير جمعت بعض العرائس، وفى بعض الولايات مثل كيرالا والبنغال وتريبورا قرى تخصصت كلها فى صنع العرائس فن شعبى فطرى على أرفع مستوى.. ذروة فنية عالية..

وجمعت بعض العرائس، ودرست أثر العروسة على حياة الطفل، وكل السعادة والألفة والصداقة التى تمنحها له.. وقررت أن أجمع عرائس الهند كلها، لنقيم متحفًا لعرائس الهند، وحينما يرى الطفل كل عرائس بلاده،، سوف يحب كل الهند سوف يعرف أهلها ويحبهم الحب الذى لا يبرح نفسه عن طريق عرائسها، وإذا ما انطبعت لديه منذ الطفولة، صور البنجاب والبنغال، وكشمير فى عرائسها، فستظل زاهية عميقة ولن يكره أحدًا من أهلها أبدًا.. وما أشد ما نحتاج هذا..

ورأيت بعدئذ أن أطفال الهند، لكى يؤدوا رسالتهم التى نتصورها لابد أن ينفتحوا على العالم ،على كل العالم بلا تحيز ولا تفرقة.. لابد أن يحبوا الإنسانية لكى يحبوا الهند.. ودعونا إلى اشتراك أطفال العالم فى المسابقة وفى الكتابة للمجلة وأن تجمع أيضًا عرائس العالم، ليعرف أطفال الهند، الإنسانية ويحبونها عن طريق عرائسها.

أن نقيم دولية أطفال دعوتها «يا أطفال العالم اتحدوا، ليس لديكم ما تخسرونه سوى غباء آبائكم.. وأمامكم عالم بأكمله لتكسبوه».

ووجدنا إقبالاً من العالم كما وجدنا من أطفال الهند، خاصة من آسيا والبلاد العربية وأفريقيا.. واشترك أطفال ١٠٥ دول فى المسابقة وفى الكتابة للمجلة.

وقررت أن لابد من إقامة متحف للعرائس التى تجمعت، لابد من إقامة مكان يجمع العرائس والمجلة واللوحات .. ويكون بالنسبة للأطفال.. سفارتهم الثقافية ومظلتهم الروحية وأن نبنى معبداً ليمجد الطفل وتطمئن فيه روح الطفل ولم يكن لدينا مال واقترضت من أحد أصحاب البنوك مبلغًا وبنينا هذا البناء.. وأصبح أحد معالم دلهى ومعالم الهند.. طبعًا رددنا القرض حتى آخر مليم، ليس لأحد فضل علينا.. وأصبح البناء مقصداً للجميع ،الهنود والأجانب وكل زائر كبير يأتى للهند، كان نهرو يصحبه إلى هنا.. وبالطبع نحصل على هدية من العرائس، خروشوف أهدانا القسم الروسى ،وأندريه مالرو أهدانا القسم الفرنسى.. والقسم المصرى حصلت عليه بنفسى ذهبت إلى القاهرة.. وحصلت على عدد من العرائس وذات يوم قال لى السفير المصرى هنا.. عندى لك أخبار طيبة.. هناك سبع عشرة عروسة مصرية فى السفارة ستصلك ومنذ ثلاث سنوات لازلت أنتظر .. والعالم عندنا ممثل بأجمل ما فيه وكما ترى لا ينقطع سيل الزوار من الكبار والصغار..

وكلما ضقت بالعمل أو بالكرسى الذى أجلس وأعمل عليه منذ خمسين عامًا.. أخرج إلى المتحف ويكفى أن أرى الانعكاس على وجوه الأطفال أذكر دائمًا كلمة نهرو.. (واحد من هؤلاء سوف يحقق ما تعثر من أحلامنا) وأعود للعمل راضيًا..

نهرو

المعركة ضد الداخل



الذى لا شك فيه أن الهند تسير نحو الاشتراكية ولا تسير نحو شىء آخر، ونجاح نهرو الكبير هو فى أنه عزل رأس المال عن السيطرة ودفع القوى التقدمية إلى القيادة ، ووضع وأرسى بعمق الأسس المادية والفكرية لتقدم الهند، وحدد اتجاه البوصلة ، بحيث لن تسير الهند إلا فى هذا الأتجاه وسواء تحققت الاشتراكية فى حياة نهرو الذى يتمتع فى سن السبعين بحيوية خارقة أو لم تتحقق فى حياته، فإن الهند ستنجب القيادة التى ستحققها ومهما كانت قوة الحزب الشيوعى فى الهند مثلا ومهما كانت استفادته من التجارب ومهما كان نضوج قياداته الآن إلا أن الحزب الشيوعى فى الهند لا زال، وسيظل بعيدا جدا عن الحكم، ومهما كانت الرأسمالية الهندية ومهما كانت حنكتها وبراعتها واستماتتها فى المعركة ، إلا أن الهند لن تكون أبدا دولة رأسمالية ولا قاعدة للرأسمالية فى آسيا وإفريقيا..

ولقد كان الامتحان الكبير لنهرو – وللنهروية كلها – من خلال أزمة الاعتداءات الصينية، ولقد اعتقد مغامرو اليسار فى الحزب الشيوعى الصينى أن أى أزمة بين الصين والهند ، ستفجر السخط الذى أساءوا فهمه وتوهمه فى الهند، وسيقف الشعب الهندى مع الصين ، «أمل شعوب أسيا وأفريقيا» وسيتدعم مركز الحزب الشيوعى الهندى بفضل إقدام رفاقه الصينيين ، ولكن كل ما قدروه كان غباء وحمقا منقطع النظير، ووقف الشعب الهندى كله

إحدى وقفاته التاريخية المشهودة ، وانقسم الحزب الشيوعى وقيادته على أنفسهم «وتلكأ عشرة أيام حتى أصدر قراره بتأييد نهرو »ومن خلال هذه الأيام العشرة خسر المعركة فى كيرالا» وذلك كما قال لى أحد أقطاب كتاب اليسار فى الهند «ملك راج اناند» ولن تكون كيرالا هى الخسارة الوحيدة للحزب.(*)

ومن خلال أزمة الصين أيضا هبت الرجعية الهندية كلها صائحة مولولة على سيادة الهند واستقلال الهند، وأصبح كل عملاء الاستعمار فى الهند أكثر وطنية من نهرو، وأكثر حرصًا، على «أمنا الهند» وكرامتها من نهرو، وأخذوا يندون ويسخرون ويشمتون بسياسة الحياد وما جرته سياسة الحياد ويطالبون بالدفاع المشترك مع باكستان أى الانضمام غير المباشر لسياسة الأحلاف والاستراتيجية الغربية.

ودبرت الرجعية الهندية مؤامرة الضباط الكبار ضد «كريشنا منون» وهو الرجل الذى وضعه نهرو لكى يقضى على سيطرة ضباط الجيش الإمبراطورى الهندى السابق ولكى يمكن الجيل الجديد الوطنى من الضباط من مراكز القيادة فيه، وهو أيضا الرجل الذى وضعه نهرو لكى يحمى الهند من السياسة الغربية الاستعمارية الجديدة منذ ١٩٥٨ وهى سياسة الاعتماد على العسكريين اليمينيين وتدبير انقلابات عسكرية يمينية فى آسيا وإفريقيا.

الفارس .. والحسناء

وجاء أيزنهاور مسرعًا ملهوفًا إلى الهند لكى يمثل دور الفارس والحسناء فى مأزق ، ولكن بدأت بالزيارة وانتهت واعتذرت الحسناء عن كل عروض الغزل والإغراء ووقفت على قدميها، ومضت فى طريقها هى، وقد قوبل عبد الناصر مقابلة تاريخية أعظم مما قوبلها أيزنهاور فكان هذا تأكيدا لشخصية الهند كما هو احتفاء بزعيم من زعماء الحياد.

والذى ينساه المتشائمون بمستقبل الهند هو أن الثورة الاجتماعية فى الهند ليست فقط معركة ضد سيطرة رأس المال والإقطاع والاحتكار ولكنها أيضا معركة لا تقل تعقيداً ضد طبيعة وكيان المجتمع الهندى نفسه.

مائة مليون مسلم

والديانة الثانية الرئيسية هى الإسلام، وكان عدد المسلمين فى الهند مائة مليون، وقد حكموا الهند ما يقرب من ألف عام، وكان تاريخًا حافلاً بالمجد والمآسى وانتزع البريطانيون الهند منهم، وقد وطد الاستعماريون حكمهم، بالتفرقة بين المسلمين والهندوس، وللأسف فشلت الحركة الوطنية الهندية فى امتصاصهم وصقلهم فى كيانها وفى كيان الأمة

الهندية، وانتهى استقلال الهند بتقسيمها إلى دولتين متعاديتين يوقظ عداءهما دائما كل التعصب الديني، بل وبقى فى الهند أربعون مليون مسلم، مهما كانت جهود الحكومة الوطنية فى تطمينهم إلا أنهم كتلة قلقة مشتتة غير مستقرة لا تساعد على الاستقرار.

والديانة الثالثة فى الهند هى ديانة «السيخ» وهى مزيج من الهندوكية والإسلام والبوذية، يعتنقها ما يقرب من ستة ملايين

وقد استطاعت الحركة الوطنية ، ونجح حزب المؤتمر فى أن يكون عموداً فقرياً صلباً يحفظ وحدة الهند «الوحدة من خلال التنوع» كما يسميها، حتى الاستقلال، ولكن فشل الحركة الوطنية الهندية فى لحم الأقلية الكبرى وهى المسلمين فى جسم الأمة الهندية وتقسيم الهند إلى هندوستان وباكستان، وما صاحبه من مجازر وأنهار من الدماء وما صحبه من حرب فى كشمير أذكى مرة أخرى كل هذه القوى المخربة السوداء وكون قرحة مزمنة فى النفس الهندية، كان على الثورة الاجتماعية أن تجتثها وتقضى عليها.

ولكن كيف كسب نهروالمعركة ضد الرجعية الهندية وضد عناصرالمجتمع الهندى الهدامة؟

لقد كان الانتصار بطيئا ومريرا، ولعبت عوامل كثيرة مساعدة دورها الكبير فى صالح نهرو، ولكن العامل الحاسم كان نهرو نفسه، قيادته وفهمه للشعب، وأمانى الشعب، ونفسية الشعب وتجاوب الشعب الفطرى الغريزى مع قائده ، وإنه إذا كان هناك نماذج لدور الفرد فى التاريخ فسيكون نهرو أحد النماذج الكبرى مثل لينين مثلا فى الثورة الروسية أو جمال عبد الناصر بالنسبة للثورة العربية .

وقد كان أول عامل رئيسى هو مقتل غاندى، وقد قتله المتعصبون الهندوكيون بحجة أنه متحيز للمسلمين وأنه يقف عقبة دون «هندوكية الهند» وكانت جريمة بشعة مروعة هزت ضمير الهند وذهبت بحياة القديس النبيل الذى امتزج بروح ونفس كل هندى، وبعثت الرعب والخجل والخزى فى نفس كل هندى ولم يكن أحد ليتصور أن فى الهند مثل هذه اليد الشريرة وما دامت قد وجدت فلا حدود لما يمكن من خراب وتدمير وخاف الشعب على مصير الهند كلها وعلى وحدتها وتقدميتها وبرز نهرو كمعقل الشعب الأول والأخير، وسقط المتعصبون الهندوكيون إلى الأبد من حياة الشعب الهندى، وانكشفت الشعارات الدينية الزائفة التى كان يختفى خلفها الرأسماليون والدجالون ، وارتدت الرصاصة إليهم جميعا وضاعت هيبتهم إلى الأبد.

ثم مات سردار باتل «فى الوقت المناسب» وبموته انهارت قلعة الرجعية والرأسمالية الكبيرة داخل حزب المؤتمر وتداعت سيطرتهم على تنظيمات الحزب وأجهزته ، وتخلص

الحزب من «كابوس» باتل، واستطاع نهرو أن يطرد ويزيح تلاميذ وأذناب السكرتير الرهيب، وأن يدفع الجناح المستنير المتقدم ليوجه ويرسم سياسة الحزب.

ثم عجز الاشتراكيون الهنود، وزعيمهم «جاى براكاش نارين» الذى كان يوما ماالمرشح الأول ليكون خليفة نهرو عجزوا عن تقديم برنامج أو سياسة أو قيادة تستهوى خيال الشعب بعد الاستقلال، ثم ما لبثوا أن انقسموا على أنفسهم وحاربوا بعضهم بعضا من أجل الزعامة والرئاسة ، وأيدوا الغرب ضد سياسة الحياد، وأيدوا مثلا إسرائيل ضد سياسة نهرو فى التحالف مع العرب، وما لبثوا أن أصبحوا أضحوكة الهند وسخريتها.

ثم فشل الشيوعيون فى حربهم الأهلية والطبقية بعد مؤامرة دامية لإقامة جمهورية شيوعية فى تلنجانا فى حيدر أباد ولم يستطيعوا أيضا أن يقدموا قيادة تسحب الأرض من تحت نهرو- كما أرادوا- ولم يستطيعوا أن يقدموا تنظيمًا أو برنامجا، يحول الشعب عن حزب المؤتمر، بل لقد أيقظت مغامرة تلنجانا كل ذكريات الشعب الهندى المريرة ضد الشيوعيين من خلال المعركة لوطنية.

ثم قامت الصين الشعبية وقضت على كل أحلام التوسع الأمريكى فى أسيا وقدمت للشعوب الآسيوية الأفريقية نموذجا فى تحقيق الثورة الاجتماعية، كان تحديا مباشرا شاملا سليما للهند، وأدرك كثير من الرأسماليين الهنود أن هذا هوالخطر الرئيسى عليهم، واستغل نهرو هذا الإدراك لدفع سياسته وبرامجه.

مرحلة باندونج

تم عدل الاتحاد السوفيتى والكتلة الشيوعية سياستهم إزاء الحركات الوطنية الأسيوية الأفريقية ومجموعة الدول الآسيوية الأفريقية، وتقررت سياسة التعايش بين الكتلة الشيوعية والكتلة الحيادية على أساس مبادئ «البانشاسيلا» كما تقررت سياسة التعايش بين الأحزاب الشيوعية والأحزاب الوطنية والاشتراكية فى أسيا وأفريقيا وبزغت مرحلة باندونج والمساعدات السخية غير المشروطة.

ووفرت كل هذه العوامل الجو الملائم لنهرو ،ولكنه مع ذلك لم يكن يستطيع أن يشن معركة مباشرة ضد الرجعية الهندية وذلك لأنهم مهما تزعزعت مراكزهم إلا أنهم كانوا تلاميذ بارعين للرأسماليين الانجليز يعرفون كيف يلائمون انفسهم وكيف يحرصون حرصا محكما على مصالحهم، وكيف يتنازلون عن القليل فى سبيل الاحتفاظ بالكثير ولهذا كان لابد للمعركة أن تكون معركة «فابيانية» تدريجية معركة التفاف وتسلل واستغلال متناقضات، وقلب سياسات وشعارات الرجعية ضدها وردها إلى صدرها.

توحيد الهند

وبدأت أولاً: معركة توحيد الهند، وكان توحيد الهند بعد قسمتها بين هندوستان وباكستان تعنى القضاء على ما يقرب من ستمائة عرش كانوا يحكمون فى إماراتهم وولاياتهم كظل الله فى الأرض ،بل وكان بعضهم يعتقد أنه الله نفسه ،ولذا لا يحاسبه أحد على النهب والسلب والقتل وهتك العرض الذى كان أمراً عادياً فى معظم هذه الإقطاعيات التى لم يكن يحميها من انتقام الشعب سوى الحراب البريطانية.

وكان الرأسماليون الهنود الدين عهدوا إلى السردار باتل بمهمة تصفية هذه الإمارات لا يريدون القضاء النهائى على الإقطاع وركائز الاستعمار، ولكن يريدون عقد صفقة بين الرجعية القديمة والرجعية الجديدة، توسع وتنظم السوق الهندية الكبيرة ، وتؤكد سيطرة الرجعية الجديدة وتحتفظ بالرجعية القديمة كدعامة مؤيدة لسيطرتها،ولذا اكتفى سردار باتل بأن حولهم إلى ملوك وحكام شبه دستوريين ، يعينون وزراءهم ومستشاريهم من أقطاب حزب المؤتمر، طبعًا أقطاب اليمين الذين يدينون له بالولاء ومنحتهم مرتبات ومعاشات طائلة ، واحتفظوا بقصورهم الخرافية وثرواتهم، وذلك لأنهم كانوا فى رأيه رموزا ودعامات للهند الهندوكية وللتراث الهندوكى كسلالات من الإلهة الهندوكية!!

وكان نهرو طبعا يريد اجتثاث هذا النظام من أساسه وإزاحة هذه الوضعيات التى خلفتها قرون الجهل والخرافة ،والتى لم يطل فى عمرها ويفرضها فرضا على الشعب والعصر سوى الاستعمار وحراب الاستعمار ،وكان نهرو يريد إعادة رسم خريطة الهند، ووفقا للعلم والتراث والصالح، وكتحرير للشعب، وقواه الخلاقة ، لا وفق نزوات الأمراء أو نزوات نائب الملك الإمبراطور، ووفق المصالح الإمبراطورية.

وكسب باتل الجولة الأولى وكسب نهرو الجولة الثانية، وأزال المهراجات وكانت المعركة الثانية هى معركة الديموقراطية:

وكان هؤلاء الرأسماليون يريدون الديموقراطية كمجرد صمام أمن يبدد سخط الشعب، وأن يكون البرلمان الهندى كالبرلمان الإنجليزى مجرد نقابة رأسماليين تحمى مصالحهم وتبررها وتلبسها الثوب الديموقراطى.

وكان نهرو يريدها تحريراً للشعب بعد إرهاب الحكم البريطانى وإرهاب المهراجات والأمراء ، وكان يريدها تربية سياسية للشعب ، وإطلاقًا لقواه الكامنة ، وتدريبا له وتعميقا لجذور الحرية والمسئولية، وكان يريدها أيضا تدريبا لحزب المؤتمر وعناصره المستنيرة على الحكم ومواجهة تبعات الحكم ومسئوليات الحكم تحت رقابة الشعب، وكان يريدها أيضا

طريقًا لاستدراج الشيوعيين إلى الشارع وكشف سياساتهم وأساليبهم أمام الشعب وتحويلهم إلى قوة دستورية للمعارضة الإنشائية بدلا من قوة تخريبية للتآمر والحرب الأهلية الطبقية وكان يريدها أيضا طريقا لاستدراج الرجعية وتعريتها فى وضح النهار أمام الشعب وإسقاط هيبتها وشعاراتها الزائفة.

وقد كسب نهروهذه المعركة ومهما كانت عيوب الديموقراطية الهندية إلا أن الكيان الديموقراطى والإطار الديموقراطى للهند، أصبح من عمق الجذور بحيث لا يجرؤ أحد على أن يمسه أو يشوهه ، وربما كان البرلمان الهندى هو أرقى مجمع لحرية الفكر فى العالم إن لم يكن فى التاريخ، ومهما كانت جذور الرجعية فيه إلا أنه أصبح حصنا من حصون الشعب، وقد دفع اليأس الرجعية الهندية إلى أن تدبر مؤامرة الضباط الكبار لإقامة انقلاب عسكرى فى الهند تطبيقا للإستراتيجية الغربية الجديدة فى آسيا وإفريقيا.

معركة ضد التعصب

وكانت المعركة الثالثة هى المعركة العلمانية، وكان الرأسماليون الهنود هم الذين يمولون ويدفعون لكل حركات التعصب الهندوكى، وهم الذى يرفعون عاليًا شعار «الهند الهندوكية» وكان بيرلا قطبهم الأكبر يتنسك ويزهد ويسير حافيا وراء غاندى وكتب كتابا كاملا عنه، وكان «داعيا» ينافس «بيرلا» فى إنشاد «الجيتا» و «الاوباتيشاد» الكتب المقدسة.

وكان هؤلاء الرأسماليون هم أحد الأسباب الرئيسية ،إن لم يكونوا السبب الرئيسى فى تقسيم الهند ، وإقامة باكستان، وما صحبه من مذابح رهيبة ولهذا كانوا يريدون علمانية الهند كمجرد ستار شفاف يخفون وراءه تعصبهم ورجعيتهم وينهبون وراءه حقوق الأقليات المشروعة ويرضون به الرأى العام الخارجى ،وينافقون روح العصر ،وكان نهرو يريدها علمانية حقيقية، تكون تأكيدًا لأن الدين لله والوطن للجميع، وتأكيدًا لأسس الحركة الوطنية الهندية ، ولروح الهند وعبقريتها فى التوفيق والامتصاص syns hesix وكان يريد إقامة دولة ليست دينية وليست ملحدة ولكن فوق الدين تكفل الحرية العقائدية لكل ما سببه التقسيم من مآس.

وقد كسب نهرو هذه المعركة ،ومهما كانت رواسب الماضى الكثيرة والثقيلة فى نواح ما من الهند، إلا أنها تذوب وتختفى يومًا بعد يوم وبسرعة كبيرة، والخوف على وحدة الهند وعلى علمانية الهند هو مجرد أمانى وأحلام شريرة فى نفوس أعداء الهند، وأعداء الشعب لأن عوامل الوحدة وعملية الصهر تتغلب كل يوم على عوامل التفرقة وعناصر التنقيب والتمزيق..

معركة السياسة الخارجية والحياد

وكانت المعركة الرابعة هى معركة السياسة الخارجية والحياد، وكان الرأسماليون الهنود يريدون الحياد، معتدلا باردا يميل إلى الغرب، بل وكان معظمهم يتصور معناه أنه البقاء فى الكومنولث، وتدعيم كتلة الكومنولث لتكون السمسار بين الشرق والغرب ولتفيد على حساب الصراع بين الشرق والغرب ، وذلك وفق ماأراده أرنست بيفن وزير خارجية بريطانيا وكان نهرو يريد حياد الهند كأساس ومحور لجبهة أسيوية أفريقية تقف كمانعة صواعق بين الكتلتين الشيوعية والرأسمالية ، وكجسر تلتقى وتتفاعل وربما تتصالح عليه الكتلتان، وكدعامة لاستكمال تحرير أسيا وأفريقيا ولانتصار الثورات الوطنية وتحقيق الثورة الاجتماعية الجديدة.

وكسب نهرو هذه المعركة ، وكان آخر وأكبر نجاح له هو زيارة أيزنهاور ثم خروشوف ثم عبد الناصر ثم سوكارنو، ثم شو أن لاى للهند.

بقى الإصلاح الزراعى والتصنيع ،أى بقيت معركة تغيير الكيان الطبقى للهند أى إزاحة الطبقات المستغلة والمستبدة وتحرير الطبقات المنتجة والعاملة والمهضومة الحق، بقيت معركة القضاء على الاقتصاد الاستعمارى الإقطاعى الاحتكارى وإقامة الاقتصاد الوطنى الاشتراكى العادل.. وحول الإصلاح الزراعى والتصنيع دارت معركة ضارية كانت المعركة الحاسمة.

الثورة بدأت من الأرض

وكان لابد وأن تبدأ الثورة الاجتماعية كما تبدأ فى كل بلاد أسيا وأفريقيا من الأرض ، حيث يعيش ٨٠٪ أو ٩٠٪ من السكان ولأن الاقتصاد الزراعى فى الهند كما هو فى كل بلاد أسيا وأفريقيا هو الأساس وهو الذى يحدد شكل المجتمع كله، واتجاه التطور الاقتصادى كله، وكان على الهند أيضا أن تقدم نموذجا للإصلاح الزراعى يقف جنبا إلى جنب مع النموذج الذى حققته الصين والذى كان أساس القفزة الجبارة نحوالتصنيع والاشتراكية فى الصين والذى استهوى خيال الجماهير فى أسيا كلها وكان على الهند أن تكون أكثر حسما فيما يتعلق بالإصلاح الزراعى لأن نظام الأرض فى الهند كان أساس السيطرة الاقتصادية والسياسية للبريطانيين وقد خلق البريطانيون فى الهند أغرب نظام للملكية الزراعية فى هذا العصر، فقد قلبوا نظم الملكية التى كانت قائمة وغيروا نظم جباية الضرائب، وأقطعوا عملاءهم إقطاعيات شاسعة ليخلفوا منهم طبقة حاكمة لحسابهم، ثم جعلوا الضرائب تدفع رأسا للحكومة بعد أن كانت تدفع لمجلس القرية الذى يوردها

للحكومة، وبذلك خلقوا طبقة من المرابين الجشعين تحكموا فى الفلاح وامتصوا دمه، وكانوا هم الطبقة التى استغلت أموالها بعدئذ فى الصناعة.

وكان الإقطاعيون الهنود ويسمون «الزامنذار» يسلمون الأرض للمنتزعين يجبون الضريبة ويقتطعون لهم نصيبا وكان الملتزم الكبير يسلم الأرض الملتزم الصغير وهذا ألملتزم أصغر حتى كان عددهم يصل أحيانا إلى ستين ملتزما يعيشون جميعا على دم وعرق الفلاح.

وكان الإصلاح الزراعى يعنى إلغاء الإقطاعيين والملتزمين وإعادة توزيع الأرض وتحديد الملكية، وتنظيم العلاقة بين الفلاح والمالك، وتعديل نظم جباية الضرائب ،. ثم إرساء أسس التعاون الزراعى وتطويره إلى الزراعة التعاونية.

وكانت الرجعية الهندية تريد الإصلاح الزراعى أن يكون مجرد قضاء على الإقطاع والالتزام الكبير مع تعويضه واستبقاء للأقطاع المتوسط، والملاك المتوسطين والفلاحين الأغنياء ليكونوا أساس الاقتصاد الزراعى الرأسمالى الذى هو أساس التطور الرأسمالى للهند ، كما يريدونها ويتصورونها وكانت الرجعية تريد التعاون الزراعى أن يكون معتدلا ومحدود الأثر وأن يظل تعاونا لا يصل أبدا للزراعة التعاونية.

وقد كسب الرأسماليون الهنود الجولة الأولى فى الإصلاح الزراعى، وصدرت قوانين الإصلاح الزراعى حسب ما تراه كل ولاية، وطبقت الإدارة المحلية قوانين الإصلاح الزراعى واستطاع الإقطاعيون والملاك، من خلال هذه الإدارة الفاسدة أن يتحكموا فى القوانين وأن يفسدوا آثارها وكان هذا سببا رئيسيا فى تعثر الثورة الاقتصادية والاجتماعية كلها، ولجأ نهرو إلى بعث مجالس القرية القديمة، وإلى تعميم الوحدات المجمعة فى الريف، وكان همها إيقاظ الفلاح وتعبئته ، وتنظيم سخطه ليكون رقيبا وقوة واعية ضاغطة على تلاعب الملاك والإدارة بقوانين الإصلاح الزراعى وفى العام الماضى وتحت ضغط هذه السياسة أقر حزب المؤتمر فى دورته السنوية تحديد الملكية بـ٤٨ فدانا وبدأ تطبيق الزراعة التعاونية ، وكان هذا سببا مباشرا فى انفجار سخط الرجعية الهندية، وإعلانها حربا على حزب المؤتمر.. وتكون حزب جديد باسم حزب «السواتناترا» أى حزب «الحرية» لمحاربة تحديد الملكية والزراعة التعاونية لأنها تتنافى مع حرية الإنسان وتراث الهندوكية وتراث غاندى!! وهذا الحزب يموله «تاتا» أحد الأقطاب الرأسماليين الثلاثة (بيرلا- تاتا- دالميا) ويرأسه «راجا جوبلاتشارى» أول حاكم هندى للهند، وأحد أقطاب اليمين فى حزب المؤتمر، وينظمه «ما سانى» وهو اشتراكى سابق نبذ الاشتراكية وآمن

بالرأسمالية والغرب ويفكر له «رانجا» وهو أستاذ اقتصاد رجعي يثبت أن الإصلاح الزراعي كارثة وهؤلاء هم نماذج للحلف الرجعي القائم في الهند.

من البقرة والمحراث الكهرباء والذرة

ولكن مهما كان الإصلاح الزراعي الهندي متعثرا ومعرقلا لكل تطور اقتصادي واجتماعي، ومهما كان السير بطيئا وثقيلا ومهما كانت ولولة وصراخ حزب «السواتانترا» إلا أن الريف الهندي يسير في الاتجاه الذي حدده نهرو أي نحو زراعة اشتراكية تعاونية ومصنعة»

وكانت المعركة حول التصنيع أشد ضراوة منها حول الإصلاح الزراعي وتصنيع الهند بالنسبة لنهرو تعني قمة حياته وكفاحه وفصلها الأخير والمجيد فإن تصنيع الهند يعني خلاصها الحقيقي، ويعني القفز بها من عصر البقرة والمحراث الذي رسفت فيه طوال حياتها إلى عصر العلم والكهرباء والذرة الذي سبقتها إليه دول العالم.

وكانت الصناعة الهندية قد قامت في أوائل هذا القرن وحاربها البريطانيون حربا شعواء حتى قامت الحرب العالمية الأولى فسمح البريطانيون بشيء من التصنيع الخفيف لتموين معاركهم ومن خلال الحرب العالمية الثانية اتسع نطاق الصناعة الهندية لنفس الأسباب أي في نطاق الاستراتيجية الاستعمارية.

وكان تصنيع الهند يعني تعديل الأسس التي قامت عليها الصناعة.

– جريدة الجمهورية في ٢ من مايو ١٩٦٠.



إلى أين تسير الهند



السؤال الذى يشغل آسيا هذه الأحيان هو إلى أين تسير الهند؟ وكيف تتجه؟ وقد كان هذا أحد الأسئلة الكبرى فى آسيا منذ استقلال الهند، ولكنه يسأل كثيرا منذ العدوان الصينى، ويضاف إليه.. هل تغيرالهند اتجاهها؟ وهل تعدل من سياساتها أو من طريقها لكى تواجه التحدى الصينى؟

الذين يطرحون هذه الأسئلة يريدون أن يتحققوا هل انتهى عصر التعايش بين الهند والصين،وهل انقلب هذا التعايش إلى تحد عدوانى؟ أم أن هذه أزمة عارضة طارئة يعود بها كل شىء إلى ما كان عليه؟ وهم يريدون أن يتحققوا هل تستطيع الهند إذا ما أصرت الصين على عدوانها. أن تواجه هذا التحدى.. وهو تحد شامل تترتب عليه نتائج كثيرة.. وخطيرة.

ولم يترك نهرو مجالا للشك فى أن الهند سوف تواجه التحدى، وأنها التقطت القفاز بالفعل ولكن لن يكون هذا بالحرب أو بمواجهة العدوان بالعدوان ،وأن الهند، وإن كانت لن تقف مكتوفة الأيدى ولن تترك حدودها عارية مكشوفة ،ولكنها لن تحارب إلا إذا اضطرت إلى الدفاع عن نفسها وقد رفض نهرو أن يواجه تحدى الصين أو أن يبحث عن الأمان والطمأنينة بالتنازل عن سياسة الهند أو المثل العليا للهند أو الأسس التى قام عليها

استقلال الهند وفشلت كل المحاولات الساذجة فى نظر الهنود- لاستدراج الهند إلى حلف عسكرى من الهند وباكستان وأفغانستان ليجعل من شبه القارة الهندية قاعدة كبرى للحرب الباردة ضد الخطر القادم من الشمال وأعلنت الهند أنه إذا كان ولابد فلتقم قاعدة كبرى للحياد وللتضامن الأسيوى الأفريقى بين بلاد شبه القارة الثلاث، تواجه التحدى على أسس ومثل وقوى نابعة منها.

وأكد «نهرو» أن سلاح الهند الرئيسى فى مواجهة هذا التحدى الجديد ليس تسليح الحدود وتدعيم الدفاع عنها ولكنها أولا وأخيرا تحقيق الثورة الاجتماعية فى الهند.. وهذا هو سلاح الهند فى مواجهة كل تحد وأى تحد من الداخل أو من الخارج من الشرق أو من الغرب.

المشروع الثالث

وتتبلور هذه الثورة الاجتماعية الآن حول المشروع الثالث مشروع الخمس سنوات الثالث، وهو خطوة واسعة المدى فى تحقيق هذه الثورة، ونقطة حاسمة فى تحديد اتجاه الهند ورد عملى إنسانى إنشائى على التحدى الصينى.

والثورة الاجتماعية هى القضية الرئيسية الملحة الجاثمة على صدر الهند منذ إعلان الاستقلال وذلك لأن قصة الفقر والمجاعة فى الهند قصة قديمة قدم مائتى عام من الاستعمار والاستغلال فقر وجوع الهند لا يصدق ولا يتصور حتى يرى ، وأكثر الناس وعيا به وخجلا منه هم الهنود أنفسهم ، ولهذا كان هدف الحركة الوطنية دائما الثورة الوطنية والثورة الاجتماعية معا.

وتوقع الشعب بعد الاستقلال فى الهند أن تتحقق الثورة الاجتماعية فورا ،وأن يعم الرخاء كل الطبقات التى استنزف دمها طوال عهد الاستعمار «نحن لا نستعمر الهند، نحن نستنزف دم الهند وليتنا نفعل هذا بحكمة» كما قال الماركيز «سالسبرى» ولكن بعد ثلاثة عشر عاماً من الاستقلال ، تضطرم الهند بالسخط لأن الاستقلال لم يحقق ما توقعه شعب الهند، ولأن الحركة الوطنية لم تحقق الثورة الاجتماعية، وهؤلاء الساخطون لا ينكرون أن الهند قد تقدمت منذ استقلت ،وأن مشروعى خمس سنوات للتخطيط قد دفعا الاقتصاد الهندى إلى الأمام، ولكنهم يرون أنه بالنسبة للهند لا يكفى مجرد التقدم، ولا التخطيط ولكن يجب أن يتحقق هذا التقدم بنسبة حدة وعمق وبشاعة المشكلة الاجتماعية، ويجب أن يحطم التخطيط الكيان العتيق الموروث وأن يزيح ويغير أجهزته العتيقة البالية. وأن يقفز بالهند من القرون الوسطى إلى منتصف القرن العشرين.

الساخطون فى الهند

والساخطون فى الهند مثل الساخطين فى بلاد كثيرة يضخمون الأخطاء والعثرات ولا يرون كثيرا الإنشاءات والخطى الإيجابية ومهما كان بطء خطوات الهند، ومهما كان تعثر الثورة الاجتماعية فى الهند إلا أنها تسير بخطى ثابتة ومطردة وقد اختارت الهند فى معركتها لتحقيق الثورة الاجتماعية، طريق الديموقراطية البرلمانية، والتخطيط الاقتصادى فى ظل هذه الديموقراطية وذلك لكى تحقق الهند، الحرية المدنية والطمأنينة الاقتصادية معا لكل مواطن ، أبحيث لا يتحقق أحدهما على حساب الآخر».

الزراعة والرى

ولقد صدرت الهند بعد أربع سنوات من الاستقلال، وقد كان توطيد استقلال الهند أقسى من انتزاعه مشروع الخمس سنوات الأول سنة ١٩٥١ وتحقق هذاالمشروع ونجح نجاحًا ملموسا وتلاه مشروع الخمس الثانى سنة ١٩٥٦ الذى ينتهى فى أبريل القادم، ليتلوه مشروع الخمس سنوات الثالث والحاسم.

وقد أقامت الهند تخطيطًا منذ المشروع الأول على أساس الاقتصاد المختلط وتوزيع التنمية الاقتصادية بين قطا ع خاص وقطا ع عام يتكاملان ويتناسقان لتحقيق خطة شاملة.

ومن خلال المشروع انصب الاهتمام فى التنمية على الزراعة ومشاريع الرى الكبرى وكان ذلك لتدارك نتائج تقسيم الهند، وكان تقسيما مقوضا للتكامل الاقتصادى للهند، فنقل معظم الولايات الزراعية الخصبة إلى باكستان وبقيت الولايات الصناعية فى الهند، ثم لتلافى المجاعة وآثار الاقتصاد الإقطاعى الاستعمارى الذى انصبت وطأته على الريف(*)، ثم لإعداد القاعدة الزراعية المتوازنة المنتجة التى يقوم عليها التصنيع والتى لا مناص من اعدادها لقيام التصنيع على أسس حقيقية.

وكان نصيب القطاع العام أقل قليلا من نصيب القطاع الخاص من خلال المشروع الأول فكان القطاع العام ٥١٪ وكان القطاع الخاص ٤٩٪ ولم يكن أحد فى الهند ضد المشروع الأول وكان يحظى بتأييد الرأسماليين الهنود ذوى النفوذ الكبير والذين كانوا يريدون ملاءمتها لاقتصاد متطور جديد

الصناعة الثقيلة

وأعد مشروع الخمس سنوات الثانى وصدر مختلفا عن المشروع الأول، وكان طبيعيا أن

(*) المعصوم من الفساد .

يختلف وأن يتطور عنه، وذلك أن الاهتمام تحول من الزراعة كمحور للمشروع إلى الصناعة والصناعة الثقيلة بالذات ، لوضع أسس تصنيع الهند عامة. وتحولت الأنصبة بين القطاع العام والخاص ولم تعد كما كانت فى المشروع الأول، بل تقدم القطاع العام، وأصبح نصيبه فى استثمارات التنمية ٦١٪ ونصيب القطاع الخاص ٣٩٪ ومن خلال هذا المشروع كان نهرو قد زار الصين ورأى مدى القفزات التى حققتها الصين ومشاريع التخطيط لديها وكان التعاون بين الكتلة الشيوعية والكتلة الحيادية قد بلغ أوجه ، بعد مؤتمر باندونج ووجد نهرو أن فى استطاعته الحصول على كل ما يلزمه من المال والخبرة والآلات اللازمة للتصنيع الثقيل من الكتلة الشيوعية. وبدأ يكسر الحصار الذى كانت تفرضه الكتلة الغربية على تصنيع الهند تصنيعا ثقيلا وفى نطاق القطاع العام.

وأعلن نهرو أن هدف الهند من مشروع الخمس سنوات الثانى هو تحقيق «مجتمع قائم على النمط الاشتراكى» وكانت كلمة مبهمة تلقاها الرأسماليون الهنود بسخريتهم التقليدية من مثالية نهرو الغامضة ، وتلقاها الشيوعيون بحملة تقليدية عنيفة ضد ميوعتها وتخديرها وتضليلها للشعب الهندى.

ولكن مشروع الخمس سنوات الثانى سار فى طريقه سيرا ثابت الخطى.. وكان من أعظم ثمراته ثلاثة مصانع رئيسية للصلب هى قاعدة التصنيع الرئيسية فى الصين وحينما أدرك الرأسماليون الهنود الكبار من خلال السنة الثالثة أن المشروع يسير سيرا جديا وليس مثالية غامضة ، وأن القطاع العام يزحف وينجح بدأوا حملة منظمة شاملة ضد التصنيع الثقيل وجدواه للهند، وأفضلية التصنيع الخفيف رحمة بشعب الهند وضد العلاقة بين القطاع العام والخاص وأن القطاع العام يجب أن يكون فى خدمة القطاع الخاص وليس العكس.

وفى خلال السنة الثالثة للمشروع افتعل الرأسماليون الهنود الكبار يساندهم الغرب، أزمة تمويل حادة للمشروع الثانى، أرغمت الحكومة الهندية على مراجعة المشروع مراجعة كبيرة بعد أن جاءت لجنة من البنك الدولى ونصحت نهرو بأن يعدل عن «اشتراكيته» ورد نهرو ردا عنيفا حاسماً، واختصرت الحكومة عددا من مشروعات «الخمس سنوات الثانية» وإن كانت احتفظت «بالنواة الصلبة للمشروع» وينتهى المشروع فى ابريل من العام القادم وهو وإن لم يحقق الأهداف التى وضعت له ، إلا أنه لم يفشل وحقق الهدف الرئيسى وهو إرساء أسس التصنيع بإقامة قواعد الصناعة الثقيلة.

ومشروع الخمس سنوات الثالث هو حلقة مكملة للتخطيط الاقتصادى للهند، ولبناء

الاشتراكية الديمقوقراطية فى الهند، ويقول واضعوه ان مشروع الخمس سنوات الأول قد أرسى دعائم ريف هندى متوازن وأن مشروع الخمس سنوات الثانى قد أرسى دعائم الصناعة الثقيلة وهذان هما المحركان الرئيسيان وإذا دارت المحركات ، فإن المرحلة القادمة هى مرحلة «التحديق» وخروج اقتصاد هندى متدفق بالحيوية يسير بقوة اندفاعه الذاتى.

وقد حدد مشروع الخمس سنوات وهى نسبة متساوية ويجب أن يقوم التخطيط على التوازن المتساوى بين التقدم الزراعى والصناعى، ولكن أهم وأخطر ما حسمه مشروع الخمس سنوات الثالث هو أن التصنيع سيظل مركزا على التصنيع الثقيل وداخل النظام العام ، وأن القطاع العام هو المهيمن نهائيا على القطاع الخاص ولا يدور هذا القطاع الخاص إلا فى النطاق المحدد له داخل الخطة، ووزعت نسبة استثمارات التنمية بين القطاعين إلى ٦٦ وثلثين للقطاع العام و ٣٣ وثلث للقطاع الخاص وطرح نهرو شعار «المجتمع على النمط الاشتراكى وواجه الرأسماليين قائلا «بصراحة أيها السادة وبلا حاجة إلى المواربة نحن نريد وسوف نكمل تحقيق الاشتراكية اشتراكية كاملة»

وقد وكل نهرو اعداد الأسس الأولى لمشروع الخمس سنوات الثالث إلى لجنة خاصة من المثقفين والاقتصاديين المستنيرين فى حزب المؤتمر وانعقدت هذه اللجنة فى شكل حلقة دراسية أكاديمية وخرجت بمجموعة أبحاث قيمة تناولت كل الأسس والساحات والإنشاءات الاقتصادية للهند ، منذ الاستقلال واستعرضت النجاح والفشل وأصدرت مجموعة ابحاث ضمنتها الأسس التى لابد وأن يقوم عليها المشروع الثالث ومنذ أن ظهرت أبحاث حلقة «أولى» نسبة للمكان الذى اجتمعت فيه ساد الفزع دوائر الرأسماليين الهنود وبدأت حملة ضارية ضد المشروع الثالث واجتمع اتحاد غرف التجارة الصناعة وهو منظمة الرأسماليين الهنود، وقرر الرد على حلقة «أولى» تكون النسبة بين القطاعين قيمة ٥٥-٤٥٪ ويميل إلى الصناعة الخفيفة لا الثقيلة .. ودعا اتحاد غرف التجارة والصناعة إلى مؤتمرعام لكل الرأسماليين فى الهند، الكبار والصغار والمتوسطين وعقد فى دلهى منذ شهرين، وكان هدفه هو تعبئة الرأسماليين جميعا، واجتذاب الرأسماليين الصغار والمتوسطين الذين يؤيدون سياسة نهرو، ويوافقون على الخطة ويقبلون نصيب القطاع الخاص ويكونون أيضا الغالبية بين الرأسماليين الهنود.

ناقوس الخطر

ووجد بعض الرأسماليين الكبار أن مشروع الخمس سنوات الثالث ناقوس خطر، داهم وأنه يؤذن بنهاية مالهم من قدرة على تسيير وتسخير حزب المؤتمر ولهذا قرروا إنشاء حزب

جديد سموه حزب «السواتالترا» أى حزب الحرية .. وأعلن الحزب أن المشروع الثالث سوف يدمر الهند وروح الهند وتراث الهند، لأنه يسير إلى الزراعة التعاونية وإلى الصناعة المؤممة وهذا قضاء على الديموقراطية وإهدار للحرية وخيانة لروح وتراث غاندى.

وكانت كلها محاولات يائسة ضد مصير محتوم ورغم كل العويل الذى ثارخرج المشروع الثالث فى نصه الأول بنفس الأسس التى تقرر فى حلقة «أولى».. وكان انتصارا حاسما لنهرو.. وخطوة قاطعة فى طريق تحقيق الثورة الاجتماعية ولم تستطع دوائر الغرب أن تساند الرأسماليين الهنود هذه المرة، وذلك لأن قوة هؤلاء قد اتضحت على حقيقتها ولأن رعب الولايات المتحدة من أن يتفوق النموذج الشيوعي الصينى ،وأن يكتسح آسيا وأفريقيا، اقتنع كثيرون خاصة بين الديموقراطيين فى أمريكا أنه لا بديل للصين سوى الهند ولا بديل فى الهند لاشتراكية نهرو.. وأن لا جدوى من مساندة قوة لا تستطيع أن تسند نفسها!

وبقى السؤال هل يستطيع مشروع الخمس سنوات الثالث أن يحقق أهدافه؟ وهل يستطيع أن يخلص الهند أو أن يعبر الهوة التى تؤدى إلى الخلاص ؟ وهل يستطيع أن ينافس القفزة الكبرى إلى الأمام ،وهى مشروع الصين الجديد.

ليس هناك من يبالغ فى مدى ما سوف يحققه المشروع لا من الهنود، ولا غير الهنود.. وهم يجمعون بلا استثناء بأن مشروع الخمس سنوات الثالث لن يبدد ، فقر وجوع عدة قرون وإنما سوف يزيح بشاعته ويكسر حدته ، وسوف يرسى الثقة فى اقتصاد يعتمد على نفسه ، ويولد قواه وحيويته وإن كان مشروع الخمس سنوات الثالث حتى لو حقق كل أهدافه لن يلحق مطلقا بالصين، وسيظل البعد شاسعا بين تقدم الهند وتقدم الصين ومع هذا، فإن من السخف خلق سباق أو منافسة بين الهند والصين أوالنظر إلى الهند كبديل للصين أو للاشتراكية الديموقراطية فى الهند كوسيلة لصد الشيوعية من آسيا وأفريقيا، وهذه هى النظرة الغربية نظرة الحرب الباردة، ولكن الواقع أن الهند أسلوب ومدرسة فى التنمية الاقتصادية والسياسية ، والصين أسلوب ومدرسة أخرى، وكل من الهند والصين يستفيدان ويقتبسان من بعضهما وشعوب آسيا وافريقيا سوف تتبع نفسى المنهج وتضيف إليه من تجاربها الخاصة وإذا كانت الصين قد قدمت أعظم تجربة فى تاريخ اسيا وافريقيا لتحقيق الديمقراطية الاقتصادية، فان الهند قد قدمت أعظم تجربة فى تاريخ آسيا وأفريقيا وربما فى تاريخ العالم لتحقيق الديموقراطية السياسية، وكلا التجربتين أساس لا غنى عنه لتحقيق الحرية والرخاء سواء لشعوب آسيا وأفريقيا أو لكل شعب.

ولهذا ليس من العدل وضع الهند والصين كمتنافسين أو كمتصارعين للزعامة والقيادة في آسيا وأفريقيا لأنهما متكاملتان ، ولم يكن ممكنا للصين أن تسلك طريقا آخر غير الذى سلكته كما لم يكن ممكنا للهند أن تسلك طريقا آخر غيرالذى سلكته.

والفرق بين الهند والصين ليس فى الأهداف ،ولكن فى الطريق واختلاف الطريق، وكل من الهند والصين ، يثبتان أن لكل شعب فلسفته إلى الحرية والاشتراكية ولكل شعب طريقه إلى الحرية والاشتراكية والفرق بين الهند والصين هو أن الذى حقق الثورة فى الصين هو الحزب الشيوعى وحلفاؤه من الأحزاب الوطنية والديمقوراطية أما الذى حققها فى الهند فهو حزب المؤتمر الهندى.

الإقطاعيون والرأسماليون

وقد كان الإقطاعيون الكبار والرأسماليون الكبار فى الهند فى قلب حزب المؤتمر وفى قياداته الرئيسية، أما فى الصين ، فقد خرجوا عليها مع تشيانج كاى شيك وحزب الكومنتانج.

وحينما انتصرت الثورة فى الصين كان من السهل عليها أن تصادر املاك الأقطاعيين الكبار وتوزعها على الفلاحين وكان من السهل عليها أن تؤمم الصناعة والتجارة والبنوك الكبيرة، لأن معظمها كان هناك فى أيدى أربع عائلات من أقارب تشيانج كاى شيك أو زوجته.. أما فى الهند، فلم يكن من الممكن سوى السير سيراً تدريجيا للحد من سيطرة الإقطاعيين والاحتكاريين، حتى نزع مخالبهم فى مشروع الخمس سنوات الثالث.

والفرق بين الصين والهند هو أن حزب المؤتمر فى الهند لم يكن حزبا مدربا على الحكم ولم يكن لديه القادة المعدون اعدادا خاصا للحكم والإدارة أما الحزب الشيوعى الصينى فقد عاش ربع قرن فى البرارى والقرى يدير ويحكم ويحارب وكان من مبادئه الأساسية اعداد «الكوادر» السياسية والاقتصادية والإدارية والعسكرية للاستيلاء على الحكم.

وحينما تولى حزب المؤتمر الحكم كان مضطرا لأن يعتمد على الإدارة التى كونها وخلقها الإنجليز لاستعباد واستغلال الهند وكما يقول نهرو «من الصعب على الذين كانت كل مهمتهم حفظ الأمن وتحصيل الضرائب للأجنبى أن يديروا دولة للرعاية الاجتماعية ومن الصعب على من صيغت عقولهم صيغة رأسمالية استعمارية أن يحققوا اقتصادا اشتراكيا» ولهذا تعد الهند جهازا جديدا يصدم فى كل لحظة بالجهاز القديم.

ادرسوا الاقتصاد

أما فى الصين، فقد استولت «الكوادر» على الحكم والإدارة واستطاعت بمقدرة خارقة

أن تعبئ الشعب تعبئة شاملة وأن تعد نفسها لكل المهام. وحينما ابدى ماوتسى دونج نصيحته إليهم « ادرسوا الاقتصاد» انكبوا جميعا على دراسة الاقتصاد واستطاعوا السيطرة والهيمنة على كل دقائق الاقتصاد الصينى والفرق بين الصين والهند هو أن الهند قد اختارت الطريق الديمقراطى البرلمانى وأصرت عليه وأعلن نهرو «لن نضحى بالحرية المدنية من أجل أى تقدم اقتصادى» واختارت الصين طريق ديكتاتورية الشعب الديموقراطية وتحالف الأحزاب والطبقات الثورية ضد الأحزاب والطبقات الرجعية.

ولهذا لم يلق الحزب الشيوعى فى الصين المعارضة العنيفة التى تلقاها ويتلقاها حزب المؤتمر داخل الإطار الديموقراطى سواء من اليمين واليسار، بل ولا يلقى الحزب الشيوعى الصراع الداخلى الحاد الذى يدور فى قلب حزب المؤتمربين اليمين واليسار ولهذا أيضا فإن سياسات الحزب خاصة التخطيط الاقتصادى فى الصين لا تلقى الصعوبات والعثرات التى تلقاها سياسات نهرو وتخطيطه الاقتصادى والفرق بين الهند والصين أنه منذ انتصرت الثورة الصينية وقف الاتحاد السوفيتى وكل دول أوروبا الشرقية بكل إمكانياتهم الاقتصادية إلى جوار الصين، ومنح الاتحاد السوفيتى الصين ١٦٨ مصنعا كانوا أساس الصناعة الثقيلة وأساس تصنيع الصين كلها وهذا إلى جوار القاعدة الصناعية الكبيرة التى كانت القاعدة الصناعية الكبيرة التى ورثتها الصين عن اليابانيين فى منشوريا.

أما الهند فقد ورثت اقتصاد إقطاعيا احتكاريا استعماريا، مخربا محطما، وقد زاده خرابا وانهيارا تقسيم الهند إلى دولتين، وانتقال المناطق الزراعية إلى دولة والمناطق الصناعية إلى دولة أخرى واستحكام العداء والقطيعة الاقتصادية بينهما ، ثم رفض الكتلة الغربية والشرقية على السواء مساعدة الهند بعد الاستقلال، كل منها لأسباب مختلفة وقد قررت الكتلة الغربية أى الولايات المتحدة الأمريكية ألا تساعد الهند إلا إذا أكدت أن تطورها الاقتصادى سيقوم على أساس رأسمالى أو يميل إلى الرأسمالية وأنه سيقوم على أساس منح الأولوية للزراعة والصناعة الخفيفة ، ثم على أساس نبذ سياسة الحياد وعدم الانحياز والانضمام إلى الغرب أو الحياد حيادا مائلا للغرب، ورغم أن نهرو ذهب بنفسه إلى الولايات المتحدة سنة ١٩٤٩، وحاول أن يقنع ويؤمن الرأسماليين الأمريكيين إلا أنهم رفضوا أى مساعدة للهند، حتى حينما هددتها المجاعة ولم تساعد أمريكا الهند إلا بعدما انتصرت ثورة الصين، وتغير ميزان القوى، ورد نهرو الإهانة مضاعفة لهم، وقرر أننا سنموت جوعا قبل أن نتنازل عن مبادئنا أما الكتلة الشرقية، فقد امتنعت عن مساعدة الهند بفضل سياسة المغامرين الشيوعيين التى سيطرت حينا ،سواء فى الكتلة أو فى

الحزب الشيوعى الهندى، وهؤلاء كانوا يرون فى نهرو «كلب حراسة للاستعمار الانجلو أمريكى فى آسيا» وكانوا يرون أيضا أن نجاح نهرو اقتصاديا واجتماعيا فى الهند، يعنى أن هناك حلا آخر غير الحل الشيوعى، ونظرية أخرى غير النظرية الماركسية المتزمتة ، وهذا ما لا يودون مطلقًا أن يحدث، ولم تساعد الكتلة الشيوعية الهند إلا بعد باندونج، وبعد انهيارالسياسة الستالينية فى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى السوفييتى، وكان هذا نقطة تحول فى تقدم الهند، وكانت موافقة الاتحاد السوفيتى مثلا على إقامة مصنع صلب فى الهند سببا فى إسراع ألمانيا الغربية بالموافقة على إنشاء مصنع آخر، وإسراع بريطانيا بإنشاء مصنع ثالث، وموافقة الولايات المتحدة على إنشاء مصنع رابع ولكن لحساب أحد الرأسماليين الهنود الكبار «تاتا» وليس فى القطاع العام.

استقلال.. واستقلال

والفرق بين الهندوالصين، أن الهند قد استقلت «سلميًا» كما يقولون ، وانسحب الاستعمار وجلا عن الهند بالرضا والاتفاق ، أما فى الصين فقد استقلت بعد حرب دامية استمرت أكثر من ربع قرن، وغمرت الدماء كل شبر من أرضها ، وحينما استقلت الهند، انتهت السيطرة السياسة للاستعمار، ولكن النفوذ الاقتصادى لرءوس الأموال الأجنبية لم ينته بل ظلت رءوس الأموال الأجنبية تحتفظ بقواعد ومراكز رئيسية فى الاقتصاد الهندى إما بدخول معظمها فى اتحادات مع رءوس الأموال الهندية أوباستمرار استثماراتها.. ولم تتأثر رءوس الأموال البريطانية كثيرا باستقلال الهند، بل حدث نوع من الملائمة فقط، وهى تبلغ الآن ثلاثمائة مليون جنيه استرلينى .. ودخلت رءوس الأموال الأمريكية للاستثمار بنسبة أقل كثيرا ، ولكنها تكافح دائما فى سبيل توسيع وتدعيم مراكزها.

أما فى الصين، فبمجرد انتهاء الثورة انتهت السيطرة السياسية والاقتصادية ولم تصادر الصين رءوس الأموال الأجنبية ولكنها أخضعتها لنفس القوانين التى خضع لها الرأسمال الوطنى ولم تصادر سوى رءوس الأموال الأمريكية بعد حرب كوريا.. ولكن ما بقى يعمل فى نطاق السياسة وخطة التنمية الصينية.

والفرق بين الهند والصين، أن الاستعمار فى الهند كان استعماراً مباشراً ، حكم وساد وملك ، واستعبد واستبد واستغل ووضع فى قبضته كل شىء ،أما فى الصين فقد كان الاستعمار استعماراً غيرمباشر، وهو وإن لم يختلف فى العمق والأبعاد إلا أنه اختلف فى الأثر وفيما خلفه.

وحينما انتصرت ثورة الصين كانت كل المقاومة المعادية قد انتهت، وكانت الصين قد

خلصت كاملة موحدة للعهد الجديد والحكم الجديد ، ولم تبق ضده سوى جيوب صغيرة كان مصيرها مفروغا منه.

أما فى الهند، فقد قسمت إلى بلدين متعاديين عداء محمومًا يتفق كل منهما ٦٠٪ أو ٧٠٪ على التسليح، وبينهما بحر من دماء وأشلاء مليونى قتيل على الأقل .

وورثت الهند بلدًا على شفا الهاوية يضطرم ويمور بكل عوامل الانفجار والانهيار من عداوات دينية وطبقية وإقليمية وحزبية.

وقد كان على نهرو بعد الاستقلال أن يواجه ثلاثة ألوان من التحدى الشامل كان كل منها يهدد مصير الهند وكيان الهند كله والمثل العليا للهند.

أولا.. التحدى الهندوكى: من المتعصبين الدينيين من الهندوس، الذين كان يضمهم حزب قوى يسنده الإقطاعيون الكبار والرأسماليون الكبار والمهراجات، وقد استغل ظروف تقسيم الهند والمآسى التى خلفته، وقام يطالب بهند هندوكية وإبادة كل المسلمين ، واستعادة الباكستان بالقوة وتفرع عن الحزب، حزب آخر إرهابى مسلح ، ارتكب أكثر المجازر والمذابح التى خلفت التقسيم ، وقررت أن يقضى على أعضاء حزب المؤتمر، خاصة غاندى الذى اتهموه بالتحيز للمسلمين ونهرو الذى كانوا يسمونه «محمد نهرو»

وقد ألقى نهرو القفاز فى وجه هؤلاء وأعلن أن الهند لن تكون سوى «دولة علمانية» ولن تكون أبدا دولة هندوكية ، مهما حدث فى باكستان.

وحينما ارتكب هؤلاء جريمتهم الكبرى بقتل غاندى كانت نتيجتها انهيار نفوذهم إلى حد كبير، ولكن ظل نهرو فى حرب صريحة عنيفة ضدهم، حتى لم يبق لهم سوى نفوذ لا يذكر فى الهند، وهزموا هزيمة ساحقة فى الانتخابات الماضية، وقد لا يحصلون على شىء مطلقا فى الانتخابات القادمة.

ثانياً.. التحدى الرأسمالى: وهؤلاء الرأسماليون الكبار الذين كانوا يريدون إقامة هند رأسمالية، يساندها الرأسمال العالمى كله، وكانوا لا يأخذون بمأخذ الجد سياسات نهرو ومثاليات نهرو الغامضة كما كانوا يسمونها، وكانوا يحاربونها بكل الوسائل ، خاصة بإثارة التعصب الدينى الهندوكى. والتشجيع الخفى للأحزاب التى تمثله وحينما استقلت الهند، كان هؤلاء يسيطرون على حزب المؤتمر عن طريق سكرتيره العام، وأقوى رجل فيه وأقدر المنظمين فى الحركة الوطنية الهندية كلها وهو السردار «باتل» كما كانوا يسيطرون على المواقع الرئيسية فى اقتصاد الهند الزراعى والصناعى والتجارى.

وقد كانت معركة نهرو ضد هؤلاء معركة تدريجية ، بدأت ببعض القيود على نفوذهم

وبتوجيه الدولة توجيها محدوداً للاقتصاد الفردى، وانتهت بمشروع الخمس سنوات الثالث الذى حولهم من الهجوم إلى الدفاع.

ومعركة نهرو الرئيسية الآن ، بل معركة الهند الرئيسية الآن هى ضد هؤلاء الرأسماليين .

ثالثاً.. التحدى الشيوعى: وكان الحزب الشيوعى الهندى حزباً مغامرا متخبطاً، ظل معزولا عن الحركة الوطنية متقلبا فى موافقة منها، وكان كل هم قادته من خلال الحركة الوطنية أن يثبتو للشعب أن غاندى «أكبر عملاء الاستعمار البريطانى» وكان كل همهم بعد الاستقلال أن يثبتوا للشعب أن نهرو «كلب حراسة للاستعمارالانجلو أمريكى» وأن الشعب يجب أن يتبعهم. لانتزاع السلطة من حزب المؤتمر وتسليمها للحزب الشيوعى الهندى

دور نهرو

وقد خاض نهرو المعركة كاملة ضد الحزب الشيوعى سواء أيديولوجيا أو سياسيا أو ثوريا وفى الداخل أوالخارج وحينما قاموا بمغامرتهم الطائشة بإعلان ثورة مسلحة فى أحد أقاليم حيدر أباد قضى عليها، وحينما بدأوا معركة للأثارة الشعبية تحداهم بالاحتكام دستوريا إلى الشعب واكتسحهم حزب المؤتمر فى الانتخابات الأولى والثانية مما اضطرهم أن يتحولوا من حزب مغامر إلى حزب دستورى للمعارضة البرلمانية وهو حتى الآن يقف بعيدا عن الحكم، ولا يجد ما يكفى من الشعارات ضد نهرو.

ودور نهرو التاريخى والمجيد بعد الاستقلال هو أنه استطاع بعد الاستقلال ووسط هذه الأمواج العاصفة المتلاطمة أن يخرج بالهند دولة موحدة ديمقراطية علمانية اشتراكية حيادية تسير بثبات نحو الأهداف التى رسمها نهرو نفسه للثورة الهندية منذ ربع قرن مهما كان هذا السير بطيئا أو محفوفا بالمكاره .

ونجاح الهند فى تحقيق استقلالها وفى توطيد استقلالها، يبعث اليقين بأنها سوف تحقق ثورتها الاجتماعية وسوف تواجه أى تحد لكيانها أو لمثلها أو لأهدافها.

- جريدة الجمهورية في ٣ من ديسمبر ١٩٦٠

(*) كلها تحررت بالفعل فى أواخر القرن العشرين .



حديث خاتون باكستان!!



تركت كل شيء في الوجود، لتكون في خدمة القائد الأعظم. ظلت إلى جواره في كل مراحل كفاحه ولم تتركه لحظة ولم تتزوج حتى تحقق الحلم الكبير. لقبها «خاتون باكستان» أى «أم باكستان».. إنها السيدة الأولى فى هذا البلد التى فتحت قلبها لمحمد عودة ، وروت له كل الذكريات .

هذه هي أم باكستان.. السيدة الأولى في باكستان هي الآنسة فاطمة جنة شقيقة القائد الأعظم «محمدعلى جنة» منشئ باكستان، وزميلة حياته طيلة سنين الكفاح، و ««فاطمة جنة» أو «مس جنة» كما يدعوها الجميع هي «خاتون باكستان» أى «أم باكستان» وكل عمل كبير تقوم به الحكومة كل حكومة - لابد أن تباركه أم الباكستان لكى يتساند فى خيال الشعب وضميره وحينما أعلنت «خاتون باكستان» الحرب ضد «اسكندر ميرزا» ودعت إلى ««الجهاد» ضده لأنه «الحضيض الذى ليس بعده حضيض» لم يبق فى باكستان من يشك فى أن اسكندر ميرزا يجب أن يذهب وأنه سوف يذهب، وحينما انبثق النظام الجديد فى باكستان أعلنت أن هذا النظام لابد وأن يعطى الفرصة كاملة، وقد كان وثبت نجاح النظام.

و «فاطمة جنه» فى الحلقة السابعة من عمرها وهى نحيلة رقيقة فى مظهرها، وقوية

جبارة مضطرمة بالحماس والحرارة حين تتكلم، ويستطيع الإنسان، بعد أربع ساعات فى الحديث معها كما فعلت ، أن يدرك أى إرادة جبارة، وأى عزم وتصميم خارق، كان وراء قيام باكستان وإنشاء باكستان،

وقد اعدت «فاطمة جنة» نفسها لتكون طبيبة أسنان ولكنها ما لبثت أن اعتزلت الطب لتتفرغ لرعاية أخيها بعدما ماتت زوجته وظلت إلى جواره ولم تتركه لحظة ولم تتزوج حتى تحقق الحلم، ورفرف علم باكستان ثم مات القائد الأعظم، بعد أقل من عام وظلت وحيدة تنفذ وصيته.

كان أول ما قالته خاتون باكستان.. إننى سعيدة.. سعيدة جدا ،إن أى ضيف وأى ريح طيبة تأتينا من بلادكم تحمل لنا نسمة من السعادة وأنت لا تعلم ماذا تعنى كلمة عربى بالنسبة لنا وبالنسبة لأى باكستانى ومنذ بضع سنوات لو سرت فى الطريق وعرف الناس أنك عربى، مجرد عربى، لتجمعت حولك مظاهرة، ولكن ليجازى الله حكوماتنا السابقة لقد كانت تقفز من سيىء إلى أسوأ ، وأنا رأيت عبد الناصر فى أول مرة زار باكستان وقلت يومها لرئيس الوزراء «يجب أن تتشبثوا بهذا الرجل، يجب أن لا ترفعوا أيديكم من يديه أبدا، إن العرب والمسلمين جميعا قد وجدوا قائدا عظيما ومشكلتنا جميعا، كانت «القائد» ويجب أن تدعموا صداقتنا له، وفهمنا له» ولكن لمن كنت أقول؟ كيف يمكن جمع النقيض، وإننى لست سعيدة بشىء، مثل تصميم الحكومة الحاضرة على إزالة كل السحب فى علاقاتنا وعلى دعوة عبد الناصر وسنرى كيف يقابل هنا وسيرى أولئك السياسيون من نوافذ بيوتهم المغلقة إلى الأبد إن شاء الله كيف فشلت كل مناوراتهم لفصل الأخ الشقيق من الأخ الشقيق.. أن ما يرعاه الله والتاريخ لن يفصمه «اسكندر ميرزا» ولا «حسين سهر وردى».

واسأل ما تشاء وسوف أجب بصراحة كاملة.

وهبت الحياة

س- كيف تهب الأخت حياتها لشقيقها، وتترك عملها كطبيبة، ودورها كامرأة؟

جـ- لم يكن القائد الأعظم مجرد أخ لى، ولكنه كان أيضا أبى وأستاذى وصديقى، وقد كنت أصغر الأخوة، وقام هو بتربيتى منذ الطفولة ، وكان شابا متحررا وكان مدركا لدور المرأة عن فهم ووعى، وكنت أنا أول فتاة مسلمة فى الهند تدخل مدرسة الراهبات وثارت ثائرة المسلمين فى بومباى فى ذلك الحين وأرغوا وأزبدوا ولكنه كعادته حينما يكون على حق، لم يأبه قط، ولم يغير رأيه، ودخلت المدرسة وطلب من المديرة ألا أحضر دروس الدين

ولا الصلوات، ولا الاعتراف ، وجاء لى بمدرس خاص فى المنزل للدين الإسلامى، ومنذ كنت فى الثامنة ، كان يعاملنى دائما وكأننى فتاة كبيرة، ولا أذكر أنه نصحنى قط كما تنصح الفتيات ، ولا أذكر أبدا أنه جرح شعورى مرة واحدة أو وجه لى اللوم على شىء ما، ولذلك كنت أحرص دائما على ألا يكون فى تصرفاتى أو فى آرائى شىء يمكن أن يكون موضع المؤاخذة من قريب أو بعيد، وكان يصحبنى معه إلى الحفلات والمحلات العامة ،وأنا سافرة ، لأنه كان ضد الحجاب وضد أنصارالحجاب والمتزمتين ولهذا كان أخى دائما هو «بطلى» ولم نفترق إلا حينما تزوج ودخلت أنا كلية طب الأسنان، وأتممت الدراسة، وبعد أن تخرجت، بوقت قصير ماتت زوجته، ولهذا عدت للحياة معه سنة ١٩١٧، ولم نفترق منذ ذلك الحين من خلال أكثر من ثلاثين عاماً

الإيمان .. أولا

س- هذا أثره فيك كأخ وما أثره كقائد وسياسى؟

جـ- الواقع أن القائد الأعظم لم يكن سياسيا بالمعنى المعروف للسياسى، كان رجل «عقيدة وايمان» وكان يعطى حياته لما يعتقده ويؤمن به ،وحينما كان مؤمنا بوحدة الهند وبحرية الهند كانت كل حياته وتفكيره وكفاحه من أجل هذه الوحدة ومن أجل الهند الحرة ،حتى أطلقت عليه ساروجينى نايزو «سفير الوحدة بين عنصرى الأمة»، وحينما أمن بباكستان، اندفع بنفس الإيمان والعزم والتصميم، ولم يقف أمامه شىء، لوم يكترث بأى عقبة وكانت العقبات أعصى وأقسى من قمم الجبال، كان القائد الأعظم رجلا شجاعا مخلصا، شريفا بسيطا وكل خصومه بلااستثناء حتى أشدهم خصومة له، كانوا يذكرون دائما أنه من أشرف وأنبل من أنجبت الهند وكانوا يسمونه the incorruptible.

أعظم لحظات العمر

س- وماهى فى رأيك أعظم لحظات حياته وحياتك؟

جـ- طبعا يوم ١٤ من أغسطس سنة ١٩٤٧، واستقلال باكستان. لم تكن باكستان مجرد أرض وحدود جغرافية، ولكنها عقيدة وقضية شعب، وكانت تراث وروحية أمة، وفى ذلك اليوم كان القائد الأعظم يحس إحساس الرجل الذى وصل بعد رحلة مضينة شاقة عبر الصحارى والأدغال إلى مكة والحرم الشريف وأنا أذكر أننا كنا نشهد معا ، فى لاهور قوافل المهاجرين واللاجئين من الجانب الآخر، وكانوا يأتون فى مواكب تمتد أميالا عديدة ، ويصلون إلى الحدود، وقد أنهكتهم وحطمتهم أهوال الرحلة، ولكن ما يكادون يصلون إلى أرض باكستان حتى يرتموا راكعين ويقبلوا الأرض بشوق وحرارة وتنهمر الدموع من

أعينهم ولا أنسى منظر فلاح عجوز كان يتوكأ على كتفى ولدين من أبنائه، ولم يستطع أن يركع ليقبل الأرض فطلب إلى أحدهما أن يناوله قطعة من أرض باكستان وظل يقبلها بحرارة، ولم يتركها من يديه .

ولقد كانت باكستان التى تمخضت عن التقسيم، غير باكستان التى يريدها ويحلم بها «القائد الأعظم» وكان يحس أحيانا بكثير من الأسى، ولكنه لا يلبث أن يقول لى مهما كان ما حصلنا عليه، ومهما كانت قلة الرجال المدربين لدينا إلا أن باكستان ستزدهر وأننى أؤمن بالشعب وبالجماهير، وكان يقول لى : أن طينة شعبنا سليمة ونقية وقوية ، وقد علمتنى تجارب العشر سنين من ١٩٣٧- ١٩٤٧ أن شعبنا لا يتضعضع ولا ينهار ولا يتراجع، وذلك مهما كانت العقبات، ومهما كان الفشل وخيبة الأمل، وكان أمل القائد الأعظم كله ينصب حول الجيل الجديد، وكان يقول لى لقد انتهت مهمتنا بقيام باكستان، والدور الآن على الشباب، وعلى الجيل الجديد وتصورى أى عجينة سوف يكون منها الجيل، الذى ينشأ فى بيئة حرة، الذى لم يعرف عقدة الأقلية ومتاعبها، ولم يعرف ذل الاستعمار البريطانى، وجبروته.

هل تحقق الأمل؟

س- هل حققت باكستان آمال القائد الأعظم وآمال الشعب فى باكستان؟

جـ- نحن أمة جديدة عمرنا ثلاثة عشر عاما فقط وقد خرجنا من التقسيم بكل ما تعرف ولا تعرف من مشاكل وقد مررنا بتجارب أليمة وتوالت علينا حكومات سيئة وفاسدة ، ولكن ربما كانت هذه التجارب لازمة لكل شعب، لكى يكتشف طريقه ، ولكى يدرك عيوبه ومزاياه ونحن نحمد الله على أن عصر السياسيين والإقطاعيين قد انتهى.

أما الشعب، فقد لا تكون باكستان حققت كل مطالبه ، ولكن كل باكستانى يؤمن أن باكستان سوف تزدهر وأنه لا مناص من أن تزدهر باكستان وليس هناك طريق آخر واسأل أى مواطن عادى فى الشارع مهما كانت حالته الاقتصادية هل يدافع عن باكستان إذا هددها خطر؟ وستجده ينقلب نمرا ضاريا، ويفضل أن يموت هو وأولاده وأحفاده لكى تعيش باكستان.. وأنت لا تعرف وكثير من العرب، لا يدركون أى ذل وعذاب عرفه مسلمو الهند منذ استولى البريطانيون على الهند ومنذ حطموا كل مجد وتراث المسلمين.. ومنذ استغلوا الأقلية ضد الأغلبية والأغلبية ضد الأقلية وأى شعور بالخلاص أحسوه حينما أصبح لهم وطن.. ونعموا بالحرية.. لقد جاء سفيركم لزيارتى منذ أسابيع وجلست معه جلسة أطول من جلستنا هذه وشرحت له التاريخ كله وأننى أثق بأن ما تحتاجه باكستان

منكم هو الفهم المشبع بالعطف ، ويوم تعرفون القصة كاملة، لن يكون هناك قط مجال الشك أو سوء التفاهم.. وحينما يأتي جمال عبد الناصر سأفعل معه نفس الشيء وسأقول له كل شيء.

كفاح المرأة

س- وما دور المرأة في تحقيق باكستان؟

جـ- دورعظيم، دور جوهري لقد كانت المرأة المسلمة إلى جوار الرجل في كل خطوة، بل لقد كانت تتقدمه في كثير من الأحيان، وحينما كان الموقف يحتاج إلى المخاطرة وإلى التضحية، كانت المرأة كثيرا ما تندفع بلا تردد أو تفكير، وكانت كثيرا ما تتفوق وتسبق الرجل بأميال وأنا في رأيي أن المرأة عاطفية ومتطرفة ، ولا تؤمن كثيرا بالحساب والأرباح والخسائر لكثير من الرجال.

وأستطيع أن أقول لك أنه بغير المرأة ربما لم يكن ممكنا أن ينجح حزب العصبة الإسلامية وأن تتحقق باكستان.

وفي كل مرحلة وفي المظاهرات، وفي الانتخابات وفي جمع التبرعات، وفي التعبئة العامة للشعب والجماهير كانت المرأة دائما في الصف الأول ،ومن الفتيات المتعلمات إلى ربات البيوت حتى الفلاحات الجاهلات وبفضل المرأة كان شعار «باكستان زند اباد» وهو شعار كل بيت مسلم في أرجاء الهند كلها قبل التقسيم.

وكان الرجل الذي يعارض باكستان لا يستطيع أن يجد طعاما في منزله، لأن زوجته ترفض أن تطبخ له ، وكان الرجل الذي لا يصوت من أجل باكستان يعود فلا يجد زوجته في البيت لأنها تطلب الطلاق منه ، بل لقد بلغ الأمر بإحدى الزوجات أن سكبت البترول على نفسها وأشعلت النار مفضلة الموت على الحياة مع زوج لا يؤيد باكستان.

وصية القائد

س- وماذا فعلت بعد وفاة القائد الأعظم؟

جـ- نفذت وصيته ، إنني أقضي كل وقتي في الاهتمام بالتعليم وإنشاء المدارس والجامعات ولا أرفض أي دعوة لافتتاح مدرسة أوتدشين مدرسة ، وقد ألقيت خطاب افتتاح جامعة السند الجديدة، وشعرت بسعادة ما بعدها سعادة وأنا أرى جامعة جديدة في باكستان وأنا أرعى كل صغيرة وكبيرة في معهد الفتيات النموذجي المسمى باسمي وأنا مهما تعرفت بالجيل الجديد من ألاولاد وبنات، زادت ثقتي بمستقبل باكستان، وأدركت قول القائد الأعظم بعد الاستقلال علينا أن نركز كل اهتمامنا حول من هم أقل من سن

الأربعين ، لأن هؤلاء انتهى دورهم.

وقد قررت بعد موت القائد الأعظم أن أعتزل السياسة تماما، ورأيت أن آخذ اجازة طويلة منها وذلك بعد عمل متصل ليل نهار مدى ثلاثين عاما، ولعلك لاتتصور أنه لا أنا ولا القائد الأعظم قد أمضينا أى أجازة من العمل لمدة ٢٢ عاما متتابعة ، وظللت محافظة على ابتعادى عن العمل السياسى حتى جاء هذا «الاسكندر ميرزا» ووصلت الأمور إلى الحضيض الذى ما بعده حضيض وأصبح كل شيء فى باكستان مهددا، وحينئذ قررت العودة «للجهاد» ضده ولازاحة الوصمة التى أفسدت كل حى عندنا.. ونحمد الله أنه انزاح نهائيا عن باكستان وعلى أنه ذهب ليعيش لدى أسياده الإنجليز فى لندن.

واستأذنت من خاتون باكستان.. بعد أربع ساعات طوال. وكان آخر ما قالته:

– متى يأتى عبد الناصر.. هل تحدد الموعد؟!

– فى أواخر مارس «لم يكن الموعد قد تحدد بعد»

– قل له أن كل باكستانى يعد الدقائق والثوانى حتى يحضر، وقل له ألا يكتفى بزيارة العاصمة ومقابلة الوزراء والحكام ، يجب أن يزور كل مدينة وكل قرية.. ليتأكد بنفسه وليرى بنفسه أنه يعيش فى قلب كل باكستانى فى أثمن مكان من قلبه».

– ١٥ من أبريل ١٩٦٠ .

الثورة الهندية





كانت الهند هى التجربة التاريخية النموذجية للاستعمار الحديث، وقد مارس فيها كل وسائله وتجاربه فى الاستغلال والاستبداد، حتى أصبحت مدرسة الاستعماريين جميعا، وسميت- بحق- الأرض التقليدية للاستعمار.

ومنذ نفذ البريطانيون إلى هناك كتجار للفلفل والتوابل حتى سيطروا على الهند بعد فشل ثورة سنة ١٨٥٩ وانهيار آخر محاولة للهند القديمة فى المقاومة ، استطاع الاستعماريون البريطانيون أن يمزقوا جسم الهند السياسى بكل وأدق أنسجته، واستطاعوا أن يمتصوا آخر قطرة من دم الهند وكيانها الاقتصادى ، وحكموا الهند حكما مباشرا بشعا طبقوا من خلاله ما لم يعرفه وما لم يغفره التاريخ.

ولقد حطم الاستعماريون البريطانيون كل وحدة الهند وتناسقها وتنوعها الخصب فى إطار الوحدة وأعدموا كل البناء المجيد الذى شاده أباطرة عظام مثل اشوكا البوذى واكبر المسلم المغولى.

وقسم البريطانيون الهند إداريا إلى الهند البريطانية التى يحكمها البريطانيون مباشرة حكما ديكتاتوريا صريحا، وهند الأمراء التى يحكمونها بطريق غير مباشر عن طريق المهراجات والنواب الذين ظلوا على ظلام القرون الوسطى والاقطاع، تؤيدهم وتسندهم الحراب البريطانية.

وقسم البريطانيون الهند روحيا إلى مسلمين وهندوس وسيخ ومسيحيين وزرعوا بين كل دين وطائفة بحاراً من الكراهية والدماء، وأذكى البريطانيون أشد الفروق ظلاما ورجعية وهى قسمتها إلى طبقات مقدسة ومبتذلة مهانة كالحيوانات مثل المنبوذين، وقضى البريطانيون على كل صناعات الهند التى كانت فخر العالم الحديث وذلك لكى يخلقوا سوقا للا نكشير وبوركشير. وقضوا على اقتصادها المزدهر كله وأعادوا صياغته ليكون مجرد مزرعة تحمى ثراء ومجد وحرية الجزر البريطانية السعيدة وقد طلب برنارد شو ذات يوم بحق من سيدات الأرستقراطية فى لندن أن يخففن من غلوائهن ودلالهن لأن كل ما يتمتعن به هو دماء وعظام هنود ماتوا جوعًا.

وقد سميت الهند اراض المأساة والمجاعة الدائمة، وقد أحصى كاتب هندى عدد المجاعات التى دهمت الهند من خلال الحكم البريطانى منذ أول مجاعة فى القرن الثامن عشر حتى مجاعة البنغال سنة ١٩٤٣ التى مات فيها سبعة ملايين، فبلغت مائتين ،مات فيها ثلاثمائة مليون ومن أجل هذا كتب طاغور يوما «إن مصير الاستعمار شأن كل الكائنات هو الفناء، وأن الهند ستشاهد ذلك اليوم ولكن الاستعمار سيتركها بوجه ملطخ بالعار والجوع والقذارة واليأس».

الثورة

وقد قامت ثورة التحرير الهندية لأهداف ثلاثة هى:

١- تحرير الهند تحريرا كاملا من الاستعمار.

٢- إعادة وحدة الهند المادية والمعنوية التى مزقها الاستعمار.

٣- تحقيق العدالة الاجتماعية التى حرم منها شعب الهند طوال قرون الاستعمار.

وقاد ثورة الهند فى مرحلتها الأخيرة والحاسمة موهانداس كرمتاه غاندى بفلسفته وأساليبه الفريدة وقد قامت هذه على اللاعنف وعدم التعاون والعصيان المدنى، مستلهمة فى ذلك تراث الهند الروحى الشامل.

وكانت الغاندية عقيدة وسياسة وسلاحا، وقد استطاعت أن توقظ شعب الهند وأن تعبئه وأن تدفعه للثورة واستطاعت أن تحيله من شعب بائس مشتت جرده الاستعمار من كل سلاح إلى شعب مكافح مستميت سلاحه اقوى ما يملكه الإنسان وهو روحا نيته.

وقد أتمت الغاندية رسالتها بجلاء الاستعماريين البريطانيين عن الهند وتسلم القيادة جواهر لال نهرو ليقوم باستكمال الثورة، وكانت النهروية هى التطور المتناسق للغاندية فى مرحلة البناء التى تلت مرحلة التحرير.

ونهرو في فلسفته غاندى ماركسى اشتراكى ديموقراطى، وهو المزيج العبقرى بين أحسن ما في الشرق واحسن مافى الغرب وإذا كانت الماوتسى تونجية هى أقلمة الإشتراكية الماركسية فى واقع الصين وواقع الشرق عامة، فإن النهروية هى أقلمة الاشتراكية الديموقراطية الغربية فى واقع الهند وواقع الشرق عامة.

اختلاف الثورتين

وقد اختلفت الثورة الهندية عن الثورة الصينية فى فلسفتها وقيادتهاوطبيعتها فكانت فلسفة الثورة الصينية فى تعاليم «صن يات صن» التى تطورت إلى تعاليم ماوتسى تونج وكانت فلسفة الثورة الهندية هى تعاليم غاندى التى تطورت إلى تعاليم نهرو.

وكانت قيادة الثورة الصينية فى يد الفلاحين والعمال بالتحالف مع الطبقة الوسطى، وكانت قيادة الثورة الهندية فى يد الطبقة الوسطى بالتحالف مع العمال والفلاحين.

وكانت طبيعة الثورة الصينية أنها ثورة مسلحة طويلة المدى ضد رجعية واستعمار مسلح ،أما الثورة الهندية فقد كانت فى جوهرها ثورة سلبية لا عنفية ومع ذلك فقد كانت الأهداف واحدة وهى الحرية والوحدة والاشتراكية.

التحرر

وقد نجحت الثورة الهندية فى تحرير الوطن الهندى من وباء الاستعمار البريطانى، ومن جيوب الاستعمار الفرنسى التى ظلت باقية حتى بعد الاستقلال، ولم تبق إلا بضعة جيوب للاستعمار البرتغالى تصر البرتغال ويؤيدها العالم الحر على بقائها! (*)

الوحدة

ووحدت الثورة الهندية شعب الهند رغم الجرح الدامى الذى شقه الاستعمار بتقسيم الهند واستطاع «السرداربابتل» الذى يسمونه بسمارك الهند أن يهدم كل الحواجز التى أقامها الاستعمار بين الشعب الواحد وداخل الوطن والواحد، واستطاع بالعصا الغليظة وبالجزرة أن يقوض حكم المهراجات والأمراء وأن يفرض عليهم الدستور الهندى وحكومات ديمقوقراطية جديدة، وبذلك عادت للهند وحدتها وتناسقها كشعب واحد ووطن واحد.

وأعادت الثورة الهندية تخطيط ولايات الهند تخطيطا قائما على الأسس الصحيحة وقضت على التخطيط المفتعل الذى أقامته بريطانيا تحقيقا لمصالحها ولنزوات المهراجات والأمراء.

الاشتراكية الديمقراطية

وقد كان التحرر والوحدة هما الإطار الضرورى والقاعدتين الأوليين لتحقيق الديموقراطية والاشتراكية.

وبإتمام التحرروالوحدة استطاعت الهند أن تقيم جمهورية ديموقراطية اشتراكية بدلا من البناء البوليسى الاستعمارى الرهيب.

ولقد كانت الطبيعة السلمية للثورة الهندية هى العامل الأساسى فى إمكان قيام ديموقراطية برلمانية كاملة فى الهند، وذلك كما كانت الطبيعة المسلحة للثورة الصينية هى السبب فى قيام ديموقراطية ثورية أو ديكتاتورية الشعب الديموقراطية وقد صدر الدستور الهندى كإحدى الوثائق المجيدة فى تاريخ الشرق كله وقد كفل هذا الدستور من الحريات مالم يكفله دستور قبله فى الشرق والغرب.

وقامت على أساسه ديموقراطية برلمانية كاملة هى أكبر وأرقى ديموقراطية برلمانية عرفها التاريخ، وهى لم تتلوث بالاستعمار والاستبداد الذى تلونت به الديموقراطيات البرلمانية الغربية وكان أهم أسباب انهيارها وتناقضها.

وفى ظل الديموقراطية الهندية اندثرت معظم أحزاب التعصب والتخريب، وذابت أكثر الدعوات المسمومة والمتهورة، واستطاع حزب الأغلبية أن يسترد الكثير من حيويته ومن تقدمه وأن يعيد إلى حظيرته الكثير ممن تركوه سخطًا على جموده وتفككه ونشأت معارضة مسئولة وتحول اليسار من سياسة العنف والمؤامرة إلى الكفاح الدستورى المسئول فى البرلمان. واستطاع بهذا الوصول إلى الحكم فى ولاية يبلغ سكانها عشرين مليونا.

ووفقا للدستور قامت فى الهند دول علمانية وهى ليست بالدولة الدينية ولا بالدولة الإلحادية ولكن بالدولة غير الدينية التى تفصل الدين عن الدولة، وتكفل حرية العقيدة كفالة تامة لكل الأديان والمذاهب.

واستطاعت هذه الدولة العلمانية أن تقضى على تركة الاستعمار الثقيلة فى التفرقة والتعصب الدينى، واستطاعت أن تهزم كل دعامات الدولة المتعصبة التى تقوم على حدودها والتى تنفث السم والظلام فى كل آسيا.

الاشتراكية

وقد كان تحقيق الاشتراكية فى الهند فى ظل هذه الديموقراطية البرلمانية مختلفا فى الطريق وفى الدرجة والسرعة عنه فى الصين.

ويروى أن ستالين فى مقابلة له مع هارولدلا سكى قال له «هناك طريقان للاشتراكية الطريق البريطانى وهذاخفيف الوطأة، ولكنه بطئ والطريق السوفييتى وهذا ثقيل الوطأة ولكنه سريع».

والاشتراكية الهندية اشتراكية عملية تجريبية لم تتقيد بالأيدولوجية بقدر ما تقيدت

بالنتائج وكان مقياسها الرئيسى هو مقياس الاشتراكية الأول والأخير وهو توجيه الإنتاج لسد مطالب الناس لالجنى الأرباح.

والاشتراكية الهندية هى الوسيلة العملية لتوزيع مغانم الثورة توزيعا عادلا على كل الطبقات، والوسيلة العملية لتنسيق الصراع الطبقى تنسيقا سليما يوفق بين مصانع الطبقات ولا يعرقل تقدم الهند وينتهى بتحقيق العدالة الاجتماعية فى أرقى صورها لشعب الهند.

والاشتراكية الهندية هى النموذج المثالى لقيادة الطبقة الوسطى الآسيوية الإفريقية الجديدة ، وتحقيقها للثورة الوطنية والثورة الاجتماعية والاشتراكية الهندية فى النموذج للقومية الآسيوية الإفريقية ذات المحتوى الاشتراكى.

ولقد تطورت الهند فى تحقيقها للاشتراكية من الدولة الاجتماعية إلى الدولة ذات الإطار الاشتراكى إلى الدولة المتجهة لتحقيق اشتراكية كاملة.

وسارت الهند من الرأسمالية الموجهة إلى الاقتصاد المختلط الذى يغلب فيه القطاع الرأسمالى إلى الاقتصاد المختلط الذى يغلب فيه القطاع الاشتراكى.

وكان طبيعيا أن يكون سير الهند نحو الاشتراكية محاطا بالعقبات والصعوبات وأن لا يكون بالسرعة التى تتناسب مع حدة المشكلة الاجتماعية فى الهند أو بما يوازى التنافس المشروع بين الهند والصين.

ولعله إذا كانت الصين قد تفوقت على الهند فى تحقيق الديموقراطية الاقتصادية إلا أن الهند تفوقت فى تحقيق الديموقراطية السياسية.

ميثاق الاشتراكية

ولقد كان ميثاق الاشتراكية فى الهند هو مشروع الخمس سنوات الأولى فى الهند الذى صدر سنة ١٩٥٢.

وكان هدفه الرئيسى هو :

١- تحقيق الإصلاح الزراعى وذلك بإلغاء الإقطاع ومسح الأرض لمن يزرعونها ،تحديد العلاقة بين المالك والمستأجر، تحديد الملكية ثم السير نحو الزراعة التعاونية.

٢- ترشيد الانتاج الزراعى، استصلاح الأراضى البور وزيادة إنتاج الغذاء.

٣- إقامة مشاريع الرى الكبرى التى تعتمد عليها الثورة الزراعية.

٤- وضع أسس التصنيع والثورة الصناعية فى الهند.

وقد تحقق مشروع السنوات الخمس الأول بنجاح كبير وصدر مشروع السنوات

الخمس الذى جعل هدفه تحقيق الثورة الصناعية فى الهند، فصب الاهتمام على إقامة الصناعة الثقيلة.

الحياد

واذا كانت الثورة فى الهند قد استطاعت أن تجتاز بنجاح كبير طريقها فى الداخل فهى قد استطاعت أن تحقق نفس النجاح فى شق طريقها فى الخارج.

ولقد خرجت الهند من مستعمرة لا تملك من أمر سياستها الخارجية شيئا إلى دولة كبرى وسط عالم كبير متصارع متلاطم.

وقد وجدت الهند نفسها أمام عالم انقسم إلى كتلتين جبارتين تستعد كل منهما لتدمير الأخرى ولمحوها من خريطة العالم.

ووجدت الهند كلتا الكتلتين تصر على أن طريقها هو الطريق الصحيح والوحيد وليس هناك طريق آخر.

ورفضت الهند كلا الطريقين وشقت الطريق الثالث وهو الحياد.

وكان هذا تأكيدا لاستقلال وسيادة الهند التى لم تكن لتتحرر من الإمبراطورية البريطانية لتنضم إلى الكتلة الغربية أو الشرقية.

وكان تأمينا للثورة الهندية وللثورة الأفريقية الآسيوية عامة التى يجب أن تختار طريقها وتلعب دورها كاملا.

ولقد كان الحياد يعنى من الناحية المذهبية أن لا تفرض هذه الكتلة أو تلك أيدلوجيتها وأن يكون للهند حق بعث تراثها، وتطويره ودراسة هذه الأيدلوجية وتلك ، وتطعيم تراثها بما تراه صالحا لها، وأن تمتص كل المذاهب والفلسفات بحيث تبقى شخصيتها وتراثها.

وكان يعنى سياسيا حق الهند فى أن تتخذ موقفا من كل مشكلة سياسية فى العالم وفق مصالحها المشروعة، ووفق مثلها العليا السياسية.

وكان يعنى اقتصاديا حق الهند فى أن تقيم علاقاتها الاقتصادية ووفق منهجها وعقيدتها الاقتصادية.

وحول محور الحياد التقت كل الثورات الآسيوية والأفريقية وولدت قوة ثالثة ومنطقة سلام واسعة تلعب دورا حاسما فى سياسة العالم وسلامة استقراره .

التفرقة

وقد ركز الاستعماريون الذين لا ييأسون ولا يكفون أبدًا- جهدهم وأملهم على الإيقاع بين الهند والصين وخلق قوتين كبيرتين متعاديتين ومتنافستين فى آسيا.

وبذل الاستعماريون جهدا شاملاً متصلا فى هذاالصدد، ولكنه انتهى كله بالفشل وقد حملت الهند منذ اللحظة الأولى لواء حماية ثورة الصين والاعتراف بالعين الجديدة، وأقنعت معها كل دول آسيا بلا استثناء بالاعتراف بالصين والالتفاف لحمايتها.

وحملت الهند منذ اللحظة الأولى لواء الحملة للاعتراف بالصين فى الأمم المتحدة ولا يزال مطلبا تقليديها للوفد الهندى فى كل دورة.

وتكللت الصداقة بين الهند والصين باللقاء التاريخى بين نهرو وشواين لاى سنة ١٩٥٤ الذى وضع أسس الدبلوماسية الآسيوية الأفريقية الجديدة ومبادئها الخمسة التى اعترفت بالبانشا سيلا.

وكان هذا اللقاء هو المقدمة لأكبر حدث فى تاريخ آسيا وأفريقيا، وهو انعقاد مؤتمر باندونج الذى اجتمعت فيه كل دول آسيا وأفريقيا على اختلاف مذاهبها وسياستها ، والذى أرسى دعائم التضامن الأسيوى الأفريقى. ودعائم التعاون بين الكتلة الحيادية والكتلة الاشتراكية.

القلاع الثلاث

وبهذا قضت الثورة الهندية على قلعة الاستعمارالكبرى فى وسط آسيا، كما قضت ثورة الصين على قلعته الكبرى فى شرق آسيا، وكما قضت الثورة العربية على قلعته الثالثة والأخيرة فى غرب آسيا وقلب أفريقيا.

- جريدة الشعب من ٨ أكتوبر ١٩٥٨



عدم الانحياز ولد فى باندونج
وبلغ الرشد فى بلغراد



نجح مؤتمر عدم الانحياز، وفاق نجاحه كل ما توقعه مؤيدوه وأذهل كل معارضيه ومن تشككوا أو قللوا من أهميته وجدواه

وحقق مؤتمر بلغراد ، كل ما انعقد لأجله وذلك أنه:

١- شخص مشاكل العالم الراهنة تشخيصا شاملاً موضوعيا ، لا يستطيع أن يثير شبهة أو حفيظة هذا الطرف أو ذاك، بل ويمنح الفرصة لكل الأطراف المعنية، لكى تراجع موقفها وتدرك أخطاءها، بغير أن تفقد كرامتها أو تمس كبرياءها

٢- أنه رسم طريقا للخلاص من هذه المشاكل ، لا يعتمد على الشعارات ، وإنما على التحليل العلمى والتاريخى للمشاكل ، وعلى استعراض وحصر إمكانيات البشرية فى تحقيق الحلول، وضرورات البشرية الملتزمة فى الوصول إلى حلول.

وهى حلول لا تتحيز لنظام أو لمذهب ، ولكن تقوم على الأهداف المشتركة بين شعوب العالم جميعا وعلى الضرورات العامة للإنسانية كلها فى هذا العصر.

٣- أنه أثبت وأكد وجود قوة متكاملة ديناميكية غير منحازة تمثل ضميرالإنسانية، وضمير العصر وهى قوة الدول غيرالمنحازة ، تقف حارسة للسلام، وتقرع أجراس الخطر حينما تشم رائحة الخطر، وتدفع بكل قواها لكى تنقذ هذا السلام وتحميه إذا ما بدت

طلائع الكارثة وربما كانت أوروبا تشهد لأول مرة فى تاريخها مؤتمرا يضم مثل هذه المجموعة من رؤساء الدول، ولا يريد تقسيم العالم أو توزيع العالم ، أو تدمير العالم، ولا يستبيح أى الوسائل فى سبيل أى الغايات.

لاميكافيلية

وربما كانت أوروبا تشهد لأول مرة مؤتمراً لا تسوده وتحكمه وتسيره التعاليم والمبادئ التى قامت عليها سياسة ودبلوماسية أوربا والغرب منذ «نهضت» أوروبا وساد الغرب، وهى تعاليم «طيب الذكر.. مكيا فيللى»..

وفى بلغراد استمع العالم كله إلى أصوات صادقة مخلصة، ترى مشاكل العالم بلاتحيز، وتبحث عن حلول بلا ضغائن ولا أحقاد، ولا تقف واجمة أو عاجزة، وإنما ستعبئ جهودها وتفرض إرادتها، وستمد حدودها لأن «الاتساع المطرد لنطاق هدم الانحياز فى العالم هو البديل الوحيد الذى لا غنى عنه لسياسة تقسيم العالم إلى كتل ولسياسة الحرب الباردة».

وإذا كانت باندونج هى ميلاد مجموعة الدول غير المنحازة فإن بلغراد هى «تمام الرشد» ومنذ اليوم لن تحل مشكلة فى العالم بغير اشتراك غير المنحازين، ولن يقطع برأى قبل معرفة رأى غير المنحازين.

مشكلة العصر

لقد ملأت الدول غير المنحازة فراغا روحيا وسياسيا واستراتيجيا فى هذا العالم، كان وجوده هو الذى يقود إلى الكارثة ، وبعد اليوم لن تستطيع دولة ، ولن تستطيع كتلة أن تقول أنا الحق والحق كله ، أو أنا الخير والخير كله، ولن تستطيع دولة أو كتلة أن تتهم الأخرى بأنها الباطل ولا شئ غيرالباطل، وأنها الشر والخطيئة ، وملعون من يتبعها أو يلمسها.

وأصبح فى العالم حكم نزيه ، ويمسك هذا الحكم فى يديه ميزانا حاسما، ولأحكامه قوة ملزمة لا يتجاهلها أحد، وهى قوة الوعى بين الشعوب «ووعى الشعوب هذا فى طريقه إلى أن يصبح قوة معنوية عظيمة قادرة على أن تباشر نفوذا فعالا فى تطور العلاقات الدولية».

إن مشكلة العصر الأولى هى الانقسام الكبير بين دوله الكبرى إلى كتلتين، تمثل كل كتلة منهما فلسفة، ونظما ومصالح وطريقة حياة كاملة، وترى كل كتلة منهما أن هذه الفلسفة والنظم وطريقة الحياة هى التى يجب أن تسود هذا العالم آجلا أو عاجلا، وأن العقبة الوحيدة فى سبيل ذلك هى الكتلة الأخرى ، وأنه لهذا لابد من إزاحتها والقضاء

عليها، بالسياسة والحرب معًا. ولهذا تحولت الكتلتان إلى «تجمعات عسكرية واقتصادية وسياسية تزداد قوة وتثير حتما بحكم منطق وطبيعة العلاقات بينهما تفاقما فى العلاقات الدولية بين وقت وآخر ، وأن الحرب الباردة والخطر الشديد الدائم من تحولها إلى حرب فعليه أنما أصبح جزءً من الموقف الراهن فى العلاقات الدولية».

كيف بدأت

وفي خلال الحرب العالمية الأولى وقع الحدث الذى قلب كل موازين القوى، ومقاييس التوازن، وهو الثورة الروسية، ولم تكن هذه الثورة مجرد تغير فى نظم الحكم أو انتقال السلطة من فئة إلى أخرى، ولكنها كانت قلبا لكل الأسس والقيم التى قامت عليها السياسة والاقتصاد والاجتماع فى الغرب، وقدمت عقيدة جديدة ، ونظما جديدة وسياسات أخرى كانت فى مجموعها تحد يهدد كل الأسس والنظم التقليدية.

ومنذ قيام الثورة الروسية أصبح الصراع الأوروبى فى مجمله صراعا من نوع جديد، لم يعد صراعا بين مصالح ومطامع دول ذات نظم وأسس واحدة ولكن صراع بين مذهبين ونظامين ومجتمعين كل منهما نقيض الآخر وهما الرأسمالية والشيوعية.

وكانت المعركة القادمة والفاصلة هى معركة بين «الرأسمالية» وبين الشيوعية لولا تدخل عامل جديد هو الفاشيستية.

وكانت الفاشيستية مذهبا ونظاما ومجتمعا جديدا يتحدى الرأسمالية ويتحدى الشيوعية، ويريد القضاء على كليهما وفرض فلسفته ونظمه وسياسته على العالم.

ومنذ ظهور الفاشيه أصبح هم الرأسماليين أن يذكوا الصراع بين الفاشيست والشيوعيين وأن يجعلوا المعركة تنشب بينهما لتقضى عليهما.

وأصبح هم الشيوعيين أن يذكوا الصراع بين الرأسماليين والفاشيت لتنشب الحرب بينهما وتقضى عليهما.

ودارت عجلة التاريخ بشكل آخر، ووجد الرأسماليون والشيوعيون أنفسهما فى صف واحد ضد عدو مشترك هو الفاشيستية، وكانت الحرب العالمية الثانية صراع مذاهب ونظم وكتل كما كانت صراع مصالح ومطامع وأحلام سيادة عالمية.

بعد الحرب

وحينما انتهت المعركة ضد الفاشية وجد الرأسماليون والشيوعيون أنفسهم فى مواجهة بعضهما مرة ثانية كمذهبين ونظامين ومجتمعين، لا حياة لأحدهما إلا بالقضاء على الآخر أصبحت الرأسمالية فى كل مكان تهديدا للشيوعية فى كل مكان وأصبحت الشيوعية فى

أى مكان تهديدا للرأسمالية فى كل مكان.

وأصبح هم الرأسماليين فى كل أرجاء الأرض هو تجميع قواهم وتنسيق مواردهم واعداد مدافعهم للمعركة الأخيرة والحاسمة، وأصبح هم الشيوعيين ومحور سياساتهم هو التجمع والتكتل والتسلح لدفع خطر الفناء القادم.

وهذا الاستعداد لإفناء بعضهما هو ما سمى الحرب الباردة، وهى كانت مؤدية حتما إلى حرب ساخنة لولا تدخل عوامل أخرى أقوى من إرادة الدمار والفناء.

ظهرت مجموعة الدول غير المنحازة فى آسيا وأفريقيا وقد أقامت الدول الرأسمالية ثراءها وسطوتها على حساب استعمارها واستغلالها، للموارد الاقتصادية والبشرية لثلاث قارات متخلفة هى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وقد هبت شعوب هذه القارات وقررت أن تنفض أغلالها وقيودها وأن تخترق ستار الظلام والنسيان الذى فرض عليها وأن تلعب دورها وتحمل رسالتها إزاء شعوبها وإزاء المجمع العالمى كله.

قوة جديدة

وكان خروج هذه الدول، ضربة قاصمة قلمت أظافر الدول الرأسمالية التى اعتمدت على مواردها ومواقعها وأهاليها فى تدعيم سيطرتها وسيادتها.

وإذ طرحت هذه الدول السيطرة الاستعمارية والرأسمالية ولم تنطو تحت الكتلة الاخرى، فقد قررت محافظة على بقائها، وحفظا للسلام فى العالم أن تتضامن وتتكاتف ، وتقف حاجزا وسدا عازلا يمنع اصطدام الكتلتين.

كانت الدول غير المنحازة دولا صغيرة خرجت من قرون طويلة من الاستغلال والاستعباد، وتريد أن تنعم بالحرية والرخاء الذين حرمتهما زمنا طويلا.

وكانت الدول غير المنحازة دولا جديدة، ذات نظم جديدة ومبادئ جديدة ، بل وكانت تجارب جديدة فريدة فى تاريخ الإنسانية، وهى تريد إثبات هذه التجارب ، وتريد تحقيق مثلها وقيمها..

لم تكن الدول غير المنحازة ، تريد أن تفرض مبادئها أو نظمها على العالم أو ترى أن لابد للإنسانية أن تسلك هذا الطريق أو تعتنق هذا المذهب، ولكنها كانت تريد أن يكشف كل شعب بنفسه عقيدته وطريقه وأن يخوض بنفسه كل تجاربه.

جيش السلام

كان السلام بالنسبة للدول غير المنحازة عقيدة وضرورة وكانت الدول غير المنحازة هى الجيش المثالى للجهاد من أجل السلام.

ولأول مرة فى التاريخ ظهرت على المسرح الدولى مثل هذه القوة المتماسكة المتضامنة ولأول مرة فى التاريخ تقدم مثل هذه المجموعة المتفاهمة المتناسقة من القادة، من رجال يجمعون بين الحكمة والتجربة والحركة ويعبرون عن شعوبهم، ، وعن ماضيها ومستقبلها وتراثها، بقدر ما يعبرون عن المثل الإنسانية عامة.

ولأول مرة فى التاريخ ظهرت مجموعة من الدول والشعوب، تحتفظ كل منها بذاتيتها كاملة وسيادتها كاملة ومثلها ومصالحها كاملة، ومع هذا يجمعها أكبر قسط مشترك من الإيمان والإخاء والسلام والتعاون.

ولأول مرة فى التاريخ، ظهرت أسس جديدة إنسانية مثالية فى العلاقات بين الدول، وظهرت مجموعة من الدول لا تتربص أحداهما بالآخرى، ولا تحتقر إحداهما نظم أو قيم الأخرى ولا تغلق إحداها قلبها وعلقها دون الآخرى ولاتود إحداها فناء وانقراض الأخرى، ولكن تتفاهم جميعها وتتفاعل جميعها، وتتبادل جميعها ما لدى كل منها من ثقافات وعلوم وتجارب وموارد.

النموذج التاريخى

وهكذا قدمت الدول غير المنحازة نموذجا للأسرة الدولية وكيف ينبغى أن يكون، وللعلاقات بين الدول والشعوب، وعلى أى الأسس ينبغى أن تقوم وتطلعت كل شعوب العالم شعوب الدول الكبرى والصغرى على السواء إلى هذا المثل، لقد خاضت البشرية حربين عالميتين فى خلال أقل من نصف قرن، ورأت البشرية الفظائع والأهوال والجرائم، ماستقر إلى الأبد فى ضمير الشعوب، ومن الحمق والجنون أن تستعد البشرية لحرب ثالثة أشد هولا وفتكا.

ولقد أدركت البشرية من خلال هذين الحربين ، ومن خلال الاستعداد للحرب، يستطيع أن يحقق الرخاء والسلام والحرية، لغالبيتها العظمى التى ترسف فى أغلال الجوع والفقر والمرض والعبودية.

ولقد أدركت البشرية أن الدفاع عن الحرية وعن الإنسان، الذى يستعد الكل للحرب باسمه ، لا يمكن ان يتم بتدمير الإنسان أو القضاء نهائيا على الإنسان إن الحرب أصبحت تعنى نهاية الحياة ونهاية البشرية.

وإذا كان ظهور مجموعة الدول غير المنحازة ، ونموها، هو العامل الإيجابى والأول فى معركة السلام، فإن هناك عاملا آخر سلبيا ولكن حاسم فى هذه المعركة، وهو تغير أساليب الحرب.

والحرب هى حسب التعريف التاريخى لكلا وسفتر «امتدادا للسياسة بشكل آخر» أى أن الحرب لابد أن تحقق هدفا أو غاية ، وتكون تعبيرا من سياسة معينة ، ولا يمكن أن تكون الحرب نزوة أو هواية أو انفجارا عاطفيا.

وقد كانت الحرب تقوم لأنها الحل المباشر للمشاكل، ولأنها كانت تنتهى دائما بانتصار أحد الطرفين المتحاربين وهو انتصار يمكنه عن أن يملى شروطه، ويصوغ حياته وحياة خصمه وفق مطامعه.

وقلبت الأسلحة الجديدة اللذرية والنووية هذه الأسس لقد وصل التسابق فى التسليح الذرى والنووى بين الكتلتين حدا جعل الحرب لا يمكن أن تحقق غرضا ولا يمكن أن تحل مشكلا، لأنها لن تؤدى إلى غالب ومغلوب.

الفناء المتبادل

ولقد مكن التسابق فى التسليح الذرى والنووى لأمريكا والكتلة الرأسمالية أن تملك الأسلحة الكافية لمحو وسحق روسيا والكتلة الشيوعية كلها، ومكن هذا التسابق لروسيا والكتلة الشيوعية أن تملك ما تفتى وتبيد به أمريكا والكتلة الرأسمالية عن آخرها.

ولن تؤدى الحرب بينهما إلى انتصار أحدهما بل إلى انقراضهما معا، وربما إلى انقراض البشرية كلها.

ومهما تفوقت إحداهما على الأخرى فى نوع الأسلحة أو فى حجمها إلا أن هذا لن يغير شيئا من النتيجة ، إلا أن تفنى أحداهما قبل الأخرى ببضع دقائق أو ثوان.

وقد أصبحت هذه بديهيات يعرفها الجميع من أكبر قائد إلى أصغر جندى فى كل جيش من جيوش العالم، وأقصى ما وصل إليه فى الحرب فى ظل هذه الأسلحة هو ما ابتدعه المرحوم دالاس وهو السير إلى حافة الحرب والنظر إلى الهاوية ثم الرجوع بمهارة، وأصبح الانتصار فى الحرب هو أن لا تخون الواقف على حافة الهاوية أعصابه أو يبدى فزعا أو هلعا أو ينسحب بلا مهارة فتتأكد عليه الهزيمة !!

ميزان الرعب

وهكذا أصبحت الحرب «ليست أسلوبا بائدا فحسب وإنما هى جريمة ضد الإنسانية» وهكذا أصبت «لا تهدد البشرية من قبل بعواقب أوخم مما تهددها اليوم».

إن كل سياسى وعسكرى فى كلا الكتلتين يعرف تماما ما سوف تؤدى إليه الحرب، وهذاما يجعل الحرب مستحيلة ، ولكن تكدس الأسلحة الذرية والنووية والسباق على اختراعها واتقانها، والتمرينات المستمرة على الذهاب والرجوع من حافة الحرب وفى ظل

أزمات حادة عنيفة ، كل هذا لا يلغى نهائيا احتمال وقوع الحرب، وانفجار الهول الأكبر.

وهكذا تعيش البشرية فى ظل رعب دائم وشامل ويكون الضمان هو أن هذا الرعب متبادل، وأن الكارثة ستوزع بالتساوى وهى حالة أصبحت تسمى فى القاموس السياسى «ميزان الرعب».

والحياة فى ظل ميزان الرعب هذا هى نوع من الدمار ومن الإفلاس الروحى ، وهى قضاء بطئ على كرامة وطمأنينة ، ومعنوية الإنسان، وهى سلبية مريعة تؤدى إلى الانتحار.

وقد رأت الدول غير المنحازة أن تحقيق السلام لابد وأن يبدأ ، بالقضاء على «ميزان الرعب» هذا، لابد من إزاحة الرعب المتبادل، وإحلال التفاهم المتبادل ،لابد من تبديد إرادة الفناء وإرادة الإنتحار وإحلال إرادة البقاء وإرادة الحياة. لابد من استبعاد الحل المدمر السلبى، والوصول إلى حل إيجابى إنشائى خلاق.

وقد قاست الدول غير المنحازة أبعاد هذا العالم، ووجدت «إنه لم تتهيأ للبشرية فى أى وقت مضى قوى أشد مما أتيح لها اليوم للقضاء على الحروب كأداة سياسية فى العلاقات الدولية»

التعايش السلمى

ووجدت أن هناك بديلا للحرب هذه ،هو «مبادئ التعايش السلمى وهى هذه الظروف البديل الوحيد للحرب الباردة وللكارثة الذرية الشاملة المحتمل وقوعها».

ووضعت الدول غير المنحازة أشمل تعريف وضع حتى الآن للتعايش السلمى وهو «أن المبادئ التى تتضمن حق الشعوب فى تقرير مصيرها وحقها فى الاستقلال وفى حرية تقرير أشكال وأساليب تطورها الاقتصادى والاجتماعى والثقافى يحب أن تكون الأساس الوحيد لكافة العلاقات الدولية، وأن التعاون الدولى الفعال فى ميادين التبادل المادى والثقافى بين الشعوب هو وسيلة ضرورية لتقوية الإيمان وقيام التعايش السلمى بين الدول ذات النظم الاجتماعية المختلفة وفى هذا الصدد يؤكد المشتركون فى المؤتمر أن سياسة التعايش تعنى بذل جهد فعال للقضاء على صور الأوضاع التاريخية غير العادلة كاضطهاد الشعوب وتكفل هذه السياسية فى الوقت ذاته لكل شعب تطوره المستقل. ولما كانت البلاد المشتركة فى المؤتمر تدرك أن اختلافات فى العقائد هى بالصورة جزء من نمو المجتمع الإنسانى، فإنها تعتبر أن على الشعوب والحكومات أن تمتنع عن استخدام هذه العقائد كأداة فى شتى حرب باردة أو ممارسة أى ضغط أو فرض لإرادتها».

إن التعايش السلمى يعنى أولا أن تتحرر إرادة كل الشعوب، لكى يختار كل شعب

طريقه وعقيدة حياته وتعنى أن يعترف كل شعب، بحق مماثل لكل الشعوب الآخرى، ويعنى أن يقوم التعاون بين الشعوب والدول على أساس احترام كل شعب لاستقلال وسيادة الآخرين، وعلى أساس فهم كل شعب لوجهة نظر كل شعب آخر، ومواجهة المشاكل والعقبات على أساس الفهم المتبادل والرغبة المشتركة فى الوصول إلى حل.

والتعايش السلمى يعنى بالنسبة للكتلتين أن يحتكما إلى شعوب العالم، ويحتكما إلى التاريخ لا إلى السلاح.

ويعنى أن تتنافس الكتلتان تنافسا إيجابيا فى شرح وعرض مزايا فلسفاتهما ونظمها وتراثهما، وفى مزايا الحلول التى يقدمانها لمشاكل العالم كله ولمشاكل الإنسان الحقيقية، الجوع والجهل والمرض والخوف ويتركا للإنسانية كلها أن تختار، ويتركا للتاريخ أن يثبت أيهما على صواب.

إن التعايش السلمى يعنى أن يقبل كلاهما وجود الآخر كحقيقة باقية دائمة وأن يحاولا ابتداء دبلوماسية جديدة وسياسة جديدة ، تكفل لهما البقاء متجاورين وتكفل لكل منهما فهم الآخر، والتفاعل الخلاق والجدل الإيجابى مع الاخر، وتيسر لكل من يريد من عندهما الوصول إلى حل أو اكتشاف حل للمشاكل القائمة وتدعم التبادل الثقافى والعلمى والاقتصادى، بينهما، إن هذا يؤدى إلى ذوبان الكتل، واسترداد كل شعب لارادته كاملة، ويعنى أن لا يبقى هناك تابع ومتبوع، بل دول وشعوب مستقلة متحررة تؤمن بالسلام والحياة وتجمعها جميعا وعلى قدم المساواة منظمة تتطلع إليها البشرية كلها وهى الأمم المتحدة.

مالا نتعلمه من الهند



ذات يوم فى وزارة التخطيط الهندية قال لى أحد كبار موظفيها «إن أحسن ما تتعلمه الشــعــوب من الهند هو أخطاؤها ليس هناك خطأ لم نرتكبــه ونحن نحــاول أن نطبق الاشتراكية.. ويهيأ لى إننا دفعنا ثمن «الرائد» وكل ما يدفعه الذى يدخل غير مستعد إلى طرق مجهولة».

ومضى الموظف الكبير بصراحة الهنود وبساطتهم يقول «خير ما تعلمه الهند، وخير ما تتعلمونه من الهند، ربما هو كيف يجب أن لا تكون الاشتراكية وهذا لا يعنى بحال إننا غيرنا طريقنا الخاص إلى الاشتراكية أو أننا لن نصل .. فليس هناك شعب يحب الحياة مثل شعبنا «الزاهد» هذا، وليس هناك شعب يتشبث بشخصية مثل شعبنا الوديع المسالم هذا».

وأخطاء الاشتراكية فى الهند كثيرة ،ولكن لعل أولها وأهمها هو.. الإصلاح الزراعى.

ولقد حكم البريطانيون الهند، عن طريق الإقطاعيين، والمهراجات والنواب، والنظامات، ثم الزامندار والجاجيردار والملوادار.. إلخ.. وحينما قضوا على إمبراطورية المغول والارستقراطية «الوطنية المغولية، وزعوا الأرض على أرستقراطية جديدة، حكمت الهند واستغلتها فى ولاء وتفان تام وغريب للبريطانيين..

وحينما بدأت الحركة الوطنية، اتجه غاندى رأسا إلى القرية. حمل العصا والمغزل والمعزة وطاف قرية قرية، مشى على رجليه ليزور نصف مليون قرية تقريبا، لأن وطأة الاستعمار والاستغلال الكبرى كانت تقع على الفلاحين، وغاندى لم يكن درويشا أو ساذجا أو يسيره إلهامه، ولكن كان استراتيجيا وتكنيكيا ثوريا من الطراز الأول.. كان يعرف أن القوة الثورية الأولى فى الهند هى الفلاحون، ويوم يصل إلى قلوبهم ويوقظهم ويثيرهم. فقد استقلت الهند وقد استطاع، تحدث معهم بلغة هندية ونفذت إلى روحهم «الهندية» ووضع يده على مفاتيحها وأسرارها.

وبعد الاستقلال.. كان القضاء على الإقطاع فى الهند هو المهمة الأولى والرئيسية، وكان يجب أن يكون قضاء مبرما، حاسما، فليس هناك طبقة خانت بلادها، واضطهدت وبطشت بشعبها مثل الإقطاعيين الهنود.. وكانت النظم الإقطاعية الهندية نظما تزرى بما كان سائدا فى القرون الوسطى، بعضهم كان يملك ملايين الهكتارات، ولا يلتزم بشىء إلا بدفع الضرائب للحكومة، ثم يمنحها من الباطن للملتزم وهذا الملتزم آخر، حتى يبلغ الوسطاء أحيانا، عشرين أو ثلاثين «حائزا» يعمل لحسابهم جميعا الفلاح الهندى.

ولكن قوانين الإصلاح الزراعى أولا صدرت على هيئة توصيات من الحزب للحكومات الإقليمية هى التى تصدر هذه القوانين وتطبقها، ولما كانت النظم الزراعية ونظم الملكية تختلف من كل ولاية إلى الأخرى، فقد اختلفت قوانين الإصلاح الزراعى، من ولاية إلى أخرى واستطاع الإقطاعيون الذين يتمتعون بنفوذ كبير – لازال فى الحكومات الاقليمية –، ولدى «بيرقراطية» الريف أن يعيثوا فسادا فى تطبيق وتنفيذ هذه القوانين. بحيث أصبحت تكاد تكون حبرا على ورق.. وبعضهم كان أشد جرأة «وصفاقة» فقد أقاموا الدعوى أمام المحكمة العليا الاتحادية، وأمام المحاكم العليا للولايات، يطعنون فى دستورية قوانين الإصلاح الزراعى، وفى منافاتها «للديموقراطية» وحقوق الإنسان، ووجدوا بين كبار المحامين وكبار القضاة.. من يدافع عنهم ويحكم لهم، ولم تستطع الحكومة مواجهتهم إلا بتغيير الدستور كله.. ولم ينص قانون الإصلاح الزراعى الهندى على تحديد الملكية، وإنما نص فقط على إلغاء «الوسطاء» فقط بين الملتزم والفلاحين، ولهذا استطاع عدد كبير من هؤلاء الملتزمين أن يتخلص من الوسطاء وأن يتسلم الأرض كلها.. وأن يزرعها أو يؤجرها لأقاربه أو لفلاحيه المختارين، ولهذا اصبحت القوانين تكاد تكون بغير فائدة.

وحينما أدركت الحكومة أنه لابد من تحديد الملكية، وإقامة حد أعلى للملكية وتوزيع

الباقى على الفلاحين أسرع هؤلاء الإقطاعيون وهم يعرفون اتجاه الحكومة، ويعرفون القوانين قبل أن تصدر وباعوا أراضيهم بيعا صوريًا.. لأقاربهم أو ذويهم أو صنائعهم، وبذلك.. ضاع الغرض من القانون مرة أخرى..

وفى نفس العام سنة ١٩٥٩ الذى أصدر حزب المؤتمر توصياته بتحديد الملكية فيه ،أصدر أيضا توصية بالزراعة التعاونية والتجميع الزراعى. أن ٦٠٪ من الملاك عندنا أقل من خمسة أفدنة .. بل وبعضهم يملك مزارع لا تزيد عن بضعة قراريط، ومثل هذه الزراعة الفردية الصغيرة المتخلفة لا تتفق والتصنيع والاشتراكية ورفع مستوى الفرد، وأوضح قرار حزب المؤتمر أن الزراعة التعاونية والتجميع الزراعى لا يعنى بحال إلغاء الملكية الفردية، وإنما تنظيم وترشيد الزراعة ومع هذا أثاروا ضجة كبرى فى الهند، بل وقاموا بتأليف حزب سياسى جديد هو حزب «السواتنادرا» أى الحرية، وترأسه أحد زعماء حزب المؤتمرالسابقين وأول حاكم عام للهند المستقلة ، وهو «راجا جوبا لانشارى» لأن حزب المؤتمر لم يعد يضمن مصالحهم.. وأعلن الحزب الجديد أن الزراعة التعاونية ضد الحرية والديمقراطية وتراث غاندى. وأن رسالته هى مكافحتها.

وبهذا فإن الإصلاح الزراعى الذى كان يجب أن يأخذ فى الهند شكل ثورة زراعية ويقلب رأسا على عقب كل علاقات الحياة والمجتمع فى الريف، قد تحول فى معظمه إلى اجراءات قانونية ونصوص فلم تنقل من حيز التشريع إلى التطبيق.

والخطأ الثانى الكبير هو تحديد دور وحدود القطاع الخاص..

وقد أثبتت التجربة الهندية أن التعايش بين القطاع الخاص والعام، هو افتراض نظرى، لأن الرأسمالية لا تغير من طبيعتها، والرأسماليون، قلما يدركون تغير الظروف، أو يقبلون الانصياع لتقلص السلطة والثروة وما لم يكن القطاع العام قويا ومهيمنا وموجها توجيها حقيقيا، فإن مهمة القطاع الخاص تصبح إعلان الحرب عليه حتى أثبات فشله.

وقد أرادت الهند أن تستغل قدرة الطبقة الرأسمالية الهندية النامية على الإنتاج، وأعلنت أن اقتصادها سيكون اقتصادا مختلطا ،وكانت نسبة القطاع العام إلى القطاع الخاص فى مشروع الخمس سنوات الأول هى النصف، وفى المشروع الثانى هى ٥٤٪ عام إلى ٤٦٪ خاص وفى الثالث، ٦٠٪ عام إلى ٤٠٪ خاص.

ولكن منذ اللحظة الأولى.. نشبت الحرب الباردة بين القطاعين واشترى القطاع الخاص كل الصحف الهندية تقريبا وسخرها للدعاية له، ولنقد وتسفيه القطاع العام ،وهذا أحد عجائب الهند واستطاع بخبرته الاقتصادية والمالية أن يضع كل العراقيل أمامه .. استطاع

مثلا ، بالمرتبات الكبيرة المغرية أن يجتذب معظم المديرين الأكفاء واستطاع بسيطرته على «البيروقراطية» الهندية التى تدير القطاع العام أن يعرقل ويبطئ خطواته، واستطاع بنفوذه لدى دوائر «الرأسمالية العالمية» أن يجعل المساعدات الغربية، مشروطة بأن تذهب كلها أو معظمها للقطاع الخاص وكان الخطأ الثالث هوالتسامح إزاء الرأسمال الأجنبى.. ولعل من أغرب الحقائق أن الرأسمال الأجنبى فى الهند المستقلة الاشتراكية، هو ضعف الرأسمال الأجنبى الذى كان مستثمرا فى الهند المستعمرة والأرباح التى تخرج من الهند هى ضعف ما كان يخرج منها أيام الاستعمار ومهما تخفى هذا الرأسمال تحت واجهات هندية أو اشترك فى استثمارات «مختلطة» مع الهنود، إلا أنه لا زال أجنبيا فى مصالحه وفى تنافيه مع مصالح الشعب الهندى.

والخطأ الرابع هو الجهاز الحكومى الهندى، وهو جهاز رهيب، أنشأه الاستعمار البريطانى، فى خلال قرن ونصف الاستعباد واستنزاف دم الأربعمائه مليون هندى، وامتد كالأخطبوط من العاصمة حتى كل شبر فى الهند، وأصبحت له أساليب وتقاليد وتراث، تكون جيلا بعد جيل، ورسخت لديه أفكار وأراء زرعها فى أعماقه سادته المستعمرون..

وبعد الاستقلال، كان أول ما تحتاجه الهند هو «ثورة إدارية» تطيح بهذا الهرم الجاثم.. وتستبدل نظمه وأشخاصه، بوطنيين وأكفاء.. ولكن حزب المؤتمر لم يكن يملك العناصر المدربة التى تصلح.. «كنا مهيجين ومكافحين ولم نعن بتعلم أسرار الحكم والإدارة ولم يكن ممكنا» وهو ليس مبررا كافيا.. ولكن السبب الحقيقى، هو أن هذا الجهاز الإدارى لم يتناقض كثيرا مع مصالح «اليمين» فى حزب المؤتمر وأثبت ولاءه له فور الاستقلال حتى لقد قال ديساى مرة «أن من نعم الحكم البريطانى أنه ترك لنا هذه الإدارة وبذلك لم تقع الهند فى براثن الفوضى!

وهذا الجهاز هو الذى ينفذ ويدير اقتصاد وسياسة ودبلوماسية الهند، وهو يكافح باستماتة لتظل الهند فى فلك الغرب، وذات يوم نقل نهرو سفيرا هنديا فى عاصمة عربية ، لأن تقاريره إلى وزارة الخارجية الهندية كانت تتفق مع وجهة النظر الإنجليزية فى المشاكل العربية تماما وبالبحث اتضح أن هذا السفير «الهندى» كان سكرتيرا «للسفير البريطانى فى هذه العاصمة، حينما كان البريطانى موظفًا كبيرا فى حكومة الهند البريطانية!

والخطأ الخامس كان الجهاز السياسى.. وقد أثبت حزب المؤتمر أن التنظيم السياسى الذى يحقق الاستقلال.. ليس هو التنظيم الذى يحقق الاشتراكية إلا لو تمت فيه تغيرات جذرية وثورية.

وقد كان نهرو نفسه يقول إذا لم تؤد الديموقراطية إلى الإشتراكية. فلا معنى للديموقراطية ،وأنا على استعداد لأضحى بها.

وليمه فعل.

وتحقيق الاشتراكية بالطريق الديموقراطى، كان يستدعى حزبا جماهيريا حقيقيا، ذا قيادة وطليعة اشتراكية حقيقية بين العمال والفلاحين والمثقفين وذا برنامج أصبح يستطيع أن يكسب الانتخابات وأن يحصل على أغلبية ساحقة وأن يقود المعارك السياسية فى البرلمان وخارجه لإقرار وتطبيق القوانين الاشتراكية وحمايتها بالوسائل الدستورية.

ولكن أعداء الاشتراكية فى حزب المؤتمر كانوا أكثر من أعدائها فى خارجه.

وكان نهرو يدرك هذا ،وكان كما قال لى أحد المقربين منه يوما «يتقزز من هؤلاء الذين يتسمون كل يوم فى وجهه ويرددون شعاراته ويعملون ما ينافيها ،ولكنه كان يعتز بالحزب كاستمرار لتاريخ وتراث الهند، وكالعمود الفقرى الذى حفظ وحدة الهند المهددة دائما بالأخطار.. وكان يكافح لكى يطهر الحزب من هؤلاء، ويضم له جيلا جديدا ودما جديدا..

وحينما يستولى اليمين على حزب الأغلبية وحينما تتفتت أحزاب المعارضة الاشتراكية والشيوعية، وحينما تتوافر الحرية لأحزاب التعصب والرجعية ، مثل حزب الحان سان، الذى يدعو «الهند للهندوكيين فقط» وحينما يستطيع الإقطاعيون، وكبار الرأسماليين والمهراجات أن يؤلفوا حزبا جديدا.. وأن يسموه حزب الحرية.ويكسبون به مقاعد فى البرلمان.. كانت مرشحة هذا الحزب هى «المهرانى جايبور» وكسبت.. مقعدا فى ولاية راجستان .. فلا يمكن أن تتحقق الاشتراكية عن طريق هذه الديموقراطية. ولكن هذا لا يعنى بحال.. أن الهند لن تكمل طريقها إلى الاشتراكية.

وكما اكتشف غاندى طريقها الخاص إلى الحرية وقادها من خلاله. وكما اكتشف نهرو طريقها إلى الاشتراكية ووضع أقدامها على بدايته فسوف تنجب الهند من يعبر بها باقى الطريق.

- ٧ من يونية ١٩٦٤



نهرو.. انتهت الرحلة!



حينما قتل «غاندى» ذهب نهرو على الفور إلى دار الإذاعة ، وارتجل رثاءه المشهور «أيها الأصدقاء والزملاء إن النور قد انطفأ من حياتنا، والظلام يلف كل شيء.. إن قائدنا المحبوب بابو أبو الأمة ، لم يعد معنا، وربما كنت مخطئا في هذا، ولكننا لن نراه بعد اليوم كما رأيناه طوال السنين الماضية، لن نهرع إليه نتلمس النصيحة، ونبحث عن الطمأنينة ،وهذه ضربة قاصمة، ليس لي وحدي ، ولكن للملايين والملايين في هذا البلد، وأنه لمن الصبر تخفيف الصدمة ، بأى نصيحة أقدمها أنا أويقدمها غيرى».

ومضى نهرو يقول «لقد انطفأ النور، في الوقت الذى كان لا زال أمامه الكثير ليحققه ، فإن أحدا منا لم يكن ليستطيع أن يتصور أنه قد أصبح غير ضرورى لنا، أنه قد أدى دوره ومهمته ، بل إن ذهابه الآن والمشاكل تحيط بنا من كل جانب ضربة فظيعة، أفظع من أن تحتمل.. لقد وضع مجنون نهاية لحياته.. لأنه كان هناك سم ينفث في حياتنا طوال السنين والشهور الماضية».

وحينما انعقد البرلمان الهندى بعد الحادث ،وقف نهرو ليقول «إن مجدا عظيما قد غادرنا ورحل ،إن الشمس التى أشرقت في حياتنا وملأتها بالدفء قد غابت، وها نحن نرتجف في البرد والظلام» واستطرد قائلا «لقد ارتفع بهذا البلد في خلال الثلاثين عاما

الماضية، إلى أفاق من السمو والتضحية، لم يرتفع إليها أحد فى مكان آخر ، لقد كان هذا نجاحه، ومع هذا، فقد حدثت أشياء فى النهاية، كانت تجعله بلا شك يتألم أشد الألم وأقساه، وإن ظل وجهه الرقيق يحمل ابتسامته، ولم ينبس بكلمة واحدة جارحة.. ولكنه تألم ، لابد.. تألم لأن هذا الجيل الذى رباه والذى دربه قد فشل، وقد حاد عن الطريق الذى أرانا إياه.. وأخيرا امتدت يد ابن من أبنائه.. وهو ككل هندى ابن له، فوجهت الضربة التى وضعت النهاية» « لقد كان أعظم رمز للهند الماضية، واسمحوا لى أن أقول، وللهند المستقبلة، ونحن نقف الآن على حافة الخطر.. فى الحاضر، بين ذلك الماضى وبين المستقبل، ونحن نواجه كل أنوا ع الخطر ولكن أشدها أحيانا هو فقدان الثقة، وخور القلب والروح حينما نرى مثلنا العليا مطروحة بعيدا ،وحينما نرى الأشياء العظيمة التى طالما تكلمنا عنها أصبحت كلمات فارغة وأن حياتنا تأخذ طريقا آخر.. ومع هذا فإننى لارجو أن تكون هذه الفترة عارضة مؤقتة وأن تمر وتختفى سريعاً»

وحينما مات نهرو، لم يكن هناك من يستطيع أن يرثيه هذا الرثاء .. وإن كان لا زال ينطبق عليه هو، ولا شىء ينطبق مثله، لقد وقف هو بعد عام من مقتل غاندى ليقول «إننى أحس باليتم ولا زالت الهند كلها يتيمة» ولكن ربما كان اليتم الحقيقى هو اليوم، وفى ذلك الحين كانت الهند كلها مثقلة بالجريمة ولكن كان الإحساس أن المهاتما قد ذهب، وقد قتلناه، ولكن بقى لنا جواهر لال، وسوف يخلصنا وينقذنا ،ويمسح الخطيئة. ولكنه هو الآخر قد ذهب ، ولم يفعل، ويكمل المهمة.

لقد مات «القديس» بحسرة عميقة لا شك ، لأن الجيل الذى علمه والذى سما به والذى قاده إلى أفاق عليا من الكفاح والتضحية قد فشل.

كان غاندى يريد أن يحرر الهند بالحب وبلا عنف، أن يحب الهنود بعضهم ، وأن يحبوا حتى أعداءهم، مستعمريهم ومستغليهم، وبقوة هذاالحب، وبالصلابة الداخلية والروحية سوف يقهرون ضعفهم، وسوف يقهرون أعداءهم.. ولن يؤذوا كائنا، ولن يريقوا قطرة واحدة من الدم.

واستطاع غاندى أن يحقق المعجزة.. كان هذا يبدو، صلوات وتراتيل كاهن، لا عقيدة واستراتيجية لسياسى وقائد شعب ، ولكن «شخصية» غاندى.. جعلت مبادئه ، حقيقة وقوة دفع.. ثورى. حول غاندى ضعف الهند ، التى جردها البريطانيون كما لم يجردوا أحدا من كل شىء.. إلى قوة واحتمال. وحول غاندى استسلام الهند التى سحقها البريطانيون كما لم يسحقوا أحدا، إلى صمود، ومقاومة..

واستقلت الهند..

ولكن نتيجة الاستقلال كانت مفزعة.. لقد شطرت الهند إلى شطرين ، فى «عملية جراحية وحشية لم يعرف لها مثيل فى التاريخ» كما قال نهرو «لم يكن هناك طريق للتخلص من بين الشطرين، براكين مكبوتة كانت تخفى طوفانامن الحقد المسموم.. لم يتصوره أحد، وقتل الهندوس ملايين من المسلمين، وقتل المسلمون الملايين من الهندوس وكلهم طبعا «هنود» «أبناؤه» وأبناء الجيل الذى «رباه »والذى فشل.

وعصفت المأساة.. بكيانه، وبكل ما عاش من أجله وكتب «يقولون لى أن حياتك قد ذهبت هباء وأن الريح قد حملت وبددت كل ما حققت، ولكننى سأظل أومن بالهند وبالإنسان» ولكنه لم يظل كثيرا فإن السم سرى حتى وصل إلى باب صومعته، وانطلقت ثلاث رصاصات «هندوكية» لتضع حدا لحياته «وانتهت رحلته الاخيرة، آخر مرحلة فى طريقه المقدس، وطوال خمسين عاما هام غاندى على وجهه فى كل أرجاء هذه البلاد، العظيمة، من الهملايا وجبال الشمال الغربى ومن البراهما بوترا والشمال الشرقى حتى الكانيا كومارى فى أقصى الجنوب، لقد زار كل ركن فى هذا البلد، ولم يذهب كسائح يتسلى، ولكن لكى يتعلم كيف يخدم شعب الهند.. وربما ليس هناك هندى فى تاريخنا كله قد طاف الهند وعرفها كما فعل هو، وربما ليس هناك فى تاريخنا كله، من عرف الشعب العادى يمثل هذه المعرفة، ومن بذل حياته من أجلهم بمثل هذه التضحية . والآن انتهت رحلته فى هذاالعالم.. وإن كان لازال علينا أن نسير وإلى حين»؟

ولكن قبل أن تنتهى الرحلة بزمن طويل، كان غاندى قد اختار وانتقى «ابنه وخليفته» وأعلن أن «جواهر لال ابنى وخليفتى» ورغم المعارضة الشديدة أصر «أن جواهر لال ابنى وخليفتى إنهم يقولون لى أنت هندوكى مؤمن وهو لا يؤمن إلا بالعقل، وأنت نباتى متقشف وهو يأكل اللحم، وأنت فردى تؤمن بالمعزة والمغزل، وهو عصرى يؤمن بالمدنية والآله، وأنت إنسان تؤمن بالأغنياء والفقراء، وبوصاية الأولين على الآخرين وهو اشتراكى يؤمن بالفقراء وإزاحة الأغنياء، وأنت ترى الحب وعدم العنف عقيدة، وهو يراها استراتيجية وسياسة.. ومع ذلك فإن جواهر لال هو ابنى وخليفتى»!

وكان رأى الهنود الوطنيين ، أن نهرو هو الاستمرار الطبيعى لغاندى.. ولكفاح الهند، لقد استطاع الأول أن يوقظ الهند وأن يصل إلى قلبها وروحها وأن يعبئها، وأن يسير بملايينها الغفيرة إلى الحرية..

وسوف يكون على «نهرو» أن يكمل الطريق ، لقد حرر غاندى «الهند القديمة» الهند

الأم، وعلى نهرو أن يبنى «الهند الجديدة» الهند العصرية الحديثة.. لقد جاء غاندى بالحرية وعلى نهرو أن يحقق الاشتراكية..

وكانت الهند بأغلبيتها العظمى، لا تشك لحظة فى أن نهرو هو أول المرحلة.

ولم يكن هناك من يعرف حدود وأبعاد وتبعات دوره ومهمته مثل «نهرو» نفسه.. ولكن الرجل الذى كان دائما يقول، لا يكفى أن تعرف ،بل يجب أن تجرؤ وتفعل.. ذهب فى منتصف الطريق، عند المنحى الخطر..وبحسرة تشبه حسرة سلفه وأبيه الروحى!

ذات يوم من خلال المعركة الوطنية فى الهند، زار جون جنتر المعلق الأمريكى الهند، وكتب يقول: إن أعجب ما أثاره فى الهند هو أن الموظفين البريطانيين الذى يحكمون الهند لا يزيدون عن ستمائة ، وأن عدد القوات البريطانية التى تخضع الهند لم تزد يوما عن عشرة آلاف وقد استولى البريطانيون على الهند واستعبدوها، واستغلوها إلى آخر قطرة دم، عن طريق الهنود أنفسهم، وبعد ثورة قامت عام ١٨٥٧ ، وكانت آخر ثورات الهند القديمة كما سميت ، قال نائب الملك فى ذلك الحين أننا سنظل فى الهند، بقدر ما نستطيع ان نفرق بينها ، لقد قامت الإمبراطورية الرومانية بسلاح «فرق تسد» وعاشت به ، وهكذا يجب أن تكون وأقام البيرطانيون بناء سياسيا واقتصاديا وعسكريا وثقافيا.. جلس على قمته ستمائة «براهما» بريطانى ولم يحتاجوا لحراسة أكثر من عشرة آلاف جندى بريطانى..

أقام البريطانيون ستمائة عرش، يزيد بعضها عن فرنسا مثل نظام حيدر آباد، أو لا يزيد عن قطر مثل «سيكانيز» إحدى الولايات.. وخلقوا طبقات من الأقطاعيين «الزامندار» لتظل الهند زراعية، تورد القطن والجوت والشاى إلى بريطانيا.

وكون البريطانيون جيشا هنديا، هو الذى كون الامبراطورية البريطانية فى آسيا وافريقيا، واحتمل الصدمات الأولى فى الحربين العالميتين، ثم عجز أخيرا عن أن يحمى بلاده « الهند »!

وكون البريطانيون بوليسا هنديا كان أقسى على الشعب الهندي.. من أى بريطانى.. وما لم يرتكبه البريطانيون ارتكبه البوليس الهندى، ولا زال حكمدار «دلهى» العاصمة هو نفس الرجل الذى كان يقبض على «نهرو» فى كل مرة!!

وكون البريطانيون بيروقراطية هندية مشهورة، من أبناء العائلات «العريقة» كانوا يسمونها الطوق الحديدى الذى يحكم الهند. لا زالت حتى الآن تحكم الهند».

واعتمد البريطانيون على «الفرقة الكبرى» بين الهندوس والمسلمين.. وإذا كلما اشتدت

الحركة الوطنية وتضامن الهندوس والمسلمون « استيقظ المسلمون في اليوم التالى ليجدوا خنزيرا مذبوحا وملقى على المحراب، واستيقظ الهندوس ليجدوا رأس بقرة مذبوحة فى المعبد، وتتشابك المذابح، ويستريح البريطانيون لفترة طويلة» وظل المجتمع الهندوكى جاهدا على تقسيماته العتيقة إلى «براهما» أى الحكماء و«خانيدا» أى المحاربين، و«فاشيا» أى التجار، و«سدرا» أى الصناع و«باريا» أى المنبوذين، وكل طابق منها «نجس» بالنسبة للذى يتلوه.

وتفشت الفرقة بين المسلمين أنفسهم، وانقسموا إلى عشرات من المذاهب والفرق- سنيون وشيعة وإسماعيلية وقاديانية – وبينهم من العداء ما يفوق ما بينهم وبين الهندوس.

- ٣١ من مايو ١٩٦٤.



الكـاتـب

* **محمد عودة**

- من مواليد ١٩٢٠ .
- عمل لفترة فى إذاعة الهند .
- كـتب فى مطبـوعـات .. دار الهـلال، روزاليـوسـف، جـريدة الجـمـهـورية منذ تأسيسها .
- قام بزيارات عدة إلى الهند والصين وكوريا وغيرها من البلدان .

* **من أهم مؤلفاته**

- الثورة الصينية .
- ثورة العراق .
- الطريق إلى صنعاء
- ثورة عرابى .
- سبعة باشاوات .
- كرومر فى مصر .
- الملك فاروق .
- ميلاد ثورة .
- الوعى المفقود .

* **بهاء طاهر**

- من مواليد القاهرة ١٩٣٥ .
- حصل على ليسانس الأداب - قسم التاريخ فى جامعة القاهرة عام ١٩٥٦ .
- عمل مخرجاً للدراما ومقدماً للبرامج ومذيعاً فى البرنامج الثقافى بالإذاعة المصرية حتى عام ١٩٧٥ .
- عمل بمقر الأمم المتحدة فى جنيف منذ ١٩٨١ حتى ١٩٩٥ .
- كاتب روائى أصدر العديد من الإبداعات القصصية والروائية منها :

١- الخطوبة .

٢- بالأمس حلمت بك .

٣- أنا الملك جئت .

٤- قالت ضحى .

٥- شرق النخيل .

٦- الحب فى المنفى .

٧- واحة الغروب .

للنشر فى السلسلة :

* يتقدم الكاتب بنسختين من الكتاب على أن يكون مكتوباً على الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء. ويفضل أن يرفق معه أسطوانة (C.D) أو ديسك مسجلاً عليه العمل إن أمكن.
* يقدم الكاتب أو المحقق أو المترجم سيرة ذاتية مختصرة تضم بياناته الشخصية وأعماله المطبوعة .
* السلسلة غير ملزمة برد النسخ المقدمة إليها سواء طُبع الكتاب أم لم يطبع .



صدر مؤخراً فى سلسلة
الإصدارات الخاصة

32- الإسلام والتجديد فى مصر .... تشارلز آدمس - نقله: عباس محمود

33- إنشاء منطقة خالية من أسلحالدمار الشامل (ط٢) . د. فوزى حماد - د. عادل محمد أحمد

34- رحلة عبد الوهاب المسيرى الفكرية .... د. عمرو شريف

35- قناة السويس ملحمة شعب.. تاريخ أمة .... محمد الشافعى - محمد يوسف

36- العدالة والمجتمع المدنى .... د. صلاح هاشم

37- التفسير الصوفى للقرآن الكريم .... د. سيد عبد التواب عبد الهادى

38- هكذا تكلم نجيب محفوظ (ط٢) .... عبد العال الحمامصى

39- دراسات فى التاريخ الاجتماعى لمصر الحديثة..................... تأليف: جابرييل بير

ترجمة وتقديم د. عبد الخالق لاشين - عبد الحميد فهمى الجمال

40- أصداء الأصداء .... عبد السميع عمر زين الدين

41- السد العالى هرم الإرادة المصرية.................. محمد الشافعى - محمد يوسف

42- الشمس المشرقة....................................... الزعيم مصطفى كامل

تقديم: د. مصطفى رجب

43- المسرح القريب .... أحمد إسماعيل

44- عبد الحميد إبراهيم فى عيون الادباء والمفكرين .... إعداد وتقديم/ مصطفى القاضى

45- مسرح الأقاليم علامات على الطريق .... د. عمرو دوارة

46- بستان المسرح ....فريدة النقاش

47- المجددون فى الإسلام ....عبد المتعال الصّعيدى

48- تاريخ وفلسفة العلم فى مصر ....د. أحمد عبد الجواد



من أعدادنا القادمة

1- حزب الأمة ودوره فى السياسة المصرية .... د. أحمد زكريا الشلق

2- مطالعات فى السياسة والثقافة .... د. السيد أمين شلبى

3- التاريخ.. تعليمه وتعلمه .... د. حكمت أبوزيد

4- المجتمع المصرى بين الثابت والمتغير .... د. عبد المنعم الجميعى

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقاً)

أحداث باقية

يقدم هذا الكتاب رؤية المفكر الكبير الراحل/ الباقى، محمد عودة، حول عالم أفضل يسوده العدل والسلام والعطاء. وهو هنا ينطلق من تجربة الهند كنموذج يحتذى به على طريق الديمقراطية السياسية.

والكتاب ليس مجرد تجميع لمقالات كتبها عودة فى فترات متباينة حول أحداث ومواقف شاهدها وشهد عليها، إنما هو يسعى للإجابة على عدة تساؤلات تدور حول حق الشعوب فى حياة أفضل دونما استعباد أو استغلال لهم من قبل تكتلات استعمارية تستنزفهم وتقوض مسيرتهم.

والأستاذ عودة هنا لا يريد أن نبكى على الأطلال أو أن نتعامل مع كتابه بنوع من الحنين إلى الماضى، بل يريدنا أن نستشرف ونسعى لتحقيق المستقبل الذى حلم به طويلاً، ذلك المستقبل الذى يزخر بالعدل والحرية والكرامة.

الغلاف للفنان أحمد الجنايني

www.gocp.gov.eg
www.qatrelnada.com.eg
www.althaqafahlgadidah.com.eg
www.odabaaelaqaleem.com.eg

الأمل للطباعة والنشر

الثمن: ثلاث جنيهات